قصص



الوَجهُ العَاري داخلَ الحُلُم

أحمَد سَعداوي



الوَجهُ العاري
داخِلَ الحُلم

الوَجهُ العاري

داخِلَ الحُلم

THE BARE FACE INSIDE THE DREAM

أحمد سعداوي

الطبعة الأولى: بيروت لبنان، 2018

First Edition: Beirut Lebanon , 2018



لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com
dar alrafidain

info@daralrafidain.com
Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com
@daralrafidain_1 دار الرافدين

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 606 - 94 - 1

قصص

الوَجهُ العاري

داخِلَ الحُلم

أحمد سعداوي



www.daralrafidain.com

«..أين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشتُ وأبقاني الملك.»

*** شهرزاد، ألف ليلة وليلة**

«مباركةٌ كوابيس النوم، فبفضلها نصدّق بوجود الجحيم.»

*** بورخيس، من قصيدة «السعادة».**

الفهرس

عشبة الندم

- 1 -

كانت غرفة جبران مخنوقة بعطن الآثاث القديم وطبقة ثقيلة من روائح معسّل النارجيلة التي يدخّنها عادةً أثناء طقسه الليلي في الشرب لوحده. وبدت الغرفة كابية ومنطفئة تناسب شخصاً يعيش كآبة تزداد مع تقدّم السنين، وتسبّب له العزلة عمّن حوله من الأهل والجيران. ولكن، هل بإمكان «ياسر» أن يفسر سلوك ومزاج أخيه الأكبر حقاً؟

يفتقد ياسر أجواء هذا البيت العتيق، فهو منقطع عنه منذ فترة طويلة، بسبب أخيه الكبير، الذي كان حتّى لحظة سماعه نبأ وفاته، يعيش جفوة متّصلة معه. إنه شخصٌ سيء الطباع، متسلّط، بذيء اللسان، وكان ياسر قد عانى على يديه في مراهقته وسنوات شبابه الأولى الكثير آلاماً ومتاعب، ولم يستطع إزاحتها من ذاكرته إلّا بعد أن استقلّ ببيت مستأجر داخل منطقة البتّاويين وسط العاصمة بغداد، غير بعيدٍ عن محلّ إقامة بقيّة أفراد العائلة، وظلّ جبران مع زوجته وأبنائه في بيت العائلة الكبير، ذي الجدران الرطبة والأرضيات المخلّعة.

حاول ياسر أن يعتصر ذاكرته بدوافع من الشفقة، ليتعرّف على تفاصيل آخر لقاء جرى بينه وأخيه الأكبر، ولكنّه لم يحظَ بأشياء مهمّة. كانت هناك

في العمق مجموعةٌ من الجمل المبتورة التي تشبه الغمغمات مع الوجه الكئيب المليء بالتجاعيد لجبران الحاج، الرجل الجشع والصلب فيما مضى، والذي لم يعد ماضيه الشخصي يعجبه كثيراً في الآونة الأخيرة.

تذكّر ياسر حوارية قصيرة حول الخمر. كان يجلس أمامه على كرسيّ خشبي ويتّكئ على الطاولة المربّعة الصغيرة التي يركنها جبران إلى الحائط في غرفته. وضع جبران مكعّبي ثلج في كأس العرق وحرّكه قليلاً قبل أن يرتشف منه، مع صوت ضعيف لأغنية من أغنيات سعدي الحلّي. تصدر من مسجّلة قديمة موضوعة على الطاولة ذاتها. لم يكن جبران مهتمّاً بالإنصات إلى أغنية سعدي الحلّي في تلك اللحظات، وإنّما للتواصل مع أخيه الصغير الذي غدا الآن، وبعد سنوات من العيش الهامشي، ضابطاً في الشرطة يعمل في التحقيقات الجنائية. قال له؛ إنّه لا يشعر بالندم. وهذا أمر يزعجه ويثقل روحه. وتحدّث بشكل عامّ عن أخطاء كان قد ارتكبها خلال حياته، ولكنّه لم يكشف عنها أمام أخيه.

ـ لماذا لا تشعر بالندم؟

ـ لا أدري.. ربّما هناك عطب ما في روحي أو عقلي. لا أشعر بأنّي إنسان طبيعي.

ـ لا... أنت إنسان طبيعي يكثر من شرب الخمر ليس إلّا.

ـ الخمر لا يجلب الندم. ولكنّي تعوّدت على الشرب الآن حتى من دون ندم.

شعر ياسر بالحزن فجأة وهو يتذكّر هذه الحوارية. وبدا متعاطفاً ولكن في وقت متأخّر كثيراً مع أخٍ مزّق حياته بنفسه وسبّب المتاعب للجميع، ربّما لأنّه لم يعرف كيف يتصرّف بشكل جيد مع حياته. ربّما هو مسكين.

ظل ياسر يردّد هذه المفردات في ذهنه، وهو يجول في الغرفة ذات الرائحة الثقيلة. ينظر إلى الموجودات، ورغم النور النهاري الذي يغمر الغرفة إلّا أنّه كان يسلّط مصباحه اليدوي على الأشياء. إقترب من جثّة أخيه، ولم يستطع أن يمسّها بيده، رغم أن رؤيته للجثث ليست بالأمر الجديد. نظر إلى قنّينة العرق التي مازالت مغلقة وموضوعة في وسط الطاولة، وإلى صحن المزّة المكوّن من الخيار واللبن. لا يبدو أنّ جبران قد بدأ سهرته أصلاً. لقد ذهب إلى الموت من دون جلسة شراب أخيرة. نظر ياسر إلى الكأس الموضوعة بالقرب من الذراع الذابلة الممدودة حتّى منتصف الطاولة، والتي يتّكئ بجوارها الرأس المشعث لجبران، وشاهد مادّة رمادية اللون في قعر الكأس. حرّك بصره قليلاً فرأى ورقةً صغيرة مجعّدة مرمية أسفل الطاولة. حين فردها ياسر شاهد عليها آثار مادّة سوداء، وخمّن سريعاً بأنّها المادّة ذاتها التي في قعر الكأس.

لاحقاً، بيّن تشريح الجثة في الطبّ العدلي أنّ جبران كان قد تعاطى مادّة عشبية، هي مزيج من مجموعة نباتات سامّة. وهي خلطة غريبة، الأمر الذي رجّح، بالنسبة للطبيب الذي فحص الجثّة أن يكون جبران قد أقدم على الانتحار.

إحتفظ ياسر بمعلومة الانتحار لنفسه، وفضّل إخبار العائلة بأنّ أزمة قلبية داهمت جبران الحاجّ، وهو أمر كان يتوقّعه الكثيرون بسبب إفراطه في الشرب خلال السنوات الأخيرة. إنّه يجهز على ثلاثة أرباع قنّينة من عرق العصرية كلّ مساء من دون أن يرفّ له جفن. ولم تنفع محاولات عائلته في تخفيف هذه الكمّية القاتلة. لقد مات بسبب المشروب. إنّها نتيجة منطقية وأكثر من مقنعة.

ظلّ انتحار جبران هاجساً شخصياً لدى ياسر، ولم يشرك به أحداً حتّى أقرب أصدقائه. ولم يخبر به أخاه الثاني «تحسين»، الذي يشترك مع جبران في إدارة ورشة حدادة للسيارات في شارع الشيخ عمر القريب من حيّ البتاويين. وكان تحسين يعاني هو أيضاً من مشاكل مع جبران، بسبب تحديد الحصص في ملكيّة الورشة، ويرى ياسر أنّ كلا أخويه جشع، ومن الصعب تصديق أنّ الحق مع واحد منهما دون الآخر.

كان تحسين، كما بدا في مجلس الفاتحة، مرتاحاً ولا تلوح على وجهه أيّة علامات للتكدّر أو الحزن بسبب موت الأخ الأكبر في العائلة. بدا، بالنسبة لياسر، شخصاً سعيداً للتخلص من جبران المزعج، رغم أنّ جبران في الأشهر الأخيرة لم يكن يزعج تحسين بشكل فعلي، وإنّما يزعج زوجته وبناته داخل البيت، ويصرف وقتاً طويلاً في الشرب أو التعامل مع آثار الشرب، والتي تظهر في اليوم التالي، وتجعله كسولاً حتى منتصف النهار.

كان ياسر الشخص الوحيد الذي احتفظ بحالة من الحزن على مقتل أو موت أخيه لعدّة أسابيع بعد إنقضاء مجلس العزاء. أمّا عائلة جبران نفسها، زوجته وبناته، فلم يتأخّرن كثيراً. في الأسبوع السادس من موت الزوج هدمت الزوجة الجدار الأماميّ لإحدى الغرف في بيتها القديم الكائن في زقاق سبعة، وحوّرت الغرفة إلى دكّان، وجلست بناتها المراهقات في هذا الدكان على مدار الساعة، وحتى وقت متأخّر من الليل لبيع السجائر والعلكة والحلويات وبعض الأغراض التي تحتاجها البيوت المجاورة في العادة.

كان كلّ شيء يدفع لإنحسار صورة جبران الحاجّ من رأس ياسر تدريجياً، خصوصاً مع إنشغاله بعمله الذي يجعله قريباً من حكايات أكثر

الضاعة، عن حالات ثأر وانتقام، وجرائم غريبة ترتكب في بغداد، على الأقلّ منذ دخول القوات الاميركية إلى المدينة في نيسان 2003. حيث صار الموت بأكثر من طريقة ووسيلة أمراً شائعاً ومعتاداً.

كان الإنشغال بهذا الموت الذي يتناثر على الجميع في أوقات مفاجئة، أمراً يدفع لغز موت جبران الحاج إلى الخلف شيئاً فشيئاً. فبعد أسابيع من التفكير ومحاولة تحليل الأدلّة القليلة المتوفّرة على وجود جريمة حقّاً، لم يصل ياسر إلى نتيجة مشجّعة. ولكنّ أمراً ما حدث فبثّ حماسة أكثر في قصّة مقتل أو موت جبران.

لقد أطّلع ياسر على تقارير متتابعة تتحدّث عن حوادث موت مشابهة وبالمادّة السميّة ذاتها التي قتلت أخاه جبران. كان الميّتون أو القتلى كباراً في السنّ غالباً، بعضهم أكبر من جبران. لم يكن هناك شابٌّ بين الميّتين. هل سادت حالة من الكآبة الانتحارية لدى شريحة العجائز من الرجال يا ترى؟ هل هذا بسبب أجواء الحرب والفوضى؟

ـ إنّها جرائم.. وليست حالات إنتحار.

قال الضابط المسؤول عن ياسر، وهو يستعرض تقارير التشريح الجنائيّ لسبعة جثث تمّ العثور عليها خلال الأسابيع الماضية، وبوضع يشابه وضع جبران تقريباً. ميّتون في أسرّتهم، أو على طاولات خمر. أحدهم وجد جاثياً عند باب بيته، وبدا وكأنّه يحاول طرق الباب غير أنّ تفاعلات المادّة السميّة منعته من ذلك.

التحقيقات التي أجراها ياسر بمعاونة أثنين من مساعديه، مع عوائل القتلى لم توصله إلى مصدر المادّة السميّة. كان الغالبية يجهلون وجود

هذه المادة. رجل واحد أخبر زوجته العجوز بهذه المادّة ومدى تأثيرها، ولكنّه لم يخبرها من أين جلبها.

كانت الأرملة العجوز تقيم لوحدها في بيت متداعٍ بالقرب من المعبد اليهودي المهجور وسط البتاويين. كانت حزينة وتتحدّث باقتضاب، ولا شهية لها لمواجهة الغرباء. ظلّ ياسر يستحثّها على المزيد من الكلام حتى ذكرت له شيئاً مثيراً:

ـ كان يقول بأنّه يريد الشعور بالندم. قال بأنّ هذا هو علاج له حتّى يشعر بالندم.

ـ لماذا يريد أن يشعر بالندم؟

ـ كانت لديه مشاكل في الماضي لم يخبرني عنها أبداً.

ترك ياسر هذه العجوز تغرق في ذكرياتها وعتمة بيتها المتهالك وخرج مع مساعديه إلى الشارع مع شعور لم يستطع كبحه أنّه وضع يده على مفتاح ما. لقد مات زوج هذه العجوز موتاً مماثلاً لموت جبران الحاجّ، وللأسباب ذاتها؛ الرغبة بالندم. إنّه مفتاح ما، ولكن لا يوجد باب محدّد يمكن فتحه به.

أغلق ملفّ هذه القضايا وتم تثبيت نتائج التحقيق، بسبب الإرهاق وضغط قضايا كثيرة متلاحقة، على أنّها حالات انتحار بشرب السمّ. غير أنّ الأمر لم ينته مع ياسر تماماً، حتّى المساء الذي إلتقى فيه بـ«حنّون الساحر».

ـ 2 ـ

كان «جمعة النوري» صديق طفولة لياسر. شابّاً ذكياً ومغامراً، وكان يتوقّع الجميع أن يستثمر ذكاءه للحصول على وضع اجتماعي ومادّي

جيد، غير أنّه ظلّ يجازف ويشترك بصفقات تجارية خاسرة، حتّى إنتهى به الأمر إلى الإدمان على شرب الكحول، ثم السكن في غرفة بائسة في موتيل السعادة في حيّ البتاويين، وينتظر المعجزات، وعلى الرغم من العواصف السياسية التي غيّرت وجه البلد بشكل كامل بعد نيسان 2003 إلّا أنّ حياة جمعة النوري لم تتغيّر تماماً. كان يعمل في النهار كاتباً في شركة تجارية، ويقضي ما بعد الظهر يشرب على مهل في غرفته، أو يجالس جاره في الغرفة المجاورة، «حنّون الساحر». ولم يكن حنّون في وضع أفضل. كان رجلاً تجاوز الستين من عمره، برجل مقطوعة من أسفل الركبة بسبب مرضٍ ما تعرض له في السجن، الذي مكث فيه لأكثر من عشر سنين، وأنتهى فجأة، مع إقتراب إعلان الحرب الاميركية على النظام العراقي، حيث أضطرّ الأخير، لدواعٍ غامضة إلى إطلاق سراح السجناء وإفراغ ما في السجون قبيل بداية الحرب. خرج حنّون من السجن وقتها، ليجد أنّ عائلته قد تفرّقت، وولده الوحيد هاجر من العراق. لم يكن هناك حتّى البيت الذي عاش فيه حنون لفترة طويلة. وظلّ الجميع يتحدّثون عن أساطير مرتبطة بحنّون، فهو لم يتأثّر أبداً بما وجده أمامه بعد خروجه من السجن، لأنّه كان يعرف كلّ الذي جرى له، وعرف، وهو في السجن، أنّ عائلته تفرّقت ما بين ميت ومهاجر، وأنّه لن يجد البيت الذي نشأ فيه قائماً في مكانه.

كانت التّهمة التي دخل بها حنّون إلى السجن هي معاونته للفارّين من الخدمة العسكرية. كان يصنع لهم أحرازاً وتعاويذ تمنع الانضباط العسكري وكذلك أعضاء حزب البعث الذين يتولّون مهامّ أمنية داخل المدن، من إلقاء القبض على الجنود الفارّين. وتمّ تصوير الأمر في وقتها

بشكل مهول، فحنّون مسؤول عن فرار العديد من الجنود من الخدمة العسكرية. كان شعورهم بإمكانية الفرار بمساعدة حنّون، تساعد في تكثير الهاربين المحتملين. وسرعان ما امتلأت حانات شارع أبي نؤاس والملاهي الليلية في شارع السعدون بالشباب الفارّين من الحرب، الذين ظلّوا يقرعون الكؤوس بدل إطلاق النيران على الأعداء. لقد تمّ تصوير حنّون على أنّه واحد من أكثر مصادر الخطر جدّيّة. ورغم إنكاره مسؤوليّته عن فرار جندي واحد، إلّا أنّ السلطات كانت تملك من الأدلّة ما يكفي للحكم عليه بالسجن المؤبّد.

في السجن كانت سمعته قد سبقته، ووجد السجناء يتحلّقون حوله وكلّهم فضول لمعرفة ما يمكن أن يقدّمه هذا الرجل الخارق لهم. كانوا جميعاً يطلبون منه أن يساعدهم على الفرار. تعويذة ما تمنع الحرس من رؤيتهم وهم يتسلّقون الأسوار الإسمنتية العالية، وتجاوز الأسلاك الشائكة. لم يرغب بإخبارهم بالحجّة المنطقية لإمتناع ذلك، فلو كان يملك هذه القدرة لما بقي معهم دقيقة واحدة. بل أنّ أحد العجائز من السجناء تقدّم إليه ذات مرّة وجلس بين يديه وكأنّه معبود ما أو رجل دين شديد السطوة، وقال له بنبرة موحية:

ـ لقد كنت أنتظرك. أنت لم تدخل السجن عبثاً، لقد جئت استجابة لدعائي للّه.

كان حنّون الساحر مبعوثاً إلهياً لهذا الرجل، مثلما هو مبعوث لآخرين، حتى الحرس والطباخ في مطعم السجن. كلّهم كانوا ينتظرون الخلاص على يديه، غير أنّه لم يكن يملك شيئاً فعلياً يستطيع تقديمه لهم. قال إنّه قادر على جعلهم يتوهّمون العيش خارج السجن. وهذا الوهم، في حال

انعدام خيارات أخرى أكثر واقعية، ربّما يكون حلّاً جيداً، خصوصاً لأولئك المحكومين بفترات طويلة.

إستغرق جمعة النوري في الحديث عن حنّون الساحر لوقت طويل أمام صديقه ياسر، وكان من الواضح أنّه مأخوذ ومعجب بهذه الشخصيّة.

ـ بإمكانك أن تسأله عمّن قتل أخاك.

قال جمعة ذلك، من دون أن يتوقّع ردّة فعل معيّنة من ياسر على هذا العرض. فإن كان جمعة قد اختلطت عنده الأشياء جميعاً بسبب فوضى حياته، وصار مشوّش الذهن ويصدّق بالخرافات وأكاذيب العرّافين، فما الذي يدفع صديقه ضابط الشرطة إلى الإيمان بذلك؟ إنّ طرح أسئلة تتعلق بقضية جنائية على العرّافين هو بحدّ ذاته أمر يدفع للسخرية.

كان ياسر جالساً في غرفة جمعة النوري، يعرّض نفسه للهواء الدافئ الذي تحرّكه المروحة السقفية بعنف، وينظر إلى سخّان نفطي صغير بدأت ناره بالتضاؤل والتبعثر بسبب حركة الهواء، بينما يرفع جمعة إبريق الشاي من فوقه ويسكب في استكانين صغيرين، من دون أن يتوقّف عن الثرثرة.

ـ إنّه هنا في الغرفة المجاورة. الناس تدخل عليه كلّ يوم. كان معروفاً قبل أن يسجن، وبعد خروجه استعاد بسرعة مكانته السابقة. شخص مثل هذا من المستحيل أن يكون كلامه كلّه أكاذيب، وإلّا ما هذه الشعبية؟

ـ الناس تصدّق بأيّ شيء. كشف المستقبل وخفايا وأسرار الحياة الشخصية أمر يشبه الفن.

ـ دعنا نذهب لنسلّم عليه، قبل أن تنكسر حرارة الظهيرة ويبدأ الناس بالتدفّق عليه.

ـ لا أرجوك. لا تكن سخيفاً، ثم إنّي لا أملك وقتاً كثيراً وعليّ المغادرة الآن.

ـ 3 ـ

ـ لقد قتل أخوك على يد شخص مقرّب منه.

ظلّت هذه الجملة المنسوبة إلى حنّون الساحر عالقة في ذهن ياسر لأيّام طويلة. كان جمعة النوري قد تبرّع، رغم رفض ياسر، لطرح الموضوع أمام حنّون. ومحاولة الكشف عن قاتل جبران.

عرف حنّون أبعاد القصّة، ولم ينتظر وقتاً طويلاً للتأمّل مثلاً، وأطلق تصريحه المثير: لقد قُتل جبران على يد شخص مقرّب منه.

لم يستطع ياسر تجاهل هذا التصريح، رغم أنّه جاء من طريق غير منطقية بالنسبة له.فكّر؛ إنها من المؤكد زوجة أخيه. دسّت له السمّ في كأسه في تلك الليلة، وجعلته يلفض أنفاسه على طاولته بهدوء. أو هو أخوه الثاني «تحسين»، أراد التخلّص منه للانفراد بملكية ورشة حدادة السيارات.

ذهب إلى بيت أخيه المتوفّي وجلس مع زوجته وشرع معها بتحقيقٍ جديد. كانت غرفة جبران قد تحوّلت إلى مخزن للآثاث، وتغييرات مماثلة طالت الغرف الأخرى وبعض التفاصيل في البيت، بحيث غدا بيتاً أكثر حيوية من السابق. لم تقدّم الزوجة بمسكنتها وهدوئها أيّة معلومات جديدة، وحين نظر ياسر إلى عينيها طويلاً شعر بأنّها صادقة فيما تقول. لم تفعل لزوجها شيئاً. كانت تعاني من نوبات غضبه، ومن التضييق عليها في حياته، ولكنّها لا تكرهه، كيف تكره والد أبنائها؟

لم ينفع الأمر مع تحسين أيضاً. لا شيء جديد. الكراهية لا تؤدّي بشكل مباشر إلى القتل. ليس الأمر بهذه السهولة.

ـ 4 ـ

كان الجوّ يتغيّر في الخارج. تخمد حرارة الصيف سريعاً، ويغدو الليل أخفّ وطأة، وكان حنّون الساحر مع جمعة النوري يشربان، على صوت سعدي الحلّي المتفجّع. وعلى خلاف ليالٍ سابقة، كان حنّون أقلّ انكفاءً إلى الداخل، منشرحاً وهو يتحدّث ويروي النكات، ويضحك مع أيّة كلمة يقولها جمعة.

قال له، بأنّه كان يخاف، طوال السنوات العشر الماضية، أن يموت، ولكنّه الآن لا يخشى شيئاً. ليس لديه سوى هذا النفس الصاعد والنازل، لا ينتظر أن تعود قدمه المفقودة إلى مكانها، ولا أن يرجع به الزمن إلى الوراء فيعود شابّاً قوياً، لا رغبة له بالنساء، وجسده يخذله أكثر فأكثر، وعلى الأغلب سيموت وهو نائم في هذا النُزُل الحقير، وهذا بحدّ ذاته لا يزعجه أو يخيفه. فهو الآن مستعدّ للموت، أكثر من أيّ وقت سبق.

ـ لماذا تقول هذا الكلام؟ الآن كنا نضحك ونغنّي؟ ما الذي غيّر مزاجك؟

ـ لا.. لم يتغير مزاجي ولا أيّ شيء آخر.. أنا أحكي معك بصراحة فقط. لست حزيناً. مازال مزاجي رائقاً.

ـ نعم.

ـ كنت خائفاً أن أموت قبل موت أعدائي.

ـ وهل لديك أعداء؟

ـ نعم. ليسوا كثيرين، ولكن لديّ أعداء، والآن رحلوا.

شعر جمعة بأنّ صديقه الساحر قد سكر فعلاً، شرب أكثر من المعتاد، ومع اندفاعه بالكلام، لم يبد لائقاً مقاطعته أو مغادرة الغرفة دون أن يكمل ثرثرته. قال له بأنّه عرف أؤلئك الذين كتبوا التقرير الأمنيّ الذي أودى به إلى السجن، أنهم من منطقته في حي البتاويين، شخصان من رجال الحزب، وبعد سنوات، استطاع معرفة إسم الضابط الذي قام بالتحقيق معه، ثم إسم القاضي الذي حكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة.

كان القاضي عجوزاً فمات قبل أن ينتقم منه، وضابط التحقيق أقصي من عمله في حملة اجتثاث البعث، ثم عاد لاحقاً استناداً إلى صفقة سياسية أعيد بموجبها مجموعة كبيرة من الضبّاط الصغار، وأيضاً مات هذا الضابط قبل أن يصل إليه حنّون الساحر. انفجرت سيّارة مفخّخة بجوار سيّارته أثناء وقوفه أمام دائرته الأمنية. تطاير جسده وتقطّع إلى أشلاء. أمّا الرجل الحزبيّ، الذي ساهم في كتابة التقرير الذي أودى بحنّون الساحر إلى السجن، فقد نصب له مجموعة من الشباب كميناً خلال الليل، وكانوا أبناء ضحايا على يد هذا الحزبيّ. أمطروه بالرصاص، وتمّ العثور على جثّته المدماة صباح اليوم التالي ملقاة أمام كنيسة الأرمن الضخمة قرب ساحة الطيران.

أما الحزبيّ الثاني، صاحب الوشاية الأصلي، والشخص الذي كرهه حنّون الساحر أكثر من غيره، فكان جاراً قديماً لعائلة حنّون. يتذكّر حنون أياماً كانا يلعبان بها الدومينو في مقاهي الحيّ، أو يقفان لإنزال قناني الغاز

من عربات الباعة المتجوّلين. كان أشبه بصديق، ولكنّه لم يتبادل معه كلاماً عميقاً، ولا يفهم لماذا تجرّأ وكتب ذلك التقرير عن كون حنون يساعد الهاربين من الخدمة العسكرية. ربّما كان يغار منه أو يحسده. أو لأنّه رغب بزوجته الشابّة. كان يريد الزواج بزوجة حنّون. لذلك أودى به إلى السجن. رغم أنّه لاحقاً لم يتزوّج هذه الزوجة. كان إسم هذا الحزبيّ الكريه هو «جبران الحاج». وظلّ حيّاً ولم يقتله أحد، رغم أنّ جبران، في أعماقه، تمنّى لو أن شخصاً ما يقوم بهذه المهمّة، يضغط على الزناد ويفجّر رأسه بإطلاقة واحدة، ويخلّصه من شعوره بالمأزق، وعدم الشهية للحياة.

كان حنّون الساحر متأكّداً من أثنين بشكل حاسم؛ ضابط الأمن الذي حقّق معه، والقاضي الذي حكم عليه، أما الحزبيّان فلم يعرفهما في البداية. لم يعرف أنّهما أثنان أو واحد، ولم يعرف أنّ هناك تقريرا حزبيّا أصلاً خلف اعتقاله.

- 5 -

ذات مساء، دخل جبران الحاجّ إلى غرفة حنّون الساحر فجأة. سلّم عليه، وجلس أمامه مثل أيّ زبون يسعى لكشف الطالع أو عمل حرز من الأحراز ضدّ الحسد، أو لجلب الرزق ودفع الرصاص الطائش وما إلى ذلك من قضايا تشغل غالبية الناس في بغداد. واحتاج حنّون إلى بعض الوقت قبل أن يتعرّف على هذا الجالس أمامه. وحين عرف أنه جبران الحاجّ تعامل معه كصديق، صافحه مرّة ثانية وابتسم بوجهه، غير أنّ جبران لم يبتسم أبداً. بدا كشخص لم يعرف الإبتسام منذ زمن طويل. كان وجهه جامداً وهيئته مزرية. لم يكن أبداً بالصورة التي كان عليها في

الثمانينيّات، رجلاً انيقاً حليق الوجه بشعر مصبوغ، يضع عطوراً فاخرة وينتعل أفخر الأحذية الإيطالية. الآن هو مجرّد هيكل متداعٍ، وأقرب إلى هيئة شحّاذ أو متشرّد.

استغرق بالحديث معه وقتاً طويلاً، عرف خلالها حنّون أنّ جاره القديم في وضع بائس. ويقف على حافة الجنون. روى له جبران عمليات الاغتيال التي طالت رفاقه الحزبيّين في المنطقة. ثم انتقل فجأة ليتحدّث عن عمر جدّه ووالده الكبير. لقد عبرا المئة سنة حين توفّيا، وهو لا يريد الوصول إلى هذا العمر. كان يخشى أن يكون الأمر وراثياً. لم يكن لديه الكثير ممّا يرغب به في هذه الحياة. حتى الشرب لم يعد ممتعاً. إنه ببساطة صار عجوزاً ويريد الموت، ولهذا جاء إليه.

ـ لقد بعثتُ الكثير من الناس إلى جبهات القتال في الجيش الشعبي، كتبتُ مئات التقارير التي كسرت رقاب الناس. عملتُ فضائع عديدة، فلماذا لم ينتقم منّي أحد؟

تساءل جبران أمام حنّون الساحر، ولم يعرف حنّون بماذا يجيب. ولم يعرف أيضاً ما علاقته برغبة جبران بالموت.

ـ أريد الشعور بالندم. البكاء على ما اقترفت يداي. ولكنّي على ما يبدو شخص ميئوس منه. أنا من الشياطين. ويمكن لي أن أعترف أمامك الآن بأنّني أساساً استمتعت بالأمر. كان الأمر ممتعاً. شعور رائع بالنفوذ والسيطرة. هل هذا كلام إنسان طبيعي؟

سؤال آخر موجّه إلى حنّون الساحر، ولكنّه بقي صامتاً ينتظر من جبران أن ينهي كلامه.

ـ أعتقد أنّ الأمر سيكون مهمّاً بالنسبة لك، حين تعرف بأنّني أنا من أودعك السجن. أنا من كتب التقرير الحزبيّ، بمساعدة رفيق آخر في الحزب. كلانا أودى بك إلى السجن لخمس عشرة سنة. هل ستكرهني الآن أم ماذا؟

سأل جبران، وشاهد علامات الصدمة على وجه حنّون الساحر. لم يكن يتوقّع أنّ هناك رجالاً آخرين في دائرة انتقامه. وها هو جلّاد ينبثق أمامه فجأة، وعليه، وفق المنطق الذي سيطر عليه لسنوات طويلة، أن ينتقم منه. إنها فرصته. ولكن، كيف يفعل ذلك، إنه عجوز ومقطوع الساق. لا يملك أياً من الأسلحة الناريّة حتّى يطلق النيران على جبران الحاج. لا يستطيع القيام لخنقه بيده. وحتى لو فعل ذلك فعلى الأرجح لن يكون بقوة كافية لخنقه بشكل جيد. ما الذي يريده هذا المجنون يا ترى؟ ربّما يكذب. ربما يبحث عن شخص يقتله ليس إلّا، واختار حنّون بشكل إعتباطي.

ـ إمّا أن تقتلني، أو تجعلني أشعر بالندم.

ـ وكيف أفعل ذلك؟

ـ أعطني سحراً أو دواءً أو أيّ شيء. عالجني. أجعلني أبكي كثيراً، وأشعر بالذنب.

ـ هذا غير ممكن. لا يوجد شيء يدفع الإنسان إلى البكاء إن لم يكن نابعاً من ذاته، من أعماقه.

ـ وإن كانت هذه الأعماق فارغة، ما الذي سنفعله حينها؟

ـ لا أعرف... وأنا لا أصدق أنّك كتبت التقرير الحزبي. لا يوجد شخص يفعل هذا ثم يأتي ليعترف.

ـ عليك أن تصدق. ليس عندي دليل على كلامي، ولكنّي أنا عدوّك الأساسي. عليك أن تكرهني وتحاول الانتقام منّي، ويا ليتك تفعل هذا الليلة، أو الآن إذا أحببت.

ـ لا أعرف... أنا متعب.. وأريد أن أبدأ شربي لهذه الليلة.

ـ أنا أشرب أيضاً، ولكني لا أستمتع بالشرب. هل نشرب سوية؟

ـ كما تحب.

شربا حتى منتصف الليل، ثم أعطاه مادّة عشبية سامّة. قال له بأنّها إمّا تساعده على الشعور بالندم أو إنها ستقتله فوراً، بمجرّد خلطها بالماء وشربها. شكره جبران كثيراً، وعاد إلى بيته سعيداً. وجد أنّ زوجته قد أعدّت مائدته، واشترت له من مخزن أبو أدوارد المسيحي المطلّ على الشارع التجاريّ في البتاويين قنّينة عرق مستكي كاملة. أعدّت له الجاجيك وشغلت له سعدي الحلّي. كانت خدومة مثل عبدة. وانتظرت أن يجلس أمام طاولته وتطمئنّ أنّه لا يحتاجها بشيء لتذهب إلى النوم. خلط جبران المادّة العشبية الداكنة بالماء في الكأس وشربها على الفور. استغرق الأمر بضع دقائق قبل أن يشعر بالنعاس بسبب الشرب الكثير مع حنون الساحر، أو بسبب المادّة السمّية. وضع جبهته على الطاولة ومدّد يديه عليها، ثم غطس في غيبوبة قاتلة.

ـ إن لم تكن تستحق الندم فستقتلك هذه المادة. إنّها اختبار خطير.

كانت هذه آخر جمل حنّون الساحر مع جبران الحاجّ. ويبدو أنّ جبران لم يكن يستحقّ الندم.

سرد حنّون الحكاية كلّها أمام جمعة النوري، الذي استمع إليه بذهول،

ولكنّه وضع بعض الإضافات السحرية على الحكاية. فهو لم يخبر جمعة النوري بأنّه لم يعلم بأمر رجلي حزب البعث اللذين كتبا التقرير. وقال له بأنّه أرسل نوعاً من الجنّ إلى القاضي لخنقه في فراشه. وكذلك الأمر مع ضابط التحقيق، فقد قرأ على إسمه بعض التعازيم التي جعلته متسمّراً وراء مقوده في السيّارة ولم ينزل منها حتّى جاءت السيّارة المفخّخة وانفجرت بجواره. أخبره كذلك بأنّه ظلّ يستدعي كلّ أعدائه، أولئك الذين عذّبوه في السجن، أو صفعوه مجرّد صفعة في غرف التحقيق والاحتجاز، أو بصقوا على وجهه. أحصاهم فكانوا ثمانية رجال. استدعاهم بالتخاطر وتسخير الجنّ واحداً فواحداً وأعطاهم المادّة العشبية. هذه المادة التي تورث الندم لمن يستحقّه، وتقتل من لا يستحقّه. نجح رجل واحد في اجتياز الاختبار، وصار بكّاءً يقيم أغلب نهاراته في فناء الشيخ عبد القادر الگيلاني. بينما لم يستحقّ السبعة الآخرون الندم فماتوا.

الرجل الثامن والأخير كان جبران الحاج. وها هو حنّون الساحر يشعر بأنّ مهمّته الأخيرة في حياته قد إنتهت. لم يكن يتوقّع أن ينتهي انتقامه بهذه السرعة.

ـ ألم تفكّر للحظة واحدة بأنّهم ربّما لا يستحقّون الموت؟

ـ أنا لم أقتلهم. هم قتلوا أنفسهم. لم يكونوا في أعماقهم يرغبون بالندم.

ـ لقد أعطيتَهم مادّة سمّية قتلتهم. أنت قتلتَهم. ألا تشعر بتأنيب الضمير بسبب ذلك؟

ـ لا.. لماذا أشعر بتأنيب الضمير؟ إنّها العدالة.

ـ أنا أشعر بتأنيب الضمير الآن لأنّي جلست واستمعت إلى هذه الحكاية.

ـ لماذا؟

ـ أنت مجرم يا حنّون، وعليّ إبلاغ الشرطة. وحينها سأخونك كصديق وجار لي في هذا النزُّل. وحين لا أبلغهم، سأظلّ مذنباً أمام نفسي، لأنّي أتستّر عليك، وربما تكرّر جرائمك هذه مرّة أخرى.

ـ لا.. أولاً أنا لست مجرماً. ثانياً لقد انتهت هذه الحكاية. أنا أحكيها لك لأنّها انتهت.

ـ لقد ورّطتني يا حنون. كان عليك أن لا تروي لي أيّ شيء. كنّا نضحك ونغني مع سعدي الحلّي ونشرب العرق الزحلاوي فقط. لماذا فتحت هذه السيرة العجيبة. كيف سأنام الآن؟

ـ أعطيك مادة عشبية تساعدك على النوم.

ـ لا.. اللّه يخليك. لا أريد أن آخذ منك أيّ شيء على الإطلاق.

دخل جمعة النوري في محنة حقيقيّة. وتأكّد له أنّ هذا الرجل الذي ينادمه منذ فترة طويلة هو شخصٌ مخبول. ولكنّه ليس مخبولاً عادياً، فعلى ما يبدو، أنّ أشدّ أنواع الجنون هي تلك التي تتغطّى بهيئة شخصٍ عادي هادئ الملامح.

ـ 6 ـ

بعد يومين من التحقيق الذي أجراه ياسر مع زوجة أخيه الأكبر داخل البيت، زارته أبنة أخيه الصغرى. كانت الأكثر جرأة من بين بنات جبران الحاجّ. جلست معه في صالة استقبال الضيوف، وقبل أن تشرب العصير الذي وضعته زوجة ياسر أمامها قالت لعمّها الأصغر أنها تعرف كيف مات أبوها. ولم تُرد إخبار أحد بالموضوع خشية الفضيحة.

ـ الموضوع يتعلّق بمنشطات عشبية.. منشطات جنسيّة.

قالت هذه البنت ولم تنظر إلى عيني عمّها مباشرة بسبب خجلها وحيائها. ثم سردت كيف أنّ والدها لم يكن يعاني من شيء، لا نوازع انتحارية، ولا شعورٍ باليأس والإحباط. كان شخصاً عادياً يستمتع بيومياته البسيطة وخاصة جلسته أمام مائدة الشرب. ولكنّ زوجته كانت تلحّ عليه بشأن ضعف انتصاب عضوه الذكريّ، وشعوره بعدم الرغبة بالجنس. ثمّ مع الإلحاح دلّته على رجل مشهور بالمنطقة بسبب بيعه لمادّة عشبية تساعد على علاج الضعف الجنسي. إنّه حنّون الساحر، وسمعت عنه وعن براعته من النسوة في المنطقة. ولأنّ مكانه ليس بعيداً، وحتى ينتهي من إلحاح زوجته، ذهب جبران الحاج إلى حنّون الساحر وجلب المادّة العشبية التي شربها في تلك الليلة وبدل أن تعالج مشكلته الجنسية أدت إلى قتله.

ـ لقد قُتِلَ أخوك من شخص مقرّب منه.

تذكر ياسر كلام حنّون الساحر، وأمّن مع نفسه على صحّته. نعم، لقد قُتِلَ جبران على يد زوجته الحمقاء، من دون أن تقصد ذلك طبعاً، وها هنا تنتهي القضية كلّها، بالنسبة لياسر، خصوصاً وأنها انتهت أصلاً في سجلّات التحقيق الجنائي منذ عدّة أسابيع.

ورغم ذلك، أراد التأكّد أكثر، فتوجّه هذه المرّة إلى حنّون الساحر، ليسأله عن سرّ هذه المادة العشبية التي قتلت أخاه.

دخل كالعادة إلى غرفة صديقه جمعة النوري، الذي بدا متفاجئاً من هذه الزيارة. لم يكن جمعة مرتاحاً وبانت عليه علائم الاضطراب والحرج. الأمر الذي أثار انتباه ياسر، وبعد بضعة أحاديث متفرّقة، وحديث عن

الطقس المعتدل، وكيف أنّ الصيف هرب بسرعة، وكلام عن نشرات الأخبار والضحايا جرّاء العمليات الإرهابية والحكومة الانتقالية الجديدة وما يقوم به الأميركان من اعتقالات لبعض الشباب المتّهمين بالإرهاب، صمت جمعة قليلاً ثم عرض على ياسر أن يعمّر له نارجيلة فرفض. اتّجه جمعة إلى منقلة الفحم وقلّب الجمرات المتوهّجة فيها واختار واحدة كبيرة وضعها على رأس النارجيلة وشفط من خرطومها بقوّة عدّة مرّات حتّى جاءه الدخان الأبيض الكثيف. سرد ياسر أمام صديقه التطوّرات التي حصلت له بشأن قصّة أخيه المتوفّى، وكانت تطورات مثيرة بالفعل بالنسبة لجمعة. وبعد صمتٍ وانشغال بالنارجيلة لبعض الوقت، شعر جمعة بالشجاعة الكافية لكي يسرد أمام صديقه ما حدث مع حنّون الساحر في الأيام الماضية، وهو ما فاجأ ياسر كثيراً. لم يقتل حنّون الساحر أخاه جبران عن طريق الخطأ، وأنّما هناك سبق إجراميّ في قتله وقتل أشخاص آخرين بالطريقة نفسها، ولكنه من أجل تأكيد الاتّهام يحتاج إلى خطّة ما.

دخلا على حنّون قبيل الغروب ووجدا أناساً جالسين ينتظرون الحصول على أحرازهم وأدعيتهم وأدويتهم الشعبية، وحين خلت الغرفة من هؤلاء الزبائن، قال ياسر بأنّه يريد الشعور بالندم. وأشار جمعة من خلف ظهر ياسر إلى حنّون إشارة فهم مغزاها، بأنّ عليه التخلّص من هذا الزبون بأسرع وقت حتّى يتفرّغا لجلسة سمرهما المعتادة.

ـ هذه مادّة عشبية، هي مثل الاختبار، إن لم تكن مؤهّلاً للندم فإنها ستقتلك.

ـ كيف أعرف بأنّي مؤهل أو غير مؤهل للندم. أنا لا أريد أن أموت؟

ـ عليك أن تكون مستعدّاً لمواجهة الموت للحصول على الندم الذي تريده.

ـ نعم.

ردّ ياسر وهو يأخذ اللُفافة الورقية التي حوت مسحوق المادّة العشبية داكنة اللون، واتّجه من فوره إلى المعمل الجنائيّ لتحليل هذه المادّة ومعرفة مدى مطابقتها للموادّ التي عثر عليها بحوزة القتلى الستة، وكذلك في قعر كأس جبران الحاج.

ـ 7 ـ

نزع جمعة حذاءه ومدّد رجليه في غرفة حنّون الساحر، وحين اطمئنّوا إلى عدم قدوم زبائن آخرين، فتح جمعة قنّينة مشروب جديد وسكب منها في كأسين.

ـ ما هذا؟ طعمه غريب؟

تساءل حنّون فردّ جمعة:

ـ هذا الموتاي.. الشراب الوطنيّ الصينيّ.

ـ من أين حصلت عليه؟

ـ جلبه ربّ عملي اليوم، وأهداني قنّينة.

ظلّا يشربان من الموتاي، ثم نظر جمعة إلى الساحر العجوز وهمّ بقول شيء. كان يشفق عليه. وانتبه حنّون لهذه النظرة ذات المغزى، فسأله عمّا به.

ـ هل هناك شيء؟

ـ نعم.. أنا أنتظرك كي تسكر.

ـ سيطول انتظارك.

ـ هل تعلم بأنّ ياسر، الشاب الذي زارك نهار اليوم، هو ضابط بالشرطة وقد أخذ المادّة العشبية منك ليحلّلها في المختبر؟

ـ ولماذا يفعل ذلك؟

ـ ربما تكون سامّة؟ أيّ أحمق يشرب شيئاً لا يعرف ما هو؟

ـ كلّنا حمقى. لقد شربنا هذه الحياة السامّة كمقلب كبير.

ظلّا يثرثران، ولم يبد أن حنّون قد أهتمّ أصلاً لكلام نديمه، حتى دخلا ببطء في حالة من الخدر والسكر الخفيف.

ـ لقد قلت لك.. أنا حياتي انتهت الآن. انتقمت من كلّ أعدائي. وهذا أهمّ شيء كان عندي. والآن في أيّ وقت يأتي الموت فأهلاً وسهلاً به.

ـ هذا كلام مخبولين.. أيّ أحمق يفرّط بالحياة.

ـ تتحدّث عن الحمقى كثيراً الليلة.. وأنت واحد منهم.

ـ أنا أحمق طبعاً... لقد ضيّعت حياتي على التفاهات. لم أقم بأيّ شيء مشرّف.

ـ ما دام الأمر كذلك فلا تتحدّث عن الحمقى.

ـ لا تريدني أن أحكي عن الحمقى حتّى لا أزعج كبيرهم الذي هو أنت.

ـ هل أنت نادم على شيء يا جمعة؟

سأل حنّون فجأة، فصمت جمعة لدقيقة ثم إلتمعت عيناه وكأنّه على شفا أن يبكي وردّ قائلاً:

ـ نعم.. أشعر بالندم على حياتي كلّها. كلّ شيء في حياتي هو خطأ فوق خطأ فوق خطأ. أشعر أحياناً أنّني أنا نفسي مجرّد خطأ مرّ على هذه الحياة.

ـ جيد.

ـ لماذا تقول ذلك.

ـ لأنك حين ذهبتَ لإحضار جمرة أخرى لنرجيلتك وضعتُ المادة العشبية في مشروبنا. في المشروب الوطني الصيني.

ـ ما الذي تقوله؟!!

ـ نعم، أنت لم تشربه سابقاً، ولا أنا، وتتعرّف على طعمه الآن لأوّل مرّة، طعم مخلوط بمسحوق الندم.

ـ أنت مجنون، كيف تفعل ذلك؟!

ـ أنت لا تصدّق بمسحوق عشبة الندم، وتعتقد أنّه مجرّد خدعة لقتل الناس. ولكنّي أؤكّد لك أنّه حقيقي.

ـ يا حقيقي حنّون.. شلون تسوّي هيج؟!

ردّ جمعة مذعوراً وهو يلقي ذراع النرجيلة من يده. لكنّ حنّون استمرّ بكلامه الهادئ:

ـ إنه درسي الوحيد لك. بالنسبة لي أنا لا أشعر بالندم ولا يبدو أنّني قادر على ذلك. أنا فخور جداً بما فعلت. ولا أريد أن أتبهذل في السجون مرّة أخرى بسبب صديقك المحقّق. يكفيني ما مررت به من عذابات. على الأغلب لن أصحو من نومتي غداً. ولكن بالنسبة لك، إن كنت متأكداً من شعورك بالندم، فستكون شخصاً جديداً صباح الغد.. بصحّتك.

قال حنون الساحر ذلك ثم كرع آخر ما تبقى من كأسه في تلك الليلة.

كوّة في السماء

تسلّم مأمون، لأنّه رجلٌ وقور محترم وصاحب صوت جميل، ولأنّه عضو فاعل في «حزب الأمّة الإسلاميّة» الذي تأسّس في نيسان 2003، مفاتيح جامع الرحمة المجاور لبيته في حي الراغبية الشعبي عند أطراف بغداد، والذي صار يخضع، منذ انتهاء الحرب الأهلية الطاحنة، لحزب الأمّة الإسلامية.

صار مأمون مؤذّن جامع الرحمة، ويتلقّى مرتّباً على ذلك من مديرية الأوقاف، بصفته متعاقداً مع المديرية، لأنّه بالأساس متقاعد من وظيفته في التدريس منذ سبع سنوات مضت.

هناك نسخة من مفاتيح الباب الخارجي وباب المصلّى والمخزن والحمّامات لدى إمام الجامع، الشيخ مظفّر العَرَوي الذي هو أيضاً عضو فاعل في حزب الأمّة الإسلامية، لكنّه يكاد لا يحضر إلى الجامع، إلّا في صلاة الجمعة، وفي بعض المناسبات الحزبية والدينية التي تتطلّب تحشيداً للناس.

كان إمام الجامع أعلى مرتبة من مأمون في الحزب، ويكنّ له مأمون احتراماً مبالغاً فيه، فهو صلته الأساسية برجالات الحزب الأعلى، وهؤلاء يمكن أن يلتقيهم مأمون في يوم ما مستقبلاً إن واظب على واجباته الوظيفية والدينية في هذا الجامع، خصوصاً وأنّ الجهد الذي يبذله لا يرقى إلى

متاعب وظيفة أو عمل مجهد. ومأمون مؤمن أنّ هذه الفرصة ستأتيه في يوم ما، وستساهم في ارتقائه في الحزب مراتب أعلى.

لم يكن يزعجه سوى وقت أذان الفجر. ولكنه مرّن نفسه على النوم مبكّراً، وتنبيه زوجته وأولاده لضرورة إيقاظه في حال فاته موعد النهوض. وبعد الصحو والتوضّؤ والخروج إلى فناء الجامع لا يعود الأمر مزعجاً حينها، بل هو ممتع. فهو صاحب صوت جميل، ويجيد أداء المقامات المختلفة بسهولة، ولديه حنجرة مرنة، حين يدفع هواء رئتيه من خلالها يتراقص صوته وكأنّه سرب حمامات تستيقظ توّاً لتطوف في فضاء المصلّى، ومن خلال مكبّرات الصوت يفرش هذا الصوت الرخيم سطوته على أرجاء المنطقة التي يكبس عليها نوم هادئ يشبه هدأة عالم يتخلّق للتوّ.

كان يغيّر في مقامات الأذان بين فترة وأخرى، وانتبه أنّ التغيرات هذه تحدث عادة في أذان الفجر. لم يكن واثقاً أنّ الكثيرين يسمعونه حينها، ولكن شعوراً غريباً يستولي عليه دائماً حين يرفع الأذان في هذا الوقت. وكأنّه يفتح كوّة ما في السماء، وكأنّ الملائكة فعلاً تسمع أذانه، أو أنّ الملائكة بذاتها تساهم في صناعة هذا الأذان. هناك طقسية عجيبة لا يستطيع تفسير غموضها وسحرها تستولي عليه بالكامل في هذه الدقائق تحديداً، حيث العصافير نفسها لم تخرج بعد من أعشاشها، والشعور ببدايات اليوم قويّة، وكأنّه يلمس بأصابعه حافة سجّادة كبيرة قبل أن تطويها الشمس بنورها الهادئ وتدفعها معلنة تقدّم ساعات النهار.

لم يكن مأمون يدقّق مع نفسه كثيراً، ولكنّه لو فعل لاكتشف أنّ في صوته تتكثّف صلته الروحانية مع الدين. لا الصلاة التي يؤدّيها برتابة

وحركات آليّة، ولا كلّ الأكسسوارات التي يتزيّا بها كمتديّن عادي مثل الآخرين. إنّه يشعر باللّه وكلّ العوالم الغيبية من خلال الصوت الذي ينطلق منه، لكنّه يتحوّل إلى شيءٍ أكبر منه، فيحتوي صاحب الصوت نفسه في نهاية المطاف. فيغدو مأمون طيراً صغيراً محلّقاً مع تيارات الصوت التي تأخذه إلى حيث تشاء من دون إرادة منه، وتكشف له في كلّ مرّة حقيقة هذا الوجود، والخالق العظيم الذي يقف وراءه.

كان المزاج الذي يصحو به مأمون يساهم في انحرافات حنجرته عن مقامات اليوم السابق، بالإضافة إلى أشياء لا يريد الاعتراف بها أمام الآخرين، وهي جزء من أسراره الشخصية، فهو يضع الهيدفون في هاتفه المحمول، ويسمع لا على التعيين أغنيات عراقية قديمة على اليوتيوب. وقراءات قرآن لمجوّدين عرب وأجانب، وكلّ هذا الخليط، بالإضافة إلى هجمات الأحلام خلال النوم، يصنع خميرة مزاجه الذي يدخل به إلى مصلّى جامع الرحمة، ويؤثّر لاحقاً على نبرة صوته واختياراته حينما يصدح أمام مايكرفون الجامع.

كلّ هذا كان ممتعاً بالنسبة له، ويعطي معنى لأيّامه الحالية والقادمة، ولكنّ هاجساً شيطانيّاً ظلّ يساهم أيضاً في صناعة متعته الخاصّة، هذا الهاجس يربطه مباشرة بالحاج «داود أبو غزيّل»، المؤذّن السابق لجامع الرحمة، والذي يقع بيته خلف بناية الجامع مباشرةً.

الكثير من سكّان المنطقة فتحوا أعينهم على الحياة وداود أبو غزيّل هو مؤذّن جامع الرحمة، أيّام كان الجامع مجرّد بناء بسيط من طابق واحد بمئذنة صغيرة مبنيّة من الطابوق، بلا زخارف ولا آيات ولا سيراميك ملوّن ولا أيّ شيء.

مأمون نفسه كان يلعب في الشوارع الطينيّة صبياً، ويعبر على سواقي المياه الآسنة التي تخرج من البيوت، ويسمع أذان الظهيرة يصدر من سمّاعات جامع الرحمة، يتماوج بأطوار جنوبية، وكأنّه صوت ياس خضر ممزوجاً بشيء من حسين نعمة مع لمسة قوية لا تخطؤها الأذن المرهفة من سلمان المنكوب. كان صوتاً من خلطةٍ خاصة، وكأنّه لا ينطلق من أعلى السياج الحجري الواطئ لسطح جامع الرحمة، وإنّما من هناك، من مكان مجهول وغامض يقع في أعماق القصب والطين، في ذلك المكان الذي تكمن فيه روح الجنوب وسرّ وجوده وكينونته الخاصة الثابتة والأزليّة.

من ذلك المكان الغامض تأتي إمدادات حجّي داود، ليصدح بها من على مكبّرات جامع الرحمة، ويفرش صوته على المنطقة كلّها، والمناطق المجاورة التي يؤكّد البعض أنه يسمع فيها أحياناً صوت الحجّي واضحاً وصافياً خلال أوقات الفجر، وهذا ربّما السبب الذي جعله يصرّح جازماً، حين كان صبيّاً، أمام أخته الكبرى، بإنّ هذا الصوت هو صوت اللّه. وحينما تمازحه هذه الأخت بعد سنوات لاحقة لتذكّره بتصريحه العجيب كان ينكر أنّه قال كلاماً من هذا النوع، يعتصر ذاكرته ولا يتذكّر فعلاً.

«لو كان للّه صوتٌ فسيكون مثل صوت ملّا داود أبو غزيّل» أعادت أخته الكبيرة التذكير بما يشبه الخاتمة المثيرة لجدالها العبثيّ مع أخيها الذي فشل في تذكّر تصريحه الطفوليّ القديم.

لقد تشبّع مأمون بصوت حجّي داود، مثل آخرين، ويتذكّر أنّه أحياناً في فترات شبابه، كان يستجيب لتحدّي الأصدقاء بترديد أذان حجّي داود، فيصنع بصوته نسخة مطابقة تماماً لأذان حجّي داود، ما يثير ذلك ضحك وابتهاج الحاضرين معه.

لكن مأمون اليوم لا يحتفظ بهذه الصورة المشحونة بالعاطفة عن حجّي داود. كان الأذان هو ذاته على مدى عقودٍ طويلة، لكنّ الأحداث كانت تعصف بالواقع وبحياة الناس حول الجامع، وتعصف بمأمون نفسه، فكان موقفه الانفعالي والعاطفي الخاصّ يتغيّر تجاه أشياء كثيرة ومنها أذان حجّي داود، تبعاً للمتغيرات على الأرض. وفي المقطع الأخير من هذه العلاقة كان مأمون يكره أذان حجّي داود، ويكره حجّي داود نفسه.

في منتصف التسعينيات فقد مأمون كلّ إيمان بالحياة، ولم يكن هذا الموقف متطرّفاً إلى حدود التفكير بالانتحار مثلاً، ولكنّه لم يعد يؤمن بأنّ هناك شيئا ما جيّداً سيكون في المستقبل. لم يعد يثق بأنّه بالجهد والعمل وتراكم هذا الجهد سيحصل على شيء مستقبلاً. لم يعد لمرور الزمن من قيمة ما عنده.

كان التعبير الماديّ عن هذه القناعة السوداء هو دخول مأمون في عالم المشروبات الكحولية. تغيّرت دائرة أصدقائه بالتدريج، وصار يرافق أولئك الذين يعقدون جلسات سمر وشرب حتى وقت متأخر من الليل. لم تكن لديه جرأة على توسيع دائرة عبثه وتمرّده لتشمل تلك المساحات المتعلّقة بحياة الآخرين المرتبطة بحياته، مثل عائلته وأولاده وزوجته، وكذلك صورته في أعين سكان منطقته. ما كان لديه هو نسبة معقولة بفولتية واطئة من التمرّد والتعبير عن خسارته لمعنى حياته. ولكنه لم يرغب أن يشمل غياب المعنى حياة الآخرين المؤمنين بوجود معنى ما. لم تعجبه فكرة تحميل الآخرين أثمان قناعاته الشخصية.

ظل يتحرّك ضمن إيقاع شبه ثابت. يسكر مع أصدقائه، ويجمّل سهراتهم بصوته العذب، وهو ما يحرّض الآخرين لتشجيعه على احتراف

الغناء، وكان يجابه هذه الدعوات بالابتسام، وربما القهقهة، ولا يأخذها على محمل الجد. ثم يشرع بغناء واحدة من أغنياته المفضّلة، مثل أغنية «هلّوا واحنا نهل» لفاضل عوّاد.

يعود قبيل الفجر إلى منطقته السكنية. يحاول الحفاظ على مسير ثابت الخطوات على أرضية الزقاق المؤدّي إلى بيته. كان وقتاً مناسباً للعودة بالنسبة لمن لا يرغب بوجود شهود عيان على سكره. يفتح باب البيت بمفتاحه الخاص، ثم يدخل. يغسل وجهه وأسنانه، ويذهب إلى النوم. وبعد أن يغطس بالتدريج في وسنة النوم وثقله الأوّلي، يصدح صوت الحاج داود أبو غزيّل بحولقات وتسبيحات وتمجيدات، وهي مقدّمات الأذان المعتادة، ثم يشرع بأذانه الذي يستمرّ عدّة دقائق، ويلحقها بوصلة دعاء طويل. وكان هذا كلّه ينزل مثل الصاعقة على مسامع مأمون، الذي يريد أن يغفو لساعتين أو ثلاثة قبل الصباح وهرجة البيت بضوضاء الأطفال وحركة بدايات النهار العادية.

كان مأمون يشتم في سرّه كلّ شيء، وهو يشعر بنفسه تتداعى تحت الصوت الهادر لحجّي داود، بسبب أنّ واحدة من مكبّرات الصوت تتّجه إلى باحة بيت مأمون مباشرة. كان ثبات الصوت واستقراره على النبرات ذاتها التي ظلّ يسمعها خلال الثلاثين سنة الماضية، يخلّف في نفس مأمون كآبة مضاعفة، وكأنّ كلّ شيء على حاله لم يتغيّر. كان بحاجة ـ إن كانت هناك ضرورة ملحّة ـ إلى سماع أذان آخر يتناسب مع مزاجه، لا أن تتمّ إعادته إلى مزاج سابق لم يعد يناسبه ولا يعبّر عمّا هو فيه. لذلك كره حجّي داود وكره أذانه، كما لم يكره أيّ شيء آخر في حياته.

ظلّ مأمون على إيقاعه الثابت نفسه وظل يصارع أذان حجّي داود،

ولكن، من دون أن يكشف لأحد شيئاً من هذا الصراع، فهذا سيدخله في حرج شديد. قام في أحدى الليالي وبعصا مكنسة طويلة وضرب السمّاعة التي تتوجّه إلى بيته عدة ضربات كي يغيّر اتّجاهها. ورغم انحرافها بحجم ربع دائرة، إلّا أنّ الصوت حافظ على قوّته ذاتها في أذان الفجر اللاحق.

تطوّر الصراع الخفيّ لاحقاً إلى عملية إعدام لهذه السمّاعة. ارتقى الحائط في هدأة الليل، وقطع بالمقص سلك السمّاعة ثم نزل، بهذه الطريقة لن ينتبه أحد لمشكلة ما في السمّاعة، على خلاف ما لو أنّه نزع السمّاعة كلّها. بكلّ الأحوال لم يتغيّر الشيء الكثير وظلّ الصوت الصادر من السمّاعات الأخرى على حاله. وفي الشتاء كانت الأبواب المغلقة والشبابيك التي سدّت زوجته حتى ثقوبها الصغيرة بالقماش واللواصق الشفافة، تخفّف شيئاً من سطوة الأذان، ولكنّه كان يصل رغم كلّ شيء. المشكلة في العمق ليست في قوّة الصوت، ولكن في كونه يصل في كلّ الأحوال.

انتهى فاصل شرب الخمر العدمي في حياة مأمون قبل ثلاث سنوات من سقوط نظام صدام ودخول الدبابات الاميركية إلى شوارع بغداد، بسبب التأثيرات الصحّية للشرب على جسده. يتذكّر مأمون جيداً كيف انتهى هذا الفاصل في لحظة حاسمة.

كان متعتعاً بسكر فوق حدوده المعتادة، عائداً بسير متثاقل إلى بيته فجراً يتّكئ على الحائط أحياناً ليوازن نفسه حتى لا يسقط، يتوقّف عدّة لحظات ليستردّ أنفاسه ويستجمع قوّته ثم يبدأ بحساب الخطوات الصعبة حتى باب بيته، وكان مستغرقاً بمهمّته التي تبدو عسيرة وصعبة حين واجه حجّي داود في الزقاق. لم يكن الطريق التي يسلكها حجّي داود تقوده إلى هذا الزقاق

عادةً. كان يأتي من خلف الجامع إلى بابه المطلّ على زقاق آخر يتقاطع مع زقاق بيت مأمون. لم يكن هذا التفصيل مهماً في نهاية المطاف. ربما كان حجّي داود يتفقّد أرجاء الجامع والنفايات التي يرميها بعض الناس عند جداره من دون أن يستجيبوا لتحذيرات الحجّي. ربما كان يتمشّى ويحرّك قدميه لا أكثر. تقابل الرجلان وجهاً لوجه، وتحسّس حجي داود رائحة الخمرة القوية في مأمون، وحرّك وجهه وشفتيه بطريقة تشير إلى الاشمئزاز ثم غادر سريعاً، وسمع مأمون صوت الحجّي وهو يردّد بخفوت: أعوذ باللّه من غضب اللّه.

توقّف مأمون عن الشرب بعد تلك الليلة بصعوبة. كان يتحسّس العطش للخمر يسري في بلعومه، ولكنّه ظل يغالب نفسه ويحاول تجاهل هذه الشهوة القاتلة التي أتلفت جسده، حتى هدأ في النهاية، وتشاغل بشؤون أخرى، ومنها أنّه صار يقوّي إمكاناته بتجويد القرآن. وكان أفراد العائلة يستمعون إليه بإعجاب، حتى توسّعت حلقة المستمعين لتشمل أصدقاءً وجيراناً قريبين. لكنّ هذا لم يغيّر موقفه النفسي من أذان حجّي داود. كان أحياناً يخرج وقت العصر ليسير إلى مناطق بعيدة، بحجّة البحث عن شيء ما في صيدلية أو محلّ تجاري، وقد يقف أسفل جامع بعيد وقت صلاة المغرب، كي يجعل نفسه تحت النطاق الصوتي لأذان آخر غير أذان حجّي داود ثم يعود بعدها إلى البيت.

بعد دخول الدبّابات الأميركية لبغداد استمرّ حجّي داود أبو غزيّل على سجيّته نفسها، يخرج من باب بيته وبعدّة خطوات يدخل إلى الجامع ليؤدّي في أوقات الصلاة المعلومة أذانه المعتاد، ينهي أذانه فيتقدّم ليتوسّط المصلّى شبه الفارغ ليصلّي فرضه ثم يغادر إلى بيته، ولم يكن هذا أصلاً

واجباً مفروضاً عليه، ولا يتلقّى عليه أجراً، وإنّما هو عرفٌ سار عليه منذ زمن بعيد، بغضّ النظر عن الأوضاع والأحداث العامّة وظروف البلد والمنطقة السكنية. وكان في مرّات عدّة يضطر للصعود إلى سطح الجامع ليرفع الأذان بصوته العاري من هناك بسبب انقطاعات الكهرباء الطويلة.

بعد سنة احتلّت جماعة دينية مسلّحة الجامع وطردت حجّي داود، وحوّلته إلى مقرّ حزبي، وصارت الصلاة فيه فقط لأتباع هذه الجماعة. حتى أولئك الذين تعوّدوا الصلاة في الجامع امتنعوا عن ذلك خشية أن يحسبوا على هذا الفصيل المسلّح، أو يتّهموا بأنّهم يتملّقون لهم.

وفي السنوات ما بين 2005 وحتى 2007 دارت معارك عديدة بين الجماعات الدينية المسلّحة للاستيلاء على الجامع، وتم تخريبه بالإطلاقات النارية، ثم شبّ فيه حريقٌ لم يعرف أحدٌ أسبابه، وقيل لاحقاً إنّ الحريق كان في صناديق الأصوات الانتخابية التي أخذتها الجماعة الدينية المسلّحة من مركز انتخابي قريب، وهي لجهة معارضة لهذه الجماعة. أحرقوا الأصوات المعارضة ولم تصل صناديقها إلى المحطة الانتخابية الرئيسة حيث عدّ وفرز الأصوات.

فيما بعد حصلت مواجهات بالأسلحة الخفيفة والمتوسّطة، وتم توجيه عدّة قذائف وصواريخ آر بي جي سفن، أصابت إحداها المئذنة المتواضعة المصنوعة من الطابوق المفخور فدمّرتها تماماً. وترك الجامع على حاله بسبب تقدّم القوات العسكرية الحكومية واستيلائها على المنطقة بالكامل، الأمر الذي أجبر الجماعات الدينية المسلّحة على الفرار.

خلال هذه الأحداث كلّها لم يصدر عن الجامع أذان واحد. جرّب بعض الشباب المراهقين آداء الأذان عدّة مرّات ثم توقّفوا، وكان هذا خلال

وقت العصر أو مغيب الشمس، أمّا في الفجر فكان الحيّ كلّه والجامع وكأنّه مقبرة هامدة لا حياة فيها.

جاء حزب الأمّة الإسلامية واستولى على الجامع في نهاية المطاف، وشرع في تعميره، واكسائه بالسيراميك الفيروزي والأخضر، وبنيت مئذنة أكبر أنيقة ومزخرفة، مع أربع مكبّرات صوت نُصبت نحو الجهات الأربع.

كان مأمون قد انضم مبكراً إلى حزب الأمّة الإسلامية، وصار يقرأ القرآن في المناسبات الدينية الكثيرة التي يقيمها هذا الحزب بمقرّاته داخل حي الراغبية والأحياء المجاورة، وقد يرفع الأذان في بعض المقرّات الحزبية، وحين علم بنية الحزب إعادة تأهيل جامع الرحمة ابتهج كثيراً، وأسرّ إمام الجامع الجديد الشيخ مظفر العَرَوي أنّه يريد أن يكون مؤذّناً وقارئ قرآن في الجامع. فليس أدعى لذلك من كون الجامع ملاصقاً لبيته.

أمضى الشيخ مظفر رغبة مأمون وصار مؤذّناً في جامع الرحمة، ولكنّه كان ينظر إلى هذا الأمر على أنه مجرّد خطوة أولى، فهو كان ينتظر شيئاً أكبر، وبشكل محدّد؛ أن يطلبه زعيم الحزب كي يكون في مفتتح الحفلات التي يقيمها هذا الزعيم والتي تبثّ على الهواء مباشرة في قنوات فضائية مختلفة. يصعد مأمون إلى منصّة الحفل ويقرأ آيات من الذكر الحكيم، قبل إفتتاح أعمال المهرجان الانتخابيّ أو حفل تأبين شخصية ما في الحزب وما إلى ذلك من مناسبات تستدعي قراءة قرآن في بداية الحفل.

ظلّ يتابع هذه الحفلات وهي تبثّ من التلفزيون، وكان يرى شاباً أبيض البشرة بلحية محدّدة بدقّة، يضع «العرقشين» الأبيض على رأسه ويرتقي المنصّة ليقرأ بصوتٍ رخيم آيات من القرآن. كان المشهد يغيض مأمون

كثيراً، فهو يحسب نفسه أبرع وأكثر كفاءة من هذا الشابّ الناعم. إنّ صوته مسطّح لا عمق فيه ولا قدرة على التعبير. لا يبثّ صوتٌ من هذا النوع أيّ خشوع، ولا يكسر حاجزاً ما بين الأرض والسماء، لا يفتح تلك الكوّة الخفيّة في السماء كما تفعل الأصوات العميقة المؤثرة، والتي تقرأ القرآن بصدق.

بالنسبة لمأمون فإنّ اللحظة المثيرة والأكثر أهمية في تجويد وتنغيم المصحف، والتي لا يصل إليها أيّ أحدٍ إلّا بعد جهد عظيم، هي حين تحسّ بطراوة الكلمات على لسانك، وكأنّه ليس لسانك أنت وإنّما لسان الملاك جبريل نفسه وهو ينطق كلام الربّ على مسامع النبيّ محمد «ص». حينها، في تلك اللحظة، بإمكانك أن ترى الكلمات في المصحف وقد سال حبرها واختلط مع بياض الورق، ثم ترى بخار الحبر وهو يرتفع مثل دوّامة دخانية باردة ويلتفّ في الهواء ليشكّل بالتتابع فوق القارئ والسامعين غيمةً سوداء صغيرة ملتفّة على نفسها وكأنّها كتابة دخانية بخط عربيّ ناعم يتداخل مع بعضه. وحين يرفع القارئ رأسه ليختم قراءته بالتصديق على كلام اللّه، فإنّه سيرى، ويرى الآخرون، كيف صارت الغيمة على هيئة ملاك بجناحين ينحني للقارئ محيّياً وشاكراً قبل أن يتبدّد في الهواء مغادراً الفضاء الداخلي لقبة الجامع.

لم يكن الشابّ الناعم ذو اللّحية المحدّدة يفعل أيّ شيء من هذا، ولا يقترب من هذا الوصف بأيّ حال من الأحوال، ولكنّ الشيخ مظفّر نهرَ مأمون وقال له؛ إنّ هذا الشاب هو إبن أخ أحد الأعضاء البارزين في الحزب، وكانوا من «المهاجرين».

ـ أيّ مهاجرين تقصد؟

ـ أنت تعرف بأنّ الحزب يقسّم أعضاءه إلى مهاجرين وأنصار.. المهاجرون هم من يأخذون أغلب الامتيازات.. أمّا الانصار، من مثل حالتنا أنا وأنت، فهذه حدودنا، وعلينا أن لا نتجاوزها.

في لقاء آخر مع الشيخ مظفّر طلب منه أن يأخذه معه إلى الاجتماع السنويّ في مقرّ الحزب وسط العاصمة، بمناسبة ذكرى وفاة رئيس الحزب السابق. قال له الشيخ مظفّر إنّ الأعداد محدّدة سلفاً بسبب حجم القاعة. وقبل أن يغادر أخبره بأن يهتم بوضعه الحالي وينسى أمر الحزب، فهؤلاء، ويقصد رؤساء وزعماء الحزب ينظرون إلينا بريبة.

ـ إنّنا كلّنا عراقيون، نعم، ولكن في دمائهم آثار من الغربة والهجرة في سبيل اللّه وخسائر كثيرة لما تركوه هنا. أما نحن ففي دمائنا، حسب الكلام السرّي لبعضهم، آثار من البعث الكافر. حتى وإن كنّا ضحايا لهذا البعث. لقد تسلّلت آثاره إلى دمائنا، وهذا ما يجعلنا غير مرحّب بنا إلّا في حدود دنيا، ولا يجعلوننا نرتقي إلى مراتب أعلى. فأرجوك يا مأمون لا تفتح مواضيع مشابهة معي مرّة أخرى.

بهذا الكلام الصادم ختم الشيخ مظفّر على باب أحلام مأمون بالشمع الأحمر. سيظلّ قابعاً ها هنا في هذا الجامع ولن يخرج منه إلى شاشات الفضائيات، ولن يكون ذا حضور أكبر.

في الليلة نفسها وهو يخرج من الجامع صادف الملّا داود أبو غزيّل. كان نحيفاً جداً ويقوده ولد صغير. بدا أشبه بمومياء خرج من قبره للتو. نظر في عينيه وقال له:

ـ إبني.. اللّه يخليك.. أبعد هذه السماعة عن بيتي.. أنت تطيل في

الوقت.. تؤذّن ثمّ تبدأ بقراءة أدعية طويلة.. السمّاعات للأذان وليس لممارسة هواياتك وأذيّة الناس.

ـ أنا أقوم بواجبي حجّي.. وهذا كلّه قرآن وكلام اللّه وأدعية الأئمة الصالحين.

نظر إليه حجيّ داود بامتعاض وهزّ يده وطلب من الصبي الذي يتّكئ على ذراعه أن يتحرّك، ولم يغادر قبل أن يرمي كلماتٍ نزلت مثل حجر ثقيل على رأس مأمون:

ـ آنوب السكارى يعلمونا القرآن والدين.

أراد أن يلحق به، ولكن ما الذي ينوي فعله لرجل عجوز متهالك، رجل يحضى باحترام شديد بين الأهالي، رغم أنّه لا يكاد يخرج إلّا قليلاً ويقبع في بيته يعاني من آثار أمراضٍ عدّة. وكيف يؤذي مؤذنٌ محترم مثل مأمون مؤذناً قديماً سبقه في هذه المهنة واعتلاء منصّة جامع الرحمة؟

زادت كراهيته للرجل، بالإضافة إلى كره حزب الأمّة الإسلامية وكلّ شيء. وصار كلّما أمسك بمايكرفون الجامع ليؤذّن تأتي صورة حجّي داود في ذهنه، فيؤذّن وكأنه يرمي بسهام نارية على بيت حجّي داود.

تذكّر تلك الأوقات التي كان يقصفه فيها حجّي داود، أيام ما كان يعود سكراناً ويطلب النوم بأيّ وسيلة. وتخيّل أنّه اليوم يتبادل الأدوار مع العجوز، وها هو يقلق منامه ويزعجه.

عاد مأمون في تلك الأيام إلى عادته بسماع الأغاني في الهيدفون، والانتقالة إلى قراءات القرآن بأصوات مصرية وخليجية وشامية. وصار

يبحث عن تواشيح دينية آذرية وتركية، ويسمع مدائح صوفية وأنغاماً لحلقات ذكر. إنّه عالم كامل واسع يتجوّل فيه من خلال هذا الجهاز الصغير. وقد يختتم كلّ ذلك بشيء من العودة إلى جذر صلب يعيده على رحمه الميلودي الأول؛ فيسمع أغنية «هلّو واحنه نهل» لفاضل عوّاد.

ظل يغيّر في أذانه حسب الموجة التي تستولي عليه من الأغاني والأنغام والقراءات القرآنية والمقامات، وذات فجر أدّى الأذان بطريقة هندية تماماً، وكأنّه موّال لمطربٍ في فيلم هندي من أفلام الثمانينيات التي كان يشاهدها مع والده وإخوته في سينمات شارع السعدون.

كان يتوقّع أن يشير أحدٌ ما من أبناء المنطقة إلى هذا الشيء المثير الذي فعله فجراً، ولكن الحادثة مرّت من دون انتباه أحد، أو ربّما من دون اكتراث. كان يعرف جيداً أنّ جمهور السامعين خلال الفجر يكون على أكثره في فترة واحدة فقط خلال السنة، وهي أيّام شهر رمضان، رغم أنه في وقت أذان الفجر كان يعاني من اختلاط الأصوات التي تضجّ كلّها من الجوامع القريبة في وقت واحد بعد إعلان الإمساك بدقائق.

جاء أحد أولاد حجّي داود وطرق باب بيته عليه. خرج مأمون فوجد أمامه شابّاً ملتحياً وقوراً. قال له بأنّه يطلب منه أن يخفض صوت السماعات، أو يسمح له بنزع السماعة الجنوبية من المئذنة لأنّها تؤذي الحجّي كثيراً وهو قليل النوم أصلاً.

رفض مأمون هذا الطلب، وهدّده ضمناً بحزب الأمّة الإسلامية وأنّه عضو فيه وما إلى ذلك من كلام يعرف مأمون جيداً أنّه كلامٌ غير مناسب. فهو إن كان عضواً في الحزب فهذا لا يعني الشيء الكثير، هو مثله مثل

الكثيرين، مجرّد برغي صغير في ماكنة الحزب الكبيرة. ولن يزيد موقعه من موقع هذا البرغي أبداً.

لم يشعر بالذنب لأنّه هدّد الشابّ المهذّب، وانتظر الجمعة التالية كي يرى الشيخ مظفّر العروي في الصلاة حتى يكرّر طلبه بأن يحشره مع ثلّة الذين سيرتقون منصّة الاحتفال القادم للحزب بمناسبة نيله نسبة كبيرة من مقاعد البرلمان. هذه فرصته الثمينة وربما الوحيدة.

لم يحضر الشيخ مظفّر. اتصل به على هاتفه ولم يردّ عليه. ثم في الجمعة اللاحقة شاهد رجلاً آخر يحلّ محل الشيخ مظفّر ويؤدي صلاة الجمعة بالناس، الذين كانوا في الغالب أعضاء حزب الأمّة الإسلامية في المنطقة.

سأل الشيخ الجديد عن الشيخ مظفّر فقال له بأنّه ترك الحزب. صدمته هذه الأنباء، وانزعج كثيراً. إنّه لا يعرف الشيخ الجديد ولا يجد في نفسه رغبة للتعرّف عليه وتوثيق العلاقة معه. كان شيخاً من «المهاجرين» وليس الأنصار!

شاهد حفل الحزب الكبير على التلفزيون، ومثلما توقّع، ارتقى الشابّ أبيض البشرة ذو اللحية المحدّدة المنصّة، وقرأ من القرآن الكريم، تلك القراءة المسطّحة التي لا تعجب مأمون وتستفزّه. زاد غمّه إلى درجة كبيرة ما دفعه لمغادرة البيت والتجوال على غير هدى في شوارع حيّه السكني، ثم فجأة وكأنّما هاتفٌ ما صدح في رأسه، أوقف سيارة أجرة ثم ركب إلى وسط العاصمة.

ظل يتجوّل بين محالّ الملابس والأحذية، حتى صادف صديقاً قديماً من أيّام التسعينيات، أكمل الجولة معه حتى انتهيا إلى مطعم فخم في «عرصات الهندية» مستجيباً لعزومة هذا الصديق القديم على وجبة عشاء فاخر.

داخل صالة المطعم الواسعة، وما بين الأحاديث ثم تناول المقبّلات، ومن خلف نافورة توسّطت الصالة شاهد مأمون وجهاً مألوفاً. ظل ينظر من بين رشاش الماء المرتفع إلى الأعلى، ثم نهض ونظر جيداً، كان الشيخ مظفّر العروي، هو بلحيته ذاتها، ولكنّها مصبوغة، ولم يكن الشيخ بعمامة ولا ملابس دينية، وإنّما ببدلة أنيقة مع ربطة عنق ومنديل بلون الربطة يرتفع من جيب السترة العلوي. دهش لما رآه. وترك صديقه ثم تقدّم دون أن يشعر بنفسه باتجاه الشيخ ليسلّم عليه. ابتهج الشيخ لمرأى زميل عمله القديم، إن كان هذا الوصف مناسباً، وظلّ يدردش معه ويسأله عن أحواله، وخلال ذلك كلّه لم يطلب الشيخ مظفّر من مأمون أن يجالسه مثلاً، وبدا حريصاً أن لا يكشف الكثير من المعلومات التي كان فضول مأمون للتعرف عليها قاتلاً.

لجم مأمون نفسه بصعوبة حين شعر بالإحراج الذي داهم الشيخ مظفّر من الأسئلة الكثيرة. ثم ها هو الشيخ مظفّر ينهض ويخبر مأمون بأنّه مضطرّ للّحاق بموعد ما. غادر المطعم وترك مأمون مع أجوبة مقتضبة لا توضّح الشيء الكثير؛ لقد ترك الشيخ مظفّر حزب «الأمّة الإسلامية»، والآن هو عضو في حزب «الأمّة الوطنية». لقد تخلّى عن «الإسلام السياسيّ» كما قال له، لأنّه فشل في إدارة البلد.

لم يفهم مأمون ماذا يعني كلّ هذا. وحين أخبر صديقه عند طاولة المطعم بما جرى وخلفيات هذا الشيخ وما إلى ذلك، ردّ هذا الصديق بكلام سريع وحاسم:

ـ كلهم سرسرية وكلاوجية.. أنت تسوي نفسك ما تعرف، بس إنت تعرف كلّش زين.

تعشّيا، وظلّا يثرثران ثم شربا الشاي في صالة صيفية ملحقة بالمطعم وطلبا النارجيلة وصارا يدخّنان على مدى ساعة، وخلال ذلك كلّه ظلّ مأمون يتحسّس اتّساع الدوّامة الكبيرة التي تدور في رأسه وكأنّها من أثر شربه لقنينة عرق مستكي كاملة.

ظلّ مستيقظاً حتى ساعة متأخرة من الليل تأخذه الأفكار المتضاربة يميناً وشمالاً، وحين أيقظته زوجته لأداء أذان الفجر، لم يكن راغباً بالنهوض، تمنّى لو أنّ أحداً ما قام بهذه المهمّة اليوم. أو ربّما ينهض الملّا العجوز حجّي داود ويؤدي مهمّته القديمة إن كان يملك الطاقة لذلك.

أدّى الأذان بطريقة لم يكن يخطّط لها، وشعر وهو يرفع صوته بأنّه ينادي على ملائكة الجحيم والغضب. كان يرسل النيران من لسانه وحنجرته باتجاهات مختلفة. لم تكن الروحانية التي يسعى إليها من خلال الصوت المنغّم حاضرة فوق رأسه في ذلك الفجر، وقال في نفسه وهو ينهي الأذان، إنّه الأذان الأخير.

صلّى بطريقة آلية رتيبة في وسط المصلّى، ولم يحضر أحدٌ من سكّان الحي. ظلّ وحده يسبّح ويقرأ الأدعية، حتى سمع صوتاً مملوءاً بالفجيعة يرتفع ليملأ المصلّى. حين خرج من الجامع عرف مأمون أنّ الملّا داود ابو غزيّل كان قد مات.

عاد مأمون إلى بيته، وحاول النوم. تجاهل الأصوات التي صارت تتصاعد، لطم نساء وصراخ يشبه عواء ذئاب جريحة. كانت مناحة كبيرة ظلّت مهيمنة بأصواتها المخيفة وتشعر مأمون بالذنب. أراد أن ينام، وها هو ملّا داود مرّة أخرى يمنعه من النوم. لقد اختفى «صوت اللّه» كما في وصفه الطفولي، إلى الأبد، وربّما ساهم مأمون في خنقه من دون أن يدري.

بعد أسبوع من وفاة الملّا داود، عاد مأمون قبل أذان الفجر بنصف ساعة، يتطوّح من أثر السكر ويحاول الصمود بالسير على قدميه حتى باب البيت. كان زميل التسعينيات قد جرّه شيئاً فشيئاً إلى الأجواء القديمة وهذه هي ليلة الوقيعة. لقد انكسر حاجز بينه وقنينة العرق المستكي، وشعر بعد أن شرب وسكر بأنّه يتخلّص من الدوّامات في رأسه وركام الأسئلة الكثيرة، ويستعيد توازنه وفهمه للأشياء من جديد.

وقف أمام باب البيت، والتفت لينظر إلى منارة الجامع القريبة، تخيّل كيف سيدخل إلى الجامع ويبدأ بأداء الأذان، وهذه المرّة وفق طريقة خاصة اكتشفها هذه الليلة. ولكنه تراجع عن هذه الفكرة المجنونة ودفع الباب بيده ودخل إلى باحة البيت. حان موعد الأذان ولم يرتفع أيّ صوت في الجامع القريب. لا صوت اللّه ولا صوت الشيطان. كانت السماء شديدة السواد، وبدت مقفلة تماماً، ولن تشارك الملائكة في هذا الفجر بأيّ حفل لأصوات سماوية. بدا كلّ شيء مهجوراً ومتروكاً لمصير مجهول من دون رعاية أو حبّ، كما شعر مأمون في تلك اللحظة. كان جسده يصارع آثار الشرب الكثير. أغمض عينيه للحظة وكأنّه يريد إسكات الآلام التي انبثقت من أعضاء بدنه، وقبل أن يدخل إلى الباب الداخلي للبيت، سمع بوضوح صوت حجّي داود أبو غزيّل، وكأنّه يأتي ضعيفاً من وراء حاجز الموت، يردّد بكفاءة وببهجة غامرة، مطلع أغنية فاضل عوّاد:

هلّوا واحنه نهِل.. يا محلى لمّ الشمل.. هلّوا واحنه نهِل.

التمرين

- 1 -

كان نهاراً حاسماً لمروان محبوب، ولأنّه يظنّهُ كذلك فلا بدّ أن تكون أمامه عوائق، كما يفترض مروان دائماً. في هذا الصباح، عند الساعة المعتادة التي يغادر بها بيته في حيّ الصليخ ذاهباً إلى عمله كمصمّم في مطبعة في الطرف الآخر من رصافة بغداد مثل كلّ يوم، سمع لغطاً من وراء شبّاك المطبخ؛ إثنان واقفان، أو ربّما أكثر، وحديث عن جثّة ما عند رأس الزقاق.

رفع حقيبته الجلدية ووضع حزامها الطويل حول رقبته ثم ألقى نظرة أخيرة إلى هيئته في مرآة المطبخ، وحين فتح الباب باتّجاه كراج البيت ولفحه الهواء البارد لبدايات شباط، رأى القطّ هنّوش مثل عادته كلّ صباح، يقف على الجدار الواطئ الفاصل بين بيت مروان وبيت أمّ علياء، ينظر إليه بملامحه العبوسة وأنفه المستدقّ داخل وجهٍ مسطّح كثيف الشعر، كما هو وجه قطّ شيرازيّ. يتشاءم مروان، دون سببٍ واضح، من مرأى هذا القطّ ونظرته الكئيبة، ولربّما انتظر في بعض الأحيان عدّة دقائق، وظل ينظر من وراء الزّجاج المشبّك لباب المطبخ، حتى يغادر هنّوش نازلاً بسبب الضجر أو استجابة لنداء صاحبته علياء، الفتاة المقعدة التي لا تكاد تظهر للعيان إلّا نادراً.

نظرة شيرازيّة عبوسة، مع جثّة عند مدخل الزقاق، هي علامات غير مريحة بالنسبة لشخص يتأثر بالفأل السيّء. رأى الناس متجمعين حول الجثّة، وكأنّهم ينظرون إلى شيء فريدٍ ونادر. لمح فردتي حذاءٍ جلدي متآكل في أقدام الجثّة بانت من بين أجساد الواقفين. لم يرغب بالتدقيق لرؤية الجثّة كاملةً أو للسؤال عن سبب وجودها ولمن تعود، وهل قضى صاحبها بسبب حادث سير، أو كما هو متوقّع في الظروف المعتادة، بسبب عمليات ثأر وانتقام لأسباب سياسية وطائفية. لم يرغب بزيادة النحس في هذا النهار. رفع يده لإيقاف سيارة أجرة، ثم حين ركب في أول سيارة تتوقّف عنده، جلس وتحسّس حقيبته الجلدية ووازنها في حجره، وكأنّه يحاول الاطمئنان على ما فيها، ثم مع انطلاق السيارة، أغمض عينيه لطرد كلّ الوساوس السيّئة من ذهنه.

لم يذهب إلى المطبعة قرب ساحة الأندلس كما هو طريقه اليوميّ المعتاد، وإنّما إلى شارع الجمهورية. وهناك عند زحام الشارع المختنق بالسيارات، نزل وظلّ يسير حتّى دخل سوق الشورجة. ظلّ يتمشى من هناك، متخطّياً كثافة السابلة والسيارات، والحركة الصاخبة لبدايات النهار. هو يعرف أنّ هذه الحركة ستهدأ بعد الظهر مباشرة، منهية يوم عمل قصيرا، لأنّ المنطقة بعدها ستكون ملعباً للعصابات المسلّحة. حتّى رجال الشرطة والأمن يختفون، تاركين كلّ شيء لسلطة ونفوذ جهات أخرى، بما يشبه التعاقب والتوالي في فرض السطوة، ما بين رجال الليل ورجال النهار.

دخل إلى زقاق الدكاكين القديمة للشورجة، متفادياً الارتطام بأصحاب عربات الدفع الخشبية الذين يرفعون أصواتهم بصياح غير لائق على

السابلة، متراكضين على عجل، حاملين البضائع المتكدّسة كتلول على عرباتهم المسطحة.

بعد مسيرٍ قصيرٍ وقف أمام «محالّ عبد العزيز الغريب وأولاده». كانت الأجساد المتحرّكة تعطيه حاجزاً يخفّف من قدرة الجالس في عمق المحلّ الطويل على رؤية الواقف عند المدخل، أو هكذا تخيّل مروان. لم يكن هناك في العمق، وخلف المكتب الحديد الذي يعرفه مروان جيداً، سوى الحاج عبد العزيز. لا أحد غيره، لا أولاد ولا هم يحزنون. في الحقيقة لديه بنت واحدة إسمها «فاتن»، كان من المفترض أن يتزوجها مروان منذ سنوات بعيدة.

«عبد العزيز الغريب وأولاده» إسم فخم يليق بتاجر حبوب، حتى وإن لم يكن هنالك أولاد. كان الحاج عبد العزيز منكبّاً على قراءة صحيفة، ولن يستطيع الانتباه لمن يقف في مدخل محلّه الممتدّ على طول عشرين متراً. حتى لو نظر إليه فلن يستطيع تمييز هذا الشبح، مع ضعف بصر الحاج، وتقدّمه بالسنّ.

تحسّس مروان حقيبته للمرّة الألف منذ خروجه من البيت، ثم حدّ النظر إلى الحاج المنكبّ على قراءة صحيفته. مدّ مروان يده داخل الحقيبة، وتلمّس البرودة المعدنية لمسدّسٍ صغير من نوع ماكاروف 9 ملم كان قد اشتراه من صديقه لطيف ياسين بأربعمئة دولار.

ظلّ واقفاً بضع دقائق، يصارع مع نفسه رغبة استلال المسدس من الحقيبة. من المؤكّد سينتبه له الآخرون، على الأقلّ أصحاب المحالّ المجاورة. لن يستطيع من هذه المسافة أن يردي الحاج عبد العزيز. عليه

أن يتقدّم إلى داخل المحلّ حتّى مسافة كافية، ولكنّه مع صوت الإطلاقة، سيحجز نفسه داخل المحلّ ذي المدخل الواحد، إن لم يكن بشجاعة كافية لتهديد من يقف في طريقه، ولربّما يرمي باتجاههم عدّة إطلاقات، متغافلاً عن إمكانية سقوط قتيل آخر غير الحاج عبد العزيز. سيغدو الأمر أشبه بفوضى.

- 2 -

«من يمسك السلاح، عليه أن يكون مناسباً له» هكذا قال له صديقه لطيف قبل أيّام، فهو خبير بهذه المسائل، على خلاف مروان، الذي قضى حياته في تعلّم فنون التصميم، وصناعة الديكورات، وإنشاء الزخارف وما إلى ذلك من قضايا، كان يتصوّر أنّه سيغدو مشهوراً بها في المستقبل، وليس مجرّد عامل في مطبعة تجارية قذرة، تصنع الدعايات الانتخابية، وبوسترات رجال الدين.

«عليك أن تتدرّج في خبرة التعامل مع السلاح، يعني.. مثل الطفل الذي يدخل إلى المدرسة، وأنت الآن أشبه بتلميذ في الصفّ الأوّل»

قال له لطيف وهو يسلّمه هذا المسدّس الصغير أوّل مرّة. كان في البداية، حين طلب منه توفير سلاح مناسب، قد أخبره بحاجته له كنوع من الحماية الشخصية، وهذه حجّة مفهومة في ظلّ انفلات الأمن، والخشية المترسّبة في نفوس الجميع من أيّ اعتداء مفاجئ. لن يفكّر أحدٌ بالأسباب المنطقية لتعرّضه للاعتداء. لم يعد أحد يبحث عن ذلك، وغالباً ما يكون الوقت المتاح للتفكير بالأسباب المنطقية، هو الوقت الذي تقضيه الضحيّة في القبر، بعد تعرّضها للاعتداء.

اكتشف لطيف سريعاً أنّ صديقه الرقيق «إبن العوائل» كما يتندّر عليه، لا يجيد التعامل مع السلاح. لذلك نصّب نفسه بسرعة معلّماً له.

أخذه إلى منطقة نائية ومفتوحة عند أطراف بغداد الشمالية، وهناك أمام الق أجرد إلّا من نباتات الطرطيع والشوك المتفرّقة، قال لطيف ضاحكاً:

«لو قتلت ودفنت إنساناً هنا فلن يعرف بذلك أحد»

ظلّ يجول ببصره في أرجاء الأرض المترامية، ثم أخرج مسدّس الماكاروف من تحت حزامه وناوله لمروان وطلب منه أن يطلق النيران.

«بأي اتجاه؟»

«أطلِق النار فحسب»

أطلق مروان النار من مسدّسه الصغير لأوّل مرّة. شعر بالارتجاج في يده، وصوت الإطلاقة الحادّ الذي صمّ أذنيه.

«ستتعوّد على ذلك»

قال لطيف بنبرة واثقة، بما يوحي أنّه أطلق النيران سابقاً مرّاتٍ لا تحصى. ثمّ كرّر طلبه لمروان أن يطلق النيران كيفما اتّفق وبالاتّجاهات كلّها، مع محاولة الحفاظ على ثبات يده، وأن لا تهتزّ.

ـ يجب أن لا تغلق عينيك قدر الإمكان. تحسّسْ قوّة الإطلاقة، وتعوّدْ على ضجيجها وعلى اهتزاز بدنك. الهدف المطلوب هو أن تشعر مع إطلاق النيران بالراحة، وبأنّك تقوم بشيء جيّد.

هكذا كان يقول لطيف، ويتابعه مروان بكلّ إخلاص، متشرّباً نصائحه، ليحاول التسديد باتّجاه هدفٍ مجهول، ولكن بكفاءة أكثر، ورباطة جأش أقوى في كلّ مرّة يطلق النيران بها.

كان الدرس الثاني، الذي جرى بعد إسبوع، هو الإطلاق على شواخص ثابتة. أخرج لطيف عدّة قناني مشروبات فارغة وبعض العلب، ووضعها عند مسافة عشرين متراً، وطلب من مروان أن يطلق النيران عليها.

أطلق مروان النيران من مسدّسه الصغير وأفرغ الإطلاقات كلّها ولم يصب أيّاً من الأهداف الثابتة، ولم يدر في خَلد مروان أن يختبر قدرات صديقه الخبير والمحترف بإطلاق النيران. كان مسوّراً بمشاعر الإحباط. إنّه غير ماهر وغير مناسب لمهامّ من هذا النوع.

جلس لطيف على غطاء محرّك سيارته وبدأ يدخّن، وهو ينظر من بعيد إلى الأهداف الثابتة. ويتابع صديقه مروان كيف يعبّئ مخزن المسدّس من جديد لتكرار المحاولة.

«إن كنت تريد حماية نفسك فحسب، فلا داعي لإكمال هذا الدرس، لست بحاجة إلى تسديد دقيق»

قال لطيف في محاولة للتخفيف عن صديقه. لكن مروان لم يستمع له وكرّر إطلاق النيران على القناني والعلب الفارغة، ثم صار يتقدّم عدّة خطوات، حتى أصاب إثنين من الزجاجات وفجّرها، وحينها توقّف مستديراً بوجهه إلى صديقه، وكانت ملامحه تشير إلى حالة من الارتياح.

صفّق لطيف بيديه بشكل احتفاليّ، ثم اقترب منه وسأله:

«أنت لا تريد حماية نفسك.. وإنما تريد أن تقتل شخصاً.. أخبرني، حتى أساعدك بشكل أفضل»

صمت مروان وهو ينظر إلى البعيد، ثم تشاغل بالمسدّس الذي سخن

في يده، محاولاً إخراج مخزن الذخيرة، ثم طلب من صديقه أن يعودا قبل أن تغرب الشمس.

في الطريق لم يستطع إخفاء شيء عن صديقه المقرّب. لطيف صديقه من أيام المدرسة الابتدائية. يعرف كلّ شيء عن حياته، ويعرف حتى أدقّ التفاصيل الحميمة والمخزية، كان دائماً بجواره يسانده ويدعمه، وإلّا ما لجأ إليه في طلب السلاح أصلاً.

قال له بأنّه يريد أن يقتل الحاج عبد العزيز الغريب.

- 3 -

يعرف لطيف هذا الرجل جيداً، إنّه الشريك السابق لوالد مروان، الحاج محبوب غنيّة، وكان كلاهما تاجرين مشهورين بالحبوب، ويعملان سويّة منذ أن كانا شابّين صغيرين. غير أنّ النزول المفاجئ في الأسعار بعد اتّفاقية النفط مقابل الغذاء في 1996، نزل مثل الصاعقة على الحاج محبوب غنيّة. كان مديوناً، وينتظر مع شريكه إتمام صفقة سدّدا نصف ثمنها، وتفاصيل أخرى، لم يكن يفهمها مروان بشكل جيّد، كان صبياً صغيراً في وقتها، ويرى فحسب غضب والده وانفعاله وعراكه مع العائلة داخل البيت، ولعناته التي ينزلها على الرئيس والنظام كلّه وعلى الأمم المتّحدة وعلى شريكه المخلص عبد العزيز الغريب.

في النهاية ذهبت حصّة الحاج محبوب لتسديد الديون المتراكمة عليه، واستولى شريكه على كلّ المحلّ في الشورجة. واضطرّ الحاج محبوب إلى فتح محلّ صغير في منطقة الصليخ، لم يكن ناجحاً تماماً، وتداعى وضعه الماديّ بشكل متسارع، ثم تخرّبت علاقته تماماً مع شريكه السابق،

وقضى السنوات يشتم به في كلّ مناسبة، وكأنّها صلاة جديدة صار ملتزماً بها، حتّى وفاته قبيل دخول الاميركان إلى بغداد ببضعة أشهر.

حين ذهب مروان بعد مدّة إلى محلّ الحاج عبد العزيز مذكّراً إيّاه بالخطوبة القديمة، قبل نزول الأسعار الكارثي في 1996، والتي عقدها زميلا التجارة والعمل بقراءة سورة الفاتحة بين مروان وفاتن، قال له الحاج عبد العزيز ببرود، إنّه لا يتذكّر الخطوبة، ثم حين ألحّ عليه مروان، غيّر كلامه بشكل مفاجئ، مؤكّداً أنّ البنت مخطوبة لأحد أقاربها، وقرار الزواج وما إلى ذلك هو من شأنها.

كرّر مروان الزّيارة مع رجلين عجوزين من أقاربه، ولكنّ الحاج عبد العزيز رفض تأكيد الخطوبة القديمة، وتعامل بصلافة مع الرجلين الكبيرين، وبان الغضب عليهما وهما يخرجان، وقالا في السيارة العائدة من السوق؛ إن هذا الرجل غير محترم، ومن العيب أنّهما جاءا لزيارته أصلاً.

«ما الذي تكسبه بقتل الحاج عبد العزيز؟»

«أرتاح.. أنا تغيّرت تماماً خلال عشر سنوات.. صرت شخصاً سيئاً تماماً.. هو خرّب كلّ حياتي»

«ولكن إن قتلته.. هل تتحسّن حياتك حينها؟»

«سأتخلّص من عقبة تقف أمام حياتي كلّما فتحت عينيّ.. بقاء هذا النذل حيّاً يذكّرني بفشلي وإخفاقي ويملأ فمي بالمرارة»

«ربّما لو نظرت وتأمّلت.. ستجد أنّ كلّ ما جرى هو أسباب طبيعية.. قرارات خاطئة لوالدك.. و»

«لا تقل المزيد.. أرجوك».

انتبه مروان من شروده ووجد نفسه وهو يسحب المسدّس من بطن حقيبته الجلدية. كان على شفا أن يشهره في الهواء باتّجاه الهدف البعيد لجرم الحاج عبد العزيز، لولا صياح حادّ لصاحب عربة خشبية محمّلة بتلّ من علب زيت الطعام المعدنية.

في المساء، وبعد أن تأكّد من نوم أمّه وأختيه، وضع كوبين من الشاي الساخن على طاولة المطبخ بينه وصديقه لطيف. ظلّ ينظر إلى البخار المتصاعد من الكوبين عدّة لحظات، ثم قصّ على صديقه ما جرى خلال النهار. لم يستطع فعلها، لم يقوَ على إطلاق النيران باتّجاه العجوز عبد العزيز.

تفاجأ لطيف من هذه الخطوة. ربما تخيّل أنّ صديقه المؤدّب ابن العوائل لم يكن ليفعلها أصلاً، وإنّما هو يسرّب الطاقة السلبية التي لديه بالثرثرة أمام صديقه، أو بإطلاق النيران على علب وقنانٍ فارغة، وهذا كلّ شيء.

لم يقم لطيف بأيّة ردّة فعل مزعجة لصديقه الذي يحاول تهدئة نفسه برشف الشاي الساخن. هو يعرف كيف يديم هذه العلاقة مع صديقه، الذي لا يملك أصدقاء كثراً أصلاً. كان يتجاوب معه دائماً، ينساق معه، يعدّل له المسارات التي يتّجه إليها، يعطي تفسيراً أكثر قوّة لما يروم القيام به. يندفع في نهاية المطاف إلى تأكيد خيارات صديقه وعدم الاعتراض عليها. هكذا يبقى بجواره، ويبقى ضرورياً ومهمّاً له. من دون أن ينتبه لاحتمال أن يؤدّي هذا الإمضاء التامّ والتزيين والزخرفة للخيارات العشوائية، إلى وقوع صديقه في الهاوية المؤكّدة. هو، في نقطة ما عميقة من ذاته، يعرف بأنّه لن يسقط مع صديقه في هذه الهوّة أبداً.

ضرب لطيف بيده على غطاء الطاولة البلاستيكية في المطبخ محتجّاً، ليؤكّد بأنّ ما قام به مروان خطأ فادح.

«كيف تقوم بقفزة في الهواء وأنت لم تتمرّن عليها أصلاً؟ كيف تنطلق إلى السماء بطائرة لا تعرف قيادتها؟»

ظلّ مروان صامتاً عبوساً وكأنّه وجْه هنّوش الشيرازيّ الذي يطالعه بشؤمه كلّ صباح. استمرّ بصمته، ومحاولاته رشف الشاي الساخن رشفاتٍ صغيرة، تاركاً صديقه لطيف يشرح له أبعاد القضية التي أدخل مروان نفسه فيها.

«عليك أن تتمرّن أكثر.. أنت لم تتقن بعد استهداف العلب والقناني الفارغة، فكيف بشخص حيّ على بعد عشرين متراً في سوق مزدحم؟!».

«أنا لا أعرفها أصلاً ولم ألتق بها منذ عشر سنوات، ولكنّي أردت أن آخذها منه.. كنوع من التعويض»

قال معلّقاً على قضية خطبته لفاتن. ثم قفز إلى موضوع آخر يتعلّق بالعمليات الحسابية التي أجريت للفرز بين حصّة والده وحصّة العجوز عبد العزيز من أملاك الوكالة التجارية في الشورجة. ظلّ يثرثر بشؤون أخرى عديدة، ثم انتهى إلى الدعاء الغريب الذي ألّفه والده المرحوم، في هجاء الحاج عبد العزيز، والذي كان يردّده كلّ ليلة، حتّى وفاته.

أنهى مروان شرب شايه، وظلّ يعصر رأسه ويفرك على وجهه وعينيه، في إشارة لإرهاقه العصبي والنفسي الشديد. نهض لطيف ليترك صديقه يرتاح، مع تأكيد اتفاقه معه على استئناف التمارين ابتداءً من نهار الغد.

- 5 -

في اليوم التالي جلب لطيف مسدّساً آخر، أكبر حجماً مع كاتم صوت، من نوع برونك 9 ملم وطلب من مروان أن يستخدمه بدل المسدّس النسائيّ الذي كان معه.

«نسائي؟!»

«نعم، هو أصغر مسدّس موجود، ولكنّ هذا أحسن، سلاح رجولي مع كاتم صوت، حتى تنجز مهمّتك دون ضوضاء. لم أكن أعرف نوع المهمّة حتّى أختار لها السلاح المناسب».

ظلّ يجرّب مع المسدّس الجديد مع كاتم الصوت، ووجد نفسه أكثر سيطرة وهدوءاً من المرّات السابقة. أصاب سبع علب فارغة من بين عشرة. كان رقماً قياسياً بالنسبة له. صار يبتعد أكثر ويسدّد من بعيد، ولكن نسبة الإصابات الناجحة تناقصت.

حلّ الليل، ولم ينه مروان تمارينه، بدا وكأنّ المسدّس الجديد استلبه تماماً، دخل بما يشبه حالة السكر التي ينمّيها الصوت الغريب للإطلاقات النارية بتأثير الكاتم، والخدر المتنامي في ذراعه بسبب ارتجاج المسدس مع كلّ إطلاقة.

شعر براحة كبيرة وهو يعود مع لطيف بسيارته التويوتا القديمة ذات البدن المتقشّر. وخيّل إليه لثوانٍ قصيرة، أنّه تخلّص تماماً من فكرة اغتيال الحاج عبد العزيز. لقد قتله لعشرات المرّات بهذه الإصابات المباشرة في العلب والقناني، وربّما يكون هذا كافياً له، كي ينظر إلى حياته من دون الغلالة السوداء على عينيه لشبح الحاج عبد العزيز.

إلّا أنّه في الليل، وقبل أن يدخل إلى غرفته لينام، سمع نشيج أمّه العجوز وهي تبكي على سجّادة صلاتها، وحين أنصت جيداً انتبه أنها تردّد الدعاء العجيب ذاته الذي كان يردّده والده، في شتم وهجاء الحاج عبد العزيز. هذه الأمّ شبه الضريرة ترى أنّ عبد العزيز هو من قتل زوجها. لقد نمت غدّة في صدره بسبب «القهر» كما تقول. هذه الغدّة اسمها عبد العزيز الغريب، وهي التي قتلته.

في الأيام التالية ظلّ مروان يواظب على التمارين في المنطقة الفارغة عند اطراف بغداد، وصارت مهاراته تتحسّن بشكل مطّرد، ويبدو أنّه تجاوز هذا الدرس بنجاح. وبعد أن تأكّد لطيف من هذه النتيجة أخبر صديقه بالدرس التالي:

«لن نعود إلى هذه البرّية مرّة ثانية.. عليك الآن أن تستهدف كائنات حيّة. انتهينا من حكاية قتل الجمادات».

قال لطيف، ثم شرح أهمّية تجاوز الحاجز النفسي لاستهداف روح حيّة. إنّ قتل الحاج عبد العزيز، بما هو إنسان، يبدو صعباً الآن، ولكن يمكن تذليل هذه الصعوبة بقتل حيوانات، فهي ذات أرواح أيضاً ولكن أرواحها أقلّ أهمية من روح الانسان، لذلك تنفع كتمرين ومرحلة انتقالية.

«ستشعر ربّما بالذنب بعد همود جثّة الحيوان. ستقول مع نفسك لماذا فعلت ذلك، وتتلاحق الأسئلة الموجعة على ذهنك، ولكنّ الدرس المهمّ في الموضوع ليس عملية القتل بحدّ ذاتها، وإنّما التكيّف مع الشعور بالذنب».

«كيف يعني؟»

«يعني.. أن تتعايش مع الشعور بالذنب حتّى يبدو طبيعياً، ثم بعدها بالتدريج يختفي هذا الشعور»

لم يفهم مروان المغزى من الدرس جيداً، ولكنّه فهم ضرورة أن يقتل الحيوانات الآن. ظلّ يحمل المسدّس الكاتم معه أحياناً، مجازفاً بالمرور من نقاط التفتيش الأمنيّة. من المؤكّد سيتم اعتقاله، ولربّما يتمّ تلفيق تهمة له بسبب حيازته سلاحاً غير مرخّص، بالإضافة إلى الكاتم الذي يشير بشكل لا لبس به إلى مجرم محترف.

كان يبحث عن الحيوانات، ولكنّه لم ير شيئاً. تجوّل خلال الليل في المنطقة ولم ير كلاباً سائبة مثلاً، ولا قططاً. وبعد مدّة شعر بأنّه لن يتجاوز هذا الدرس أبداً. وحين كان يتّصل به لطيف، يخبره على الهاتف بصعوبة المهمّة، فلا يردّ لطيف بشيء.

ظلّ يرمي بشكل وهمي دون إطلاقات على الحائط، على الصور وملصقات الفواكه والحيوانات في المطبخ. صار مهووساً بهذه اللعبة، متوخياً الحذر أن تراه أمه أو أحدى أختيه وهو يفعل ذلك.

ثم ذات صباح، وهو يخرج كالعادة ذاهباً إلى عمله في المطبعة، شاهد القطّ الشيرازيّ هنّوش، على الحائط الواطئ بين البيتين، وهو يحدّ إليه بتلك النظرة العبوسة المشؤومة. لم يفكّر مروان كثيراً. رجع من فوره إلى داخل البيت وأخرج مسدّسه من الدرج بجوار السرير، ثم خرج، ووجد أنّ القطّ المهيب ما زال واقفاً وكأنّه ينتظر قدره المحتوم. وجّه المسدّس باتّجاهه. كانت المسافة قصيرة، وإمكانية الخطأ في الإصابة معدومة تماماً. أطلق نحوه إطلاقة سريعة فانقلب القطّ على ظهره ساقطاً في باحة بيت أمّ علياء.

انتظر لحظات كي يسمع صوتاً لسقطة القطّ مثلاً، ولكنّ فروه الكثيف كان يمتصّ دون شك سقطة مماثلة. لم يسمع صوت علياء المقعدة، ولا أيّ شيء. ثم شاهد أمّه تخرج إلى المطبخ لتشرب الماء، فأخفى مسدسه سريعاً تحت حزامه ثم عاد إلى غرفته وأرجع مسدّسه إلى الدرج بجوار السرير، وغادر بعدها إلى عمله.

في المساء أخبرته أمّه على العشاء بالمصيبة التي حصلت لبيت الجيران. لقد وقعت إطلاقة مجهولة على القطّ المسكين وقتلته. كان من المعتاد الحديث عن موتى وجرحى بسبب إطلاقات ناريّة مجهولة تسقط من السماء، بسبب أنّ شخصاً ما أحمق وغير مسؤول يطلق النيران في الهواء، من دون حساب لمصير الإطلاقة بعد أن تفقد زخمها في الهواء وتعود مضطرّة بحكم الجاذبية إلى الأرض، وهي أرض حيّ سكني وليست بيداء فارغة، فلا بدّ أن تسقط على إنسان أو تثقب بدن سيارة واقفة أو تكسر شيئاً ثميناً.

قالت له إنّ علياء المسكينة مزّقت نفسها بالبكاء على قطّها الحبيب. لم تكن البنت قادرة على فعل أشياء كثيرة، ولا صديقات لها. كان هنّوش كلّ حياتها.

بعد أن نامت الأمّ والأختان، جلس مروان في المطبخ وأخرج زجاجة نبيذ أحمر كان قد جلبها معه في طريق عودته إلى البيت. وقبل أن يسكب لنفسه سمع صوت نحيب ضعيف. قام وفتح باب المطبخ فازداد الصوت وضوحاً. إنّها علياء المقعدة تبكي على قطّها. كان الوقت متأخّراً، وهناك لغطٌ لأصواتٍ أخرى، ربّما لأفراد عائلتها وهم يحاولون مواساتها، ولكنّها ظلّت تبكي وتنتحب بالنبرة ذاتها. تأخّر الوقت ولم تتوقّف عن البكاء، فنسي مروان قنّينة النبيذ على طاولة المطبخ، وشعر بأنّ قلبه يسقط منه على

الأرض. تآكله الذنب من كلّ اتّجاه، ولم يستطع النوم تلك الليلة. حتّى أنّه كلّما أنصت شعر بأنّه قادر على سماع صوت نحيب البنت المقعدة بوضوح. رغم أنّه كان يتخيّل ذلك ليس إلّا.

- 6 -

«لقد قتلت قطاً»

قال مروان لصديقه بالتلفون صباح اليوم التالي، فردّ عليه لطيف بصوتٍ احتفاليّ ضاحك، ولم يفهم مروان شيئاً محدّداً من كلامه بسبب الضوضاء في الخلفية. كان نوعاً من التّحية والترحيب بهذه الخطوة الممتازة، وانتظر حتّى لقائهما عصراً كي يفهم منه ما هي الخطوة اللاحقة.

أخذه لطيف بسيارته التويوتا العتيقة من رأس الشارع، وظلّ يدور به في الشوارع الفرعيّة غير المغلقة، ثم أشار إلى المقعد الخلفي، كان هناك صندوق بيرة كامل.

انتهيا لاحقاً إلى المكان ذاته الذي كان يتدرّب فيه مروان على إطلاق النيران، وفتحا علب البيرة تباعاً وشرباها، كنوع من الاحتفال بتجاوز مروان لدرسٍ جديد، هذا ما قاله لطيف على الأقل، وبدا لمروان سبباً سخيفاً وتافهاً.

«أنا أشعر بالنيران تأكلني الآن.. ما الذي فعلته أنا؟.. إنّه أمر مُخزٍ»

«هذا شعور طبيعي، ولكن عليك أن تتكيّف معه»

«واللّه بعد ألف سنة لن أتكيف معه.. إنّها حماقة. لماذا قتلت هذا القطّ بالتحديد؟ كان عليّ أن انتظر وبالتأكيد سأعثر على قطّ سائب يتسكّع في الزقاق»

«لا.. ما فعلته هو أفضل درس.. ستعيش مع الشعور بالذنب فترة.. ثم تتكيّف معه. بهذا سيقوى قلبك، وتغدو أصلب»

«أغدو أصلب بقتل قطٍّ أليفٍ لبنتٍ مقعدة؟!!»

«لا بأس لا بأس.. إشرب إشرب.. أنت تعرف بأنّني أستحرم الشرب، ولكنّي أشرب الآن من أجلك».

كان عليه، حسب منهاج الدرس الذي وضعه لطيف، أن يقتل قططاً أخرى وكلاباً إن سمحت الظروف بذلك. عليه أن يقتل حيوانات أكثر، ولا يتوقّف كثيراً عند القطّ هنّوش. لكنّ أياً من هذا لم يحدث. بدا وكأنّ الحيوانات السائبة اختفت من المدينة، أو ربّما كانت المصادفات تقوده إلى طرق خالية من هذه الحيوانات، وفي بعض الأحيان حين كان يذهب صباحاً إلى عمله، يشاهد كلاباً أو قططاً عند المزابل، ويتحسّر لأنّه لم يكن يحمل سلاحه معه.

شاهد قطّاً أجرب يدخل إلى المطبعة ويسحب بقايا الأكل التي رماها العمّال في الزاوية القريبة من الباب. استهدفه بعينيه وتخيّل أنّهما تطلقان الرّصاص. لا شكّ أنّه قادر على إصابته من هذه المسافة من دون أيّة مشكلة.

هناك، في البيت ليلاً، كان يسمع بشكل منتظم نحيب البنت المعاقة، وكأنّها مصرّة على تعذيبه. ظلّ يكرّر في ذهنه كلام صديقه لطيف عن ضرورة التكيّف مع الذنب، ولكنّه فشل تماماً. لم يكن قادراً على التكيّف مع مشاعر من هذا النوع. وبعد بضعة أيّام صعبة بسبب ضغط صوت البنت المنكوبة، قرّر مروان القيام بفعل ما.

كان يعرف شكل هنّوش جيداً. فهو يراه على الحائط الفاصل بين البيتين

صباح كلّ يوم. ذهب إلى سوق الغزل، وظلّ يبحث هناك، مرّة ومرتين، حتى عثر في النهاية على قطّ يشبه هنّوش تماماً. كان سعره عالياً، ولكنّ مروان لم ير بأساً في ذلك، إن أدّى هذا القطّ البديل مهمّته في إسكات البنت المعاقة.

حمله معه في سلّة أسلاك معدنية أنيقة، وتفاجأت أمّه وهو يضع القطّ على الطاولة في المطبخ. أخبرها بأنّه سيهدي هذا القطّ للبنت علياء. شعرت أمّه بالبهجة والفخر بابنها لقيامه بهذه الخطوة الكريمة.

رافقته حتّى بيت عائلة أبي علياء، وهناك في الصالة وضع صندوق الأسلاك المعدنية الأنيق الذي حوى الحيوان الفخم على الطاولة، ورحّبت به عائلة الجيران أيّما ترحيب، وانتظروا أن تأتي علياء كي ترى المفاجأة السعيدة. لقد جرى استعادة هنّوش من عالم الأموات، وها هو أمامها من جديد.

دخلت أمّ علياء وهي تدفع عربة ابنتها المقعدة. كان وجهها عبوساً، يذكّر مروان بشكل غريب، بوجه هنّوش الفقيد تماماً. رجع ببصره إلى وجه القطّ الشيرازيّ البديل ولم ير هذه النظرة العبوسة. فرغم أنفه الصغير المدفوع داخل الوجه كما هو وجه هنّوش، إلّا أنّه بدا أكثر وداعة ولطفاً.

قال أبو علياء لابنته؛ إنّ هذه هديّة من عمو مروان، بدلاً من قطّها الراحل. هذا هنّوش جديد.

ظلّت علياء على عبوسها، ورمقت القطّ الشيرازي بنظرة واحدة ثم أخبرتهم بأنّ هذا ليس هنّوش.

«نعم، هو ليس هنّوش، ولكنّه مثله، سمّيه هنوش أيضاً.. ليكن هنوش رقم 2»

قال مروان بمرح، وكأنّه بكلامه هذا يحلّ الإشكالية كلّها. لكن البنت المعاقة ظلّت على موقفها، بأنّه ليس هنوّش ومن المستحيل أن يحلّ قطّ آخر في محلّه، حتى لو كان نسخة طبق الأصل.

بعد محاولات وأحاديث من كلّ الموجودين في الصالة، لم يبد أنّ البنت قد غيّرت رأيها، ولم تعط فرصة للتكيّف مع القطّ الجديد، ولا يبدو أنّها كانت خجلة من إلحاح جيرانها الضيوف. بدت لمروان وكأنّها نصف خرفة، وتعاني مشكلة في عقلها، وساوره شيء من الانزعاج، واستشعر سخافة المهمّة التي تصدّى لها حتّى من دون مشاورة صديقه المقرّب لطيف.

قام مروان مع أمّه وطلب من عائلة أبي علياء أن يحافظوا على القطّ ويبقوه هنا معهم، ريثما تتعوّد عليه علياء، وبالتأكيد سيعوّضها هذا الحيوان فيما بعد عن هنوّش الراحل. وقبل أن يخرجوا من الصالة صاحت علياء وكأنّها تريد تثبيت ملاحظة ما للجميع قبل أن يتفرّقوا، بأنّ هذا لا يمكن أن يكون هنوش.. هنوش ذكر، وهذا القط أنثى.

«نسمّيه هنوشة.. ماكو مشكلة»

قال مروان بنبرة لم تخف انزعاجه ثمّ غادر مع أمه.

ظل مروان ما تبقّى من تلك الليلة يغالب شعوراً عميقاً بالغضب ولوم النفس، وشعر بأنّ البنت كانت تستحقّ أصلاً فقدان قطّها. لم يكن هناك أيّ شيء بدون معنىً إذن. كانت فتاة سخيفة وصلفة وغير مؤدّبة وشبه حمقاء، وتستحقّ عذاب الشعور بفقدان حيوان عزيز.

لم يسمع صوتها تلك الليلة، وربّما تقبّلت وجود الحيوان الجديد. ربّما

كان عليه أساساً أن يتركها في عذابها، كما طلب منه لطيف، ولا يعالج المشكلة. كان عليه أن يتقبّل شعوره بالذنب ويتكيّف معه. وها هو الآن يغطس في مشاعر غريبة وشائكة، فهو يشعر بالذنب لأنّه لم يترك نفسه تشعر بالذنب. كيف يمكن وصف إحساسه بدقة في هذه اللحظة؟!

- 7 -

بعدها بيومين، حين عاد من عمله إلى البيت منهكاً بسبب زحامات الطريق ونقاط التفتيش المتزايدة في الشوارع، تفاجأ بقفص القطّ الشيرازيّ على طاولة المطبخ.

قالت له أمّه بأنّ عائلة أبي علياء أرجعوه نهار اليوم. لم يبدُ أنّ البنت تتقبّل وجوده، وصارت تصرخ لإخراجه من البيت. هم محرجون كثيراً بسبب هذا الموضوع، ويقدّرون ما قام به مروان من مبادرة لطيفة. ولكنّ المشكلة صارت أكبر مع وجود قطّ يحاول محو ذكرى القطّ العزيز الراحل.

غضب مروان كثيراً، وتمنّى لو أنّه ذهب وطرق باب بيت أبي علياء ليتعارك معهم، ويخبرهم بحقيقة ابنتهم الغبية والحمقاء. ولكنّه سيبدو في موقف غريب، فيكون عمله هذا مثل انتقالة مفاجئة وحادّة من قمة اللطف والتفهّم إلى قاع البذاءة والقسوة.

لم يخبر صديقه لطيف بهذه التفاصيل. لم يرَ مبرراً للاعتراف أمامه بكلّ شيء، ما دام وصل إلى النتيجة المرجوّة في نهاية المطاف، فهو متكيّف الآن مع شعوره بالذنب لمقتل القطّ الشيرازيّ. وخيّل إليه أنّ صديقه لطيف حكيم فعلاً، وكأنّه يعرف كلّ هذه التفاصيل ويعرف نتائج الخطوات التي

يخطوها، فصار مروان لهذا السبب أكثر تسليماً وإيماناً بالدروس التي يلقّنها له صديقه.

قال إنّ عليه أن يقتل قططاً وكلاباً أكثر، ولكنّ مروان أكّد له أنّه لم يعد بحاجة إلى هذا التفصيل، يستطيع قتل أيّ حيوان الآن بدون أن يرمش له جفن، وعلى لطيف أن يصدّق به ولا يناقشه كثيراً بهذه القضية.

لم يكن لطيف متأكّداً تماماً، ولكنّه أبلغه بالدرس الجديد:

«عليك أن تتأكّد من خلوّ مسدّسك من الإطلاقات ثم توجّهه على أشخاص، أناس أحياء، وتضغط على الزناد.. يعني تقتلهم بشكل وهمي».

«وماذا لو انتبه إليّ الآخرون وأنا أفعل ذلك؟ ألّا يظنون حينها بأنّني بصدد محاولة قتل؟»

«توخّ الحذر قدر الإمكان، ولكن هذا هو درسك الجديد»

«ألا يمكن أن أقوم بهذا الدرس من دون استخدام المسدس.. يعني بأصابعي هكذا»

قال مروان وهو يشهر سبّابته مثل المسدّس في الهواء.

«هذه لعبة طفولية.. نحن أمام درس جادّ يا مروان.. لا تسخّف الموضوع أرجوك»

ردّ لطيف بحزم. ثمّ ران صمت بينهما وهما يخترقان بالسيارة الشوارع المزدحمة. واستغرق مروان خلال الوقت اللاحق باستهداف السابلة وركاب السيارات الأخرى برصاص عينيه، كما كان يفعل مع القطّ الأجرب عند باب المطبعة.

بعد إسبوع من عدة محاولات ناجحة باستهداف الناس بمسدّس فارغ، قال له لطيف إنّه الآن أمام درس جديد، وبعدها يكون جاهزاً لقتل الحاج عبد العزيز.

«عليك أن توجّه مسدّسك في البيت على صور العائلة»

«الأمر سخيف يا لطيف»

«عليك أن تكسر الحاجز العاطفي. إرمِ إطلاقات وهميّة من مسدّسك على صور أبيك وأمّك وأخواتك.. أطلق النيران الوهميّة على صورك أيضاً»

«إنّه أمر سهل.. ولكن ما الفائدة منه؟»

«كسر الحاجز العاطفي.. ألم تقل سابقاً إنّك كلّما شاهدت الحاج عبد العزيز تتذكّر والدك؟»

«هو لا يشبه والدي أبداً.. ولكنّه يذكّرني بوالدي»

«اقتل هذه المشاعر يا مروان.. طبّق الدرس ولا تتردّد»

رغم عدم قناعته إلّا أنّ مروان قام بالدرس، وكرّره عدّة مرّات على مدى ليالٍ. ثم إلتقى بصديقه الذي أخذه إلى برّية التمارين الجرداء، ولم يفهم مروان السبب في ذلك. هناك نزلا وصارا يتمشيان حتى ميدان الرماية الارتجالي. وقف لطيف على مسافة وفرد ذراعيه في الهواء وهتف بمروان:

«إرم باتجاهي»

«ماذا تقول؟»

«مسدّسك فارغ.. تأكّدتُ منه قبل قليل.. إرم باتجاهي.. أقتلني بشكل وهمي»

«لا تكن سخيفاً يا لطيف»

«هذا هو الدرس الأخير يا مروان.. إرم باتّجاهي واكسر هذا الحاجز العاطفي التافه»

سدّد مروان مسدسه باتّجاه صديقه الذي بدا، وهو يفرد ذراعيه، مثل مسيح على الصليب. أغمض لطيف عينيه وكأنّه سيتلقى إطلاقة فعلية. أطلق مروان عدّة مرّات باتّجاه صديقه، ولم يشعر بأنّ هناك شيئاً ما قد تغيّر لديه، لا حاجز عاطفي تافه انكسر ولا أيّ هراء آخر.

«لقد انتهت دروسك الآن.. يفترض أن تذهب غداً إلى الحاج عبد العزيز وتقتله، صرت جاهزاً الآن»

قال لطيف وهو يقفز في مكانه، وكأنّه فرحٌ بنجاته من موتٍ محقّق كان على مقربةٍ منه منذ قليل.

في طريق العودة أخبره بالظروف المحيطة بعملية الاغتيال المرتقبة. عليه أن يدخل إلى عمق الوكالة التجارية، ويختار وقتاً لا يكون فيه أحدٌ ما قريباً من الحاج عبد العزيز. لا من العمّال ولا من أصحاب المحالّ المجاورة. يسدّد إطلاقته بسرعة، ويخرج من دون أن يلتفت، حتى لا يثير الانتباه لنفسه.

- 8 -

ظلّ مروان مؤرّقاً إلى ساعات متقدّمة من الليل، ومن دون شعور بالوقت سمع أذان الفجر، ولما يزل يقلّب كلّ الصور المفترضة لعملية الاغتيال في ذهنه مرّة بعد أخرى، ثم سمع أصوات حركة أمّه بخطواتها الثقيلة في صالة البيت وهي تهمهم بالأدعية، متّجهة إلى الحمام لتتوضّأ.

كانت هناك احتمالات جديّة كثيرة بالفشل تواجه مهمّته. فربّما أوقفته سيطرة عسكرية وعثرت على المسدس ذي الكاتم بحوزته. ربما كان العجوز الهرم أكثر حيوية ممّا يبدو عليه، وكان يخبّئ مثلاً مسدساً في درج مكتبه الحديدي العتيق. أو ربّما كانت هناك احتياطات أمنية من قبل تجّار السوق كلّهم، تحسّباً لأيّ مواقف مشابهة تحدث لأحدهم في ظلّ الأوضاع المضطربة التي تعمُّ البلد.

وصل في حدود الثامنة صباحاً إلى عمق السوق، واقترب حتى صار بمواجهة محالّ «عبد العزيز الغريب وأولاده»، وحين رمق عمق المحلّ تفاجأ أن العجوز عبد العزيز كان يجلس على كرسي بلاستيكي في منتصف المسافة، وليس على مكتبه البعيد في العمق. وحالما انتبه العجوز لهيئة مروان أمامه حتى تعرّف عليه وانتصب واقفاً مرحباً به ومدّ يده إليه للتحية.

وجد مروان نفسه يستجيب لردّة فعل العجوز عبد العزيز، ويتفاعل معه كما هو العرف الشائع. سلّم عليه، وادّعى أنّه كان مارّاً من هنا. سأله العجوز عن أمّه وعن أختيه وهل تزوّجتا، وطلب منه أن يجلس ليجلب له شاياً.

جال مروان بنظره في المكان، وحاول أن يقدّر انتباهة الموجودين في المحالّ المجاورة، إن كانوا عمّالاً أو تجاراً أو متبضّعين، لأيّ عمل مفاجئ يقوم به ضدّ العجوز الآن. ظلّ جزءٌ من ذهنه يتجاوب مع العجوز ويردّ على أسئلته الودودة، وجزء آخر يحاول الإمساك بالتفاصيل الضرورية لعملية الاغتيال المفترضة.

لم يجد القوّة ولا العزيمة الكافية لإخراج سلاحه من الحقيبة، وأنهى زيارته النادرة، وسلّم على العجوز عبد العزيز مغادراً. لم يعد إلى الشارع

العام، وانّما استمرّ في المسير إلى عمق السوق، وخلال الطريق شعر بثقل الحقيبة، وكأنّه يحمل أحجاراً أو كتلاً من الرّصاص فيها. تمنّى لو أنّ هناك فرصة ما لإخراج المسدّس ورميه على الأزبال، ولكنّه لم يجازف بذلك خشية أن ينتبه إليه أحد.

- 9 -

لم يذهب إلى العمل، واستقلّ سيارة أجرة عائداً إلى البيت. كان يشعر بتعب هائل وهو يسير بخطوات متمهّلة حتى باب البيت، وحين فتح الباب، وجد القطّ الشيرازي البديل عن هنّوش جالساً في الحديقة الصغيرة بجوار مدخل باب المطبخ. ظلّ ينظر إليه للحظات، وشعر بأنّ الفشل الذي عايشه نهار اليوم يعود بجزءٍ منه إلى أنّه تجاوز بإصرار، من دون رغبة صديقه لطيف، الدرس المطلوب منه. كان عليه أن يقتل قططاً وكلاباً أكثر. لم يكن مطلوباً منه أن يتجاذب أطراف الحديث مع الرجل الذي قتل والده. كان عليه، ومن دون أيّة كلمة، أن يسدّد إطلاقة مباشرة إلى صدر العجوز عبد العزيز، ثم يستدير مكملاً طريقه إلى عمق السوق، قبل أن ينتبه أحد إلى سقوط العجوز على الأرض وتدفّق الدماء من صدره.

أخرج مسدّسه ذا الكاتم من حقيبته وسدّد إطلاقة إلى القطّ الشيرازي، جعلته ينقلب على الحشائش شاهراً أقدامه إلى الأعلى. ظلّت الأقدام تتلوّى مع بقايا الروح الخارجة من جسد هذا الحيوان وكأنّها تحاول التشبّث بشيء ما. لم ينتظر مروان حتى يتأكّد من همود جثّة القطّ تماماً، ودخل إلى البيت مسارعاً إلى غرفته. هناك ألقى مسدّسه على ميز التواليت كيفما اتّفق وارتمى على سريره ليغطّ في النوم من فوره.

عند العصر إرتدى ملابسه وخرج. أخذ سيارة أجرة باتّجاه ميدان الرمي الافتراضي. نزل عند الشارع العام، وسار لربع ساعة أو أكثر في البيداء الفسيحة. كان البرد قارصاً. وصل إلى ميدان الرماية. وهناك أخرج هاتفه ووجد أكثر من عشرين مكالمة فائتة من صديقه لطيف. اتّصل به، وحالما انفتح الاتصال سارع لطيف لسؤاله عن نجاح مهمّته:

«هل قتلته؟.. لقد قلقت عليك يا رجل؟ لماذا لم تردّ عليّ؟»

«لا.. لم أقتله».

«أين أنت الآن.. يجب أن نتحدث»

بعد نصف ساعة جاء لطيف بسيارته التويوتا العتيقة، ونزل منها وسلّم على صديقه مع انفعال بادٍ على وجهه، وفضولٍ شديد لمعرفة التفاصيل. لم يتكلّم مروان كثيراً، وظلّ يسدّد بشكل وهميّ إلى الأهداف البعيدة التي اخترقتها الرصاصات سابقاً أكثر من مرّة.

«هاك.. أرمِ على هذه العلب»

قال مروان فجأةً، وهو يسلّم صديقه مسدّسه ذا الكاتم. حمل لطيف المسدس من دون اهتمام وصار يقلّبه بيده عدّة لحظات، ثم أعاده إلى صديقه، وكأنّه يتخلّص من شيء ملوّث بمرض ما:

«لا أستطيع.. أنا لا أجيد إطلاق النيران أصلاً»

«لماذا؟»

«أنا قلت لك سابقاً.. من يحمل السلاح عليه أن يكون مهيّئاً له.. أنا لست مهيئاً لإطلاق النيران ولا القتل ولا أيّ شيء»

«لماذا إذن تعطي دروساً في القتل؟ أنا قتلت اليوم القطّ الشيرازيّ البديل»

لم يردّ لطيف بشيء، ثمّ بعد لحظات صمت، أكمل مروان:

«أتعرف؟... لم أشعر بأيّ شيء.. لا شعور بالذنب ولا هم يحزنون.. أنت مدرّس جيد»

ظلّ لطيف متحيّراَ ولا يعرف بماذا يردّ. كان صديقه الوديع إبن العوائل، يبدو أمامه في تلك اللحظة غريباً وغامضاً. إنه يفشل الآن، ولأوّل مرّة ربّما، في فهم صديقه المقرّب. كان يبدو خطراً.

سدّد مروان عدّة إطلاقات على العلب البعيدة، وأصابها جميعاً. ما أفزع صديقه، لأنّه فعل ذلك من دون سابق إنذار، ومن دون مقدّمات أيضاً عاد بمسدّسه الذي بدا بسبطانة طويلة بسبب الكاتم، ليوجّهه نحو صديقه.

ارتجفت الدماء في عروق لطيف، وحاول مع ذلك الابتسام والضحك، وإيجاد عبارات مناسبة.

«ستقتله في المرّة القادمة.. لا تقلق»

«من هو؟ الحاج عبد العزيز؟ لم يعد الأمر مهمّاً»

«أبعدْ السلاح مروان.. دعنا نرجع.. الجوّ صار بارداً جداً»

«لماذا أُبعدُ السلاح.. هذا أحد التمارين.. أسدّد باتّجاه شخص مقرّب حتى أكسر الحاجز العاطفيّ»

«لقد تعلّمتَ الدرس ولا حاجة لتكراره.. أبعدْ المسدس»

تحرّك مروان عدّة خطوات وكأنّه يبتعد عن المكان، ثمّ استدار بجسده

مواجهاً صديقه الخائف، وقال له بالنبرة المقلقة ذاتها التي لا تفصح عن نوايا واضحة:

«أتعرف.. عليّ أن أقتل شخصاً ما.. شخصاً من لحم ودم.. حتى أكسر اخر الحواجز ما بيني والعجوز عبد العزيز.. حينها سأقتله بدم بارد»

«كان عليّ أن أنصحك من البداية بتكليف شخصٍ ما بهذه المهمّة.. أنت لست مناسباً للقتل.. أنت فنّان ومصمّم.. علاقتك ضعيفة بهذه الأعمال العنيفة.. تعطي المال لشخص ما يقتل بالنيابة عنك.. الأمر كما تعرف صار سهلاً هذه الأيام»

«أنت كذّاب.. أنت تخبرني بما أريده أنا.. لا تريد إزعاجي»

عاد مروان وسدّد مسدّسه هذه المرّة باتّجاه سيارة التويوتا، كسر مصباح الإضاءة الخلفية، ثم ثقب الصندوق الخلفي بإطلاقتين.

«يمعوّد»

هتف لطيف غاضباً.

«شبيك تْسودَنِت؟ هاي شْبيك مروان؟!»

أطلق مروان رصاصة باتّجاه صديقه ما بين قدميه، فطشّرت التراب والحصى، ما دفع صديقه إلى التراجع بسرعة عدّة خطوات إلى الخلف، وانقلبت ملامحه بسرعة وبدت وكأنّها لشخص يستقبل الموت الوشيك.

«أنت قلت لي.. لا أحد سينتبه لمقتل ودفن شخص ما هنا»

قال مروان وهو يغادر بخطوات متمهّلة مبتعداً عن المكان، من دون أن يخفي سلاحه، وتركه متدلّياً من يده الممدودة بثبات إلى الأسفل، وكأنّه

ذاهب لقتل شخص ما. إلتفت في منتصف المسافة، وصاح بصديقه الذي خارت قواه وجلس على الأرض بجوار سيارته.

«لقد اكتملت الدروس كلّها.. إن رأيتك مرّة أخرى.. سأقتلك.. أنت الآن صرت واثقاً من هذا»

اختطاف

- 1 -

في الغرفة العفنة شبه المعتمة التي وضعه الخاطفون فيها، وبعد أن تأكّد أنّه لا يستطيع القيام بأشياء كثيرة هنا كان «جدّو سميع» يستسلم لسيلٍ من صورٍ متفرّقة لا رابط بينها تأتيه من ذاكرة حياته الطويلة. هذه الليلة مثلاً حضرت في ذهنه دون سبب مفهوم صورة لحلوى أثيرة في نفسه كان يعطيها لحفيده زيّودي.

كان قد خرج من البيت ليلاً، يسير بثقلٍ متكئاً على عصاه المصنوعة من الألمنيوم الخفيف، حتى رأس الشارع في حي «راغبة خاتون»، ليشتري ما طلبه زيّودي منه، ولم يعد في ذلك المساء إلى البيت بعدها أبداً.

تداعت صورٌ أبعد غائرة في ذاكرته المنهكة بثقل ما فيها. وتذكّر جدّو سميع أنّ المتعة في طفولته في أزقّة محلّة السفينة، حيث بيت عائلته القديم، كانت بالنسبة له، هي أن يحوز بين يديه شيئاً أصفر صلباً يسمّى «الخرّيط»، وهو خليط من طلع القصب مع شيء من السكّر. كانت حلوى لذيذة ولا يمكن، بسبب فقر عائلته، أن يتناولها كلّ يوم.

وحين غدا شاباً، ودخل الكلّية العسكرية، كان يشاهد أبناء أقاربه الصغار يتناولون حلوى أخرى، تحتاج إلى شيء من الإعداد، هي أن تأتي

بعلبة بسكويت «الحمراء»، الذي يحوي ثماني بسكويتات جافة دائرية الشكل، وتشتري قطعاً من حلوى «اللُّقُم» السكّرية الليّنة. تفرش جزءاً من اللّقُم على سطح بسكويتة، ثم تكبس عليها ببسكويتة أخرى، فيغدو شكلها أشبه بسندويتش حلوى.

ظلّت هذه الصورة عالقة في ذهنه، حتى صار لديه هو نفسه أولادٌ، وعبثاً حاول إقناعهم بتناول هذه الحلوى. كان إبنه الأكبر «منير» ذكياً بشكل مزعج. قال له مرّة، مع إصرار أبيه على تناول هذه الحلوى المميزة؛ ما الفائدة من كلّ هذا التعب.. هل سيكون البسكويت واللّقُم سالمين في المعِدة، أم يختلط كلّ شيء ويتفتّت؟

سكت الأب عبد السميع، وترك الولد الذكيّ يتناول الحلوى بالطريقة التي تناسبه. وحاول لاحقاً مع إبنه الثاني «نذير»، ولكنّه كان يلفظ القضمة من ساندويتش الحلوى سريعاً، ويظلّ يبصق وهو يصيح: إيع.. إيع. وكأنّه تذوّق طعاماً قبيحاً. وحين تأكّد عبد السميع أنّ رغبته الطفولية صعبة التحقيق مع أولاده، نسي الأمر تماماً، حتى مرّت سنوات كثيرة وجاء زيّودي إلى الحياة.

ـ 2 ـ

فتح أحد الخاطفين الاثنين الباب المغلق بسلسلةٍ وقفلٍ كبير، ودخل إلى الغرفة بصينية طعام العشاء. نظر من وراء لثامه بالغترة الحمراء المرقّطة إلى هيئة العجوز، وخشي أن يكون قد مات على سريره القماشي المتواضع خلال النوم. لا يفعل العجوز أشياء كثيرة، وكلّما أطلّ هذا الخاطف الشابّ من الباب يراه نائماً.

ما أن وضع الصينية على الأرض حتى طفا العجوز عبد السميع من ذكرياته إلى الأعلى، وفتح عينيه. نهض ببطء واتّكأ على الحائط ورمق الخاطف الشابّ بتلك النظرة التي لا يحبّها هذا الخاطف، وكأنّه يقول له: إنّني أعرفك.

لا يمكن أن يتجرّأ أحدٌ على خطف الضابط المتقاعد عبد السميع خلف إن لم يكن يعرفه جيداً، ويعرف أولاده. لا شكّ أنّ هذا الخاطف وزميله الآخر الأطول منه، هما من سكّان الحيّ نفسه الذي يقيم فيه عبد السميع.

قالا له في الليلة الأولى التي دفعاه فيها إلى هذه الغرفة، إنّهما لا يريدان له السوء. مجرّد فدية من ولديه أو أحدهما، ويطلقان سراحه، وها هو أسبوع يمضي ولا يبدو أنّ «العملية» قد نجحت، فهذان الخاطفان امتنعا منذ عدّة أيام عن تبليغه بأيّة تطوّرات. حدّ جدّو سميع النظر إلى الخاطف الشابّ ذي اللثام، وأطلق ملاحظة على الطعام الذي رآه في الصينية. لا نكاد تمرّ مناسبة مماثلة من دون ملاحظات، وتعوّد هذا الخاطف على سلوك الرجل العجوز الخرف.

ـ أنا قلت لك.. لا آكل الرزّ والمرق ليلاً. إنّه مناسب لوجبة غداء. في الليل يكون الرزّ ثقيلاً على المعدة.

ـ كُلْ ما يعجبك من الصينية واترك الباقي.. لستَ في فندق الشيراتون.

قال الخاطف وترك الغرفة، حتى لا يسمح للعجوز بالاسترسال بالأحاديث. لقد نصحه الخاطف الطويل أن لا يتجاذب الكلام مع العجوز حتى لا يكشف هويّته.

ـ إنّه ذكي، وهذا التمسكن ومظاهر التعب والشيخوخة.. كلّها تمثيل في تمثيل.

قال الخاطف الطويل لزميله، وهما ينظران إلى العجوز من فتحة نظيفة على زجاج الشبّاك المغطّى في أغلبه بدهان أزرق يحجب الرؤية.

كانا يخطّطان لاختطاف العجوز منذ مدّة، وعرفا روتينه اليومي. إنّه يستثمر أيّة حجّة كي يخرج ليلاً، ما بعد العشاء، للذهاب إلى مسافة بعيدة نوعاً ما، عند رأس الشارع، لشراء قدّاحة للمطبخ، أو كيس شاي جاف، أو، إن لم يكن هناك سبب واضح للخروج، يذهب لشراء البسكويت وحلوى اللّقُم لحفيده الوحيد زيّودي.

وضعاه في باطن باص كيّا منزوعة المقاعد، وانطلقا بسرعة في الشارع شبه الفارغ في تلك الساعة، محاذرين أن ينتبه أحدٌ ما لما قاما به.

حين انتبه عبد السميع لنفسه وما جرى له، شاهد شابّين ملثّمين بغُترٍ مرقّطة نظيفة، ينظران إليه وهو في وسط غرفة شبه خالية من الآثاث، ما سوى مغسلة في الزاوية مع سطلٍ كبير من البلاستيك، وفرشة قماشية مع وسادة وضعاها هنا للنوم، على سجّادة رخيصة مصنوعة من النايلون الناعم المضفور غطّت ثلاثة أرباع مساحة الغرفة. فهم سريعاً، وهو الرجل الذي عركته السنوات، أنّ الدلو هو للتغوّط والبول. وذكّره منظره بمشهدٍ مماثل لسجون معسكرات الجيش خلال الثمانينيات والتسعينيات. كان ينظر إلى هذا الدلو من بين أعمدة نافذة السجن وهو يصيح على الجنود المساجين وينهرهم ويشتمهم. لم يكن يتصوّر أن يأتي يوم تتوطّد فيه علاقته مع هذا الدلو القبيح. كان دلواً نظيفاً في واقع الحال ولكنّه سيغدو قبيحاً لاحقاً، إن استجاب إلى منطق الخاطفين.

ـ لن أتغوّط في هذا الدلو.. فاهمين!

صاح بهما قبل أن يفهم أيّ شيء ممّا جرى له. تفاجأ الخاطفان، وصاح أصغرهما بدون تفكير مسبّق:

ـ أُكُل خرة واسكت.

أمسك الخاطف الطويل بيد زميله ومنعه من ضرب العجوز، ثم سحبه معه وأغلقا الباب. وقضى العجوز ليلته الأولى في هذا المكان، وبعد ساعات مرهقة من الاستيقاظ والتفكير نام على الفرشة القماشية، ولم يستطع منع نفسه، وهو يغالب نعاسه، من تشمّم رائحة خراء متوهّمة قادمة من الدلو البلاستيكي الفارغ في زاوية الغرفة.

ـ 3 ـ

نهار اليوم التالي فتح الخاطفان الباب ودخلا، بهيئتهما نفسها، ووقفا متجاورين ينظران إلى العجوز الذي لم ينهض من مكانه وظلّ منطرحاً على فراشه ينظر إليهما نظرة كسولة بطرف عينه. قالا له إنّهما اتّصلا بولديه، وهناك تفاهم على فدية بعشرة «دفاتر»، أي مئة ألف دولار، وحالما يحصلان على الفدية سيطلقان سراحه. غادرا بسرعة، وسمع العجوز سميع الخاطف الطويل يحدّث زميله بضرورة أن يجلب للمخطوف فطوراً وشاياً وأن يهتمّ به.

لم تكن الأمور، في الحقيقة، تمضي بالصورة التي نقلاها إلى العجوز عبد السميع. كانا قد أخذا هاتف العجوز من جيب دشداشته بعد أن أدخلاه عنوة في حوض باص الكيّا. وكم كانت مفاجأة الخاطف الطويل حين قرأ الأسماء على قائمة هاتف العجوز. لم تكن هناك أسماء مفردة، وإنّما كلّ إسم مع كنية ما، مثل علي الحداد، كامل الحلاق، سمير ابو الأسواق،

وهناك أسماء هي كنى وصفات لا أكثر: المطعوج.. أخو خيته.. إبن مرته.. إبني الشفيّة.. ضيم الأوّل.

ـ نريد الاتّصال بولديك.. أين اسماهما؟.. لا نرى في الهاتف لا منير ولا نذير.

شرح لهما العجوز وهو ينطق الكلمات من خلف أسنانه، بأنّ منير، إبنه الأكبر هو «ابني الشفيّة»، أمّا نذير فهو «إبن مرته».

ـ إذا أريد أحكي وياكم.. شسمّيكم؟ أنت منو وأنت؟

ـ آني سمّيني منير.. وهذا نذير.

قال الخاطف الطويل، واستغرب العجوز عبد السميع ما سمعه. لماذا اختارا إسمي ولديه؟ هل يسخران منه؟! على أيّة حال، لم يكن بمزاج الجدال معهما، كان يتمنّى لو أنّ جسمه يساعده للوثوب نحوهما، كما كان يفعل أثناء التدريبات العسكرية قبل ثلاثة عقود، ليمسح بهما الأرض.

مرّ أسبوع وهو هنا، يغالب الوهن الذي صار يغزو جسده وروحه. لم يأكل نصف الطعام الذي قدّم له، حتى الماء الذي كان يشربه يشعر بإنّه غريب الطعم، رغم إدّعاء الخاطف القصير أنّه ماء معقّم. وانتبه لنفسه أنّه يطوّر أيّة محادثة عابرة مع هذا الخاطف الصغير، الذي يبدو أنّه مكلّف بمهمة حراسته، كي تغدو سجالاً يثبت من خلاله سلطته عليه. إنّ الخاطف الصغير، بعد نزع هذا اليشماغ الملفوف بطريقة خرقاء حول وجهه، يشبه أيّ جندي قرويّ جاهل كان عبد السميع، أيّام زهوه، يصبّحه بركلة على مؤخرته، ويمسّيه بصفعة قويّة على قفاه.

في نقطة ما عميقة من نفسه، كان عبد السميع غير متقبّل لوضعه

كمخطوف وضحيّة لعمل عصابة ما. ما زال يرى نفسه خارج هذه اللعبة، وهذين الأجربين غير مناسبين لشغل وظيفة خاطف. إنّها ليست عملية الخطف المثالية المناسبة لعبد السميع خلف.

لو تحدّث عبد السميع بصوت مسموع أمام خاطفيه وطرح رأيه بهما لارتجفا خائفين، فهو يصف شيئاً شبيهاً بالحقيقة.

- 4 -

لا يعرف عبد السميع تفاصيل المكالمة الهاتفية التي أجراها الخاطف الطويل مع «إبنه الشفيّه» منير. هو واثق أنّ ولديه سيجدان حلّاً لتحريره، ولم يصبر على مدى الأيام الماضية إلّا لقناعته أنّ هذه المحنة قصيرة الأمد.

تحدّث الخاطف الطويل مع منير، وذكر له بأنّه يتحدّث باسم عصابة خطفت والده، وأنّهم يطلبون مئة ألف دولار لقاء إطلاق سراحه. انتظر الخاطف الطويل ردّاً منفعلاً، ارتباكاً وتوسلّات على الطرف الآخر من خطّ الاتصال، ولكنه لم يسمع سوى تمتمات باردة، وكأنّه صوت موظّف ملول خلف شبّاك دائرة حكومية مزدحمة بالمراجعين.

- اللّه كريم... نشوف.

- شنو تشوف.. إذا ما تدفعون المبلغ.. نقتل الحجّي.

- إيه خوش.. افتهمنا.

- عندك مهلة اسبوع... فاهم.

- قلت لك.. افتهمنا.

قال منير ذلك وأغلق الاتّصال فجأة، ما خلّف ردّة فعل غير مريحة لدى

الخاطف الطويل. جلس مع زميله وصار يتداول معه بما جرى. لم يتوقّعا أن يواجها وضعاً مشابهاً. كلّ عمليات الخطف التي سمعا عنها كانت تجري وفق أحداث معلومة، وفي الأعمّ الأغلب يبكي أهل المخطوف ويطلبون الرحمة. ما الذي يفعلانه الآن؟

ـ لقد قلت لك... هذي شغلة تعبانة.

ـ اسكت.. ليس وقت الندب الآن. اعطيني حل.

ـ شنو الحل؟ آني أقول لك.. نترك الحجّي يروح لأهله.

ـ مستحيل.

هتف الخاطف الطويل وهو يشبّ على قدميه رافضاً بشدّة هذه الفكرة. لقد اقتحما هذه التجربة وتجرّآ أخيراً على خطف إنسان من حيّهم السكنيّ. التراجع عن هذه الخطوة ليس مطروحاً كخيار. يجب أن يستمرّا بعملية الخطف السهلة واليسيرة هذه إلى النهاية.

ـ لقد قلت.. إنّ ولديه لديهما مال وسيارات.. وهما جبانان.. مثقّفان وناعمان.. ولا أقارب لهما.

ـ وسيدفعان المبلغ المطلوب.. ليس عشرة دفاتر.. لن نصرّ على هذا المبلغ.. ولكن لن نطلق سراح الحجّي مجّاناً.

ـ وإن لم يدفعا؟

ـ سنقتله.

ـ أنت واثق من كلامك؟!

سأل الخاطف القصير مع قلب مخلوع من الرهبة لمجرّد مرور فكرة

ذبح الرجل العجوز في ذهنه، ولم يتلقّ جواباً من زميله الطويل الذي استغرق مع نفسه يقلّب السيناريوهات المحتملة للمراحل اللاحقة من هذه القصّة.

اتّصلا في اليوم نفسه مساءً بالإبن الثاني، «إبن مرته» نذير، وتحدّث الخاطف الطويل بنبرة أكثر حدّة وعدوانية، وطعّم استعراضه لوضع الحجّي الحرج ببعض الشتائم كي يستفزّ الابن الأصغر لعبد السميع، ولكن نذير ردّ ببرود:

ـ الحجّي لا يسكن معي.. إنّه مقيم مع منير.. اطلبا منه هذا الطلب. أنا انقطعت علاقتي مع الحجي منذ سنوات.

ـ شنو هذا الكلام؟ هو أبوك.. أليس كذلك؟ سنقتله.. فاهم يا كلب؟!

ـ ليس لي أي علاقة بهذا الموضوع.. مناقشتي للدكتوراه بعد خمسة أيام.. أبيع أمي وأبي والعالم كلّه ولا تتخرّب جلسة المناقشة.

ـ شنو دكتوراه؟!!

انغلق الخطّ. وأراد الخاطف الطويل أن يضرب التلفون بالأرض، رفع يده إلى الأعلى وصار يعصر التلفون ويصكّ على أسنانه. ثم نظر إلى السماء وأطلق تجديفة كبيرة.

بعد ستّة أيام اتّصلا بالإبن الكبير مرّة أخرى، فواجههم بنبرته الكسولة وكأنّه سكران أو استيقض من النوم للتوّ. قالا له بأنّ المهلة قد انتهت. سيقتلان العجوز غداً.

ـ أقتلاه.. لا يعنيني الموضوع.

أغلق الهاتف، ثمّ حين عاودا الاتّصال به لم يفتح الخط، ثمّ على ما يبدو، حظر منير رقم أبيه، حتى لا يتلقّى اتصالات أخرى منه. عاودا الاتّصال بنذير، ولم يردّ عليهما. ثمّ بعد نصف ساعة ردّ برسالة نصّية قصيرة.

ـ سلامي إلى الحجّي، قولو له أن يتّصل بمنير. بالمناسبة أخذت الدكتوراه بدرجة امتياز، أنا الابن الغبي الذي لن يفلح في حياته. قولو ذلك للحجي.

انتهى أسبوع التهديد والوعيد من دون نتيجة. وبدأ العجوز عبد السميع يتداعى، وكلّما نظرا إليه من فتحة الزجاج في النافذة وجداه نائماً أو مستلقياً على ظهره. خشي الخاطف الصغير أن يكون دم هذا العجوز في رقبته، رغم أنّ الموضوع لن يتضمّن دماً، وإنّما أن يدخل عليه بصينية الفطور ويجده يابساً متخشّباً في مكانه، وقد أسلم الروح خلال الليل.

كان البيت الذي جلبا إليه العجوز ليلاً، بيتاً عتيقاً بمساحة مئتي متر معدّاً للهدم في المنطقة السكنية ذاتها التي يقيم فيها العجوز عبد السميع وأولاده. استلفاه من شريك ثالث، لاستعماله مدّة عشرة أيّام حسب الاتّفاق معه، وبعدها يعيدان البيت له كي يقوم بهدمه ونقل الأنقاض منه لتهيئة مساحة البيت لبناء ثلاثة مشتملات صغيرة، كما هو العرف الذي صار سائداً في كثيرٍ من أحياء بغداد بسبب أزمة السكن.

كانا يتوقعان أن تنتهي القصّة كلّها في غضون بضعة أيام، من دون مشاكل كثيرة. إنّها عملية اختطاف أولى سهلة، تشبه التمرين، وكان يفترض أن تكون ناجحة، ولكن ماذا يفعلان الآن؟ الولدان القاسيان يريدان قتل والدهما. وكأنّما كانا يفكّران بذلك من قبل، ولم يجدا حجّة مناسبة للتخلّص من العجوز، وجاء هذان الخاطفان الغبيان ليقدّما لهما حلّاً سحرياً.

سيلقون بجثّة العجوز في الشارع قبيل الفجر، ويتعرّف عليه بعض الناس، وحين يأتي أولاده، سيبكون أمام الناس، ويقولون إنّها فعلة العصابة الإجرامية التي أخذت منهم فدية مقابل حياة العجوز، ولكنّهم من شدّة إجرامهم قتلوه في النهاية.

ـ علينا إطلاق سراح العجوز.. لقد انتهى الوقت.

ـ ولماذا تبدو سعيداً بهذا الموضوع؟ كان عليّ أن أختار فليّح إبن خالتي خديجة بدلاً منك، أبو قلب الرقيق.

ـ سيموت العجوز صدقني. يقول إنّ حبوب الضغط نفدت منه.

ـ لا.. مستحيل أفشل. أنت فاشل أصلاً منذ الولادة. أما أنا فأقتل نفسي ولا أفشل.

ـ 5 ـ

دخلا عليه في مساء اليوم التاسع من الاختطاف، وظلّا واقفين ينظران إليه. كان نائماً أو هكذا بدا لهما، صاحا عليه فلم يرد. اندفع الخاطف الصغير باتجاهه وهزّ كتفه، ففتح العجوز عينيه، ثم نهض. جلس وصار يمسح وجهه، ثم نظر إلى الخاطفين وقال:

ـ أريد أدوات حلاقة.. لازم أحلق لحيتي.

ـ لازم عندك عرضات غداً صباحاً؟

ـ لا تتمسخر.. جيبلي موس التمساح الانكليزي وصابون.

ـ أولادك لا يريدونك حجّي.

ـ كيف هذا؟!

ـ لا يريدون دفع الفدية.

شرح الخاطف الطويل كلّ ما جرى بالتفصيل، وظلّت عينا العجوز عبد السميع تلتمعان، وكأنّه يكتم غيظاً وحزناً في داخله، وبعد أن انتهى الخاطف من سرد الأحداث. علّق العجوز ببرود:

ـ إنّهما يظنان أنّني أمثّل عليهما. يظنّان أنّني وراء قصّة الاختطاف هذه كلّها.

ـ ولكنّنا نحن من خطفك.

علق الخاطف الصغير بغباء على كلام العجوز، فرمقه الأخير بنظرة وكأنّها بصقة، ثمّ أكمل متجاهلاً مقاطعة حديثه. وأوضح كيف أنّ حوادث مشابهة حصلت له مع ابنيه، آخرها شعوره بالمغص وإدعاؤه بأنّه يعاني من مرض ما بكليته، وكيف أنّهم نقلوه إلى المستشفى ليلاً، ثم اتّضح أنّه لا يعاني من أيّ مرض.

ـ كان المغص حقيقياً، والطبيب كذّاباً، أو ليس له مزاج في تلك الليلة.

لم يتجرّأ عبد السميع لسرد الحوادث الأخرى المشابهة التي جعلته يبدو أمام ولديه وكأنّه يتصنّع إثارة الانتباه له. كما أنّه، بسبب التقدّم بالعمر ربّما، كان يجري بشكل منتظم ولا واعٍ عمليات مونتاج في ذاكرته، يقطع ويرمي منها تلك المقاطع التي لا تناسبه، ولا تدعم صورته الذهنية عن نفسه. وغالباً ما تكون هذه المقاطع المحذوفة هي الذكريات الأساسية لدى ولديه، ولربّما لدى أشخاص كثيرين لا يتذكّرهم عبد السميع الآن، مرّوا في حياته، ومرّ بعضهم تحت القبضة القاسية لسلطته التي تعايش

معها وصار هو وإيّاها شيئاً واحداً على مدى ثلاثة عقود، وربّما كان من أوائل أولئك الذين تعامل معهم عبد السميع كعبيد زوجته «عجيبة»، التي تشرّبت روح الجندي داخل جدران بيتها، ما عدا إلقاء التحية العسكرية على زوجها حين يدخل.

كانت تبادره دائماً بالتحية، وكان يردّ عليها بكلمة واحدة من وراء أنفه «هلا». وحتى يوم وفاتها، كانت يداها حين تحلّقت نساء الجيران حول جثّتها، ملطخة بالثوم وعصير الطماطم، لأنّها كانت تعدّ وجبة العشاء لزوجها قبل عودته إلى البيت.

كذلك الأمر مع ولديه، لم ينظر إليهما على أنّهما يمكن أن يكونا في يوم ما امتداداً له. كانا أدنى من توقعاته بكثير. وكان يصف ذكاء ولده الكبير منير بالخبث والإزعاج. أما هدوء وحياء ابنه الثاني فهو غباء مؤكّد وأنوثة. حتى حين صار ولده الكبير تاجراً للأثاث التركيّ، واقترب الثاني من نيل الدكتوراه في الأدب واللغة.

المرض والوهن بسبب الشيخوخة هما من انتصرا عليه، وجعلاه أخفّ وطأة ممّا كان عليه في شبابه ونضجه، ثم كأنّه مع مجيء حفيده «زيد» إلى الدنيا، صار يعيد اكتشاف علاقته مع العالم من جديد، من خلال عيني هذا الطفل البريء، ويحاول تصحيح ما خرّبه مع أولاده، ولا يريد في الوقت نفسه أن يعترف بهذا التخريب.

ـ إجلبا لي حبوب الضغط من الصيدلية، وسأبقى معكم هنا. أنتم أرحم من أولادي.

قال العجوز عبد السميع، وأحنى رأسه إلى الأسفل. كان منظره مؤثراً،

ولكنّ جوابه غير منطقي بالمرّة. كيف يفضل العيش كشخصٍ مختطف مع رجلين ملثّمين لا يعرف شيئاً عنهما؟ إنّ الاختطاف عمل مؤقت، وليس حياةً كاملة.

ـ إذا لم نحصل على العشرة دفاتر لن نطلق سراحك.

قال الخاطف الكبير، من دون أن يكون متأكّداً إلى أين تتّجه هذه الحوارية.

ـ لن تحصل على شيء.. قلت لك.. إنّهما يظنّان أنّني أمثّل وألعب معهم. وبالنسبة لي.. أنا أقول أيضاً.. افعلا ما تشاءان. الحياة صارت بلا طعم عندي. يمكن أن أعيش في هذه الغرفة، أو تكرّما عليّ واقتلاني.

خرج الخاطفان من الغرفة، وصار الكبير منهما يدور في باحة الحوش الواسعة، ولا يعرف ماذا يفعل. أمّا الخاطف الصغير فكانت لديه جملة واحدة تدور في رأسه، كرّرها خلال الأيام الماضية أكثر من مرّة، ويخشى الآن النطق بها، فربّما سيقتله زميله الكبير إن سمعها منه في الحال.

ما لم يخبرهما به العجوز عبد السميع؛ أنّه غير متأكّد ممّا قاله لهما. كانت نبرته واثقة ورزينة، ولكنّه في الحقيقة غير متأكد. لقد لفّق موضوع اللّعب والتمثيل وأنّ أولاده لا يصدّقون بحكاية خطفه، لأنّ كرامته لا تسمح له أن يبدو أمام أناس غرباء وكأنّه شخص مهجور من أولاده، يكرهونه إلى درجة تقبّلهم لموته. هم يأكلون الآن ويتابعون برامج التلفزيون، ويمارسون يومياتهم بشكل اعتيادي، من دون أي شعور بالذنب أو القلق تجاه العجوز الذي هو أبٌ لهم. إنّه وضع مخزٍ، ولا يريد الاعتراف به، حتّى أمام جرذين أغبرين مثل هذين الخاطفين.

عند الفجر دخل الخاطف الكبير لوحده، لم يبد أنّه نام أصلاً. عليه صباح اليوم أن يغادر مع «مشروعه» الفاشل ليخلي البيت للشخص الثالث. ولكنّه لا يريد الاعتراف بالفشل. هو، حسب ادّعائه، لم يفشل في شيء ما بحياته. كيف تجمّعت كلّ هذه الحوادث العجيبة لتجعله يفشل في مهمّة بسيطة مثل خطف عجوز واهن لديه أولاد جبناء يملكون المال؟!

- أستطيع إطلاق سراحك. إن أعطيتني أنت العشرة دفاتر.

- أنا لا أملك هذا المبلغ.

- أعطني كلّ ما لديك.

- ليس في جيبي الآن سوى خردوات.

- اقصد.. ما تملك في بيتك هناك.

ظلّ العجوز ينظر إلى الخاطف الكبير ويتملّى هيأته وكأنّه يمسحه بأشعّة كاشفة. إنّه خاطف سيء الحظّ وغير خبير ومرتبك، وارتباكه يقود هذه المحادثات المتقطّعة مع العجوز إلى مناطق سخيفة ومضحكة.

- وكيف ستضمن أنّني سأعطيك ما تريد؟ سأعود إلى البيت وأنساكم وأنسى هذه الأيّام السود، إن لم أبلّغ الشرطة للبحث عنكم.

- لا تعرف أيّ شيء عنّا. ثمّ إنّك رجل حكيم ووقور، والكلمة عندك لها ثمنها. إن اعطيتني كلمة، سأصدّق أنّك ستنفذ.

أراد العجوز عبد السميع الاستمرار بهذه المحاورة الغبية، مستمتعاً

باقتياد هذا المسكين تحت سوط سلطته الخفيّة إلى مناطق محرجة بالكلام. اللعب بارتباك الخاطف ومخاوفه، والتلمّض بهذا الإحساس الذي يعرفه جيداً، هذا النفوذ على الآخرين، حتى وإن كان من خلال وضع غريب يبدو فيه عبد السميع، مجرّد ضحيّة يرتهن لإرادة أشخاص آخرين. ولكنّ بدنه يطلق إشارات مضادّة. كان خائر القوى، لم يأكل بشكل جيد، ويشعر بأنَّ هناك آلاماً صارت تتنامى في أرجاء جسده. كما أنّه مشتاق لـ«زيّودي»، وربّما استشعر في نفسه رغبة ما للبكاء كلّما مرّت صورته بملامحه الضاحكة على صفحة ذهنه، وخشي أن يموت هنا فجأة من دون فرصة أن يرى حفيده مرّة أخرى.

ـ لدي خمسون ألف دينار في خزانة ملابسي بالبيت، وسأعطيك مئة ألف أخرى حينما أتسلم راتبي التقاعدي عند رأس الشهر.

صفن الخاطف الكبير قليلاً، وحينما شاهد انبلاج صفحة السماء بأضواء النهار الجديد لليوم الحادي عشر من الاختطاف، حسم أمره سريعاً، واعتبر المئة وخمسين ألفاً نوعاً من الانتصار، لم يفشل على أية حال.

ـ ضعْ المبلغ كلّه في كيس واتركه على حافة السياج الحجريّ لبيتك، في الساعة الرابعة فجراً في أول يوم من بداية الشهر القادم.

في السابعة صباحاً كان العجوز عبد السميع في سيارة الكيا منزوعة المقاعد، يجلس بجوار السائق الملثّم. أنزله عند تقاطع شوارع وغادر مسرعاً. نظر عبد السميع حوله، وتعرّف سريعاً على المكان، كان بالقرب من ساحة عنتر. انتظر الباصات الأهلية العاملة على الخطوط الداخلية في المدينة وركب في واحدة منها عائداً إلى حيث حيّه السكني.

نزل عند رأس الشارع، وظلّ واقفاً هناك عدّة دقائق مع آلام تصدر من كلّ أرجاء جسده. لم يفترض أيّ سيناريوهات لما سيقوله لأولاده، أو ما سيحدث له معهما. لم يرغب أن يفكّر بشيء ممّا جرى له. تمنّى لو أنّ هناك سلطة ما عليا تحذف الأيام العشرة الماضية، وتعيده إلى لحظة خروجه من المنزل في تلك الليلة المشؤومة. كان يستسلم في داخله، ويترك سوط سلطته، وشعر في تلك اللحظة بأنّه عجوز بدرجة مبالغ فيها، وكأنّه غادر حياته التي يعرفها منذ زمن بعيد من دون أن يدري، وها هو يستيقظ ليعرف هذه الحقيقة.

نسي الخاطفين، وكلّ الكلام الذي دار أو الوعود التي قطعها لهم. نسي المرق السيّء وطعم الماء غير الصافي الذي ظلّ يشربه على مدى الأيام الماضية، كما أنّه لم يضع في ذاكرته أيّة مساحة لسطل التغوّط. لم يجعله يمرّ على ذهنه أصلاً، وليس هناك أيّة قوّة ستجعله يستحضر أيّة تفصيلة متعلّقة بهذا الوعاء القبيح، أو ما صنعه معه.

تقدّم باتّجاه الزقاق ولم يخط سوى بضعة خطوات حتى تذكّر شيئاً ما. عاد إلى الدكّان عند رأس الشارع واشترى بسكويتاً دائرياً مع بضعة قطع من اللقُم حمراء اللّون. ظلّ يسير وهو محنيّ الرأس ينظر إلى قدميه تظهران أمام عينيه تباعاً بتتابع رخو، وحين وصل إلى باب البيت طرق عليه عدّة طرقات، وانتظر للحظات حتى سمع صوت زيّودي وهو يصيح:

ـ منو؟!

زفر العجوز بارتياح، واستجمع كلّ ما تبقّى من طاقته كي يرفع صوته قائلاً:

ـ زيّودي.. أنا جدّو سميع.

سفر فلسفي

- 1 -

كان «كريم» يظنّ بأنه سيظلّ مسافراً بشكل فلسفي داخل مدينة بغداد، فهي مدينة واسعة بسبعة ملايين ونصف المليون نسمة، مختفياً من أنظار جيرانه وأصدقائه القدامى في حيّ الصدر، يختلط بأناس جدد لم يعرفهم سابقاً، فيستبدل في المدينة نفسها حياةً بأخرى، مثل من يجرب داخل كابينة التبديل في محلّ الملابس، بلوزة أو سترة جديدة. ولكنّ هذا يمكن أن يحدث في رأسه فقط، أمّا الواقع فغير ملزم باتّباع هذه القوانين الغامضة.

كان شاهد عيان على كلّ التداعيات التي حصلت في حيّه بعد 2003، وشاهد رفاق الصبا كيف ينخرطون مع الأحداث، وبعضهم تحوّل من شخص لطيف إلى مجرم، من دون حتى أيّ اعتراف بهذا التحوّل، فالإنكار هو السمة الغالبة على الجميع.

تجادل وتشاحن أكثر من مرّة مع هؤلاء الرفاق، مستفيداً من آصرة الودّ وصداقات الطفولة القديمة، ولكنّه لم يكسب سوى عداوات مؤكّدة، وربما اضافة إسمه على لائحة التصفيات الداخلية للأعداء والمتآمرين، والمشكوك بولائهم.

كانت أخته الكبيرة «أم علاء» هي صاحبة فكرة أن يسافر، حتى تأمن عليه من شرّ هؤلاء الشباب المغرورين بالقوّة، تقودهم رؤى مشوّشة عن الحق والعدالة، ولا يعرفون أنّهم يخوضون في دماء الناس الأبرياء.

حاول كريم تقبّل فكرة السفر، ولكنّه كلّما تقدّم خطوة في هذا المسار يشعر بالرهبة ويستحكم مغص غريب بأحشائه. بعد بضعة أسابيع قرّ قراره بأنّه لن يسافر حتى لو قتلوه في الزقاق أمام بيت أخته الكبيرة. ولكن كيف يتخلّص من إلحاح أخته الخائفة عليه؟!

انبثقت في ذهنه، ذات ليلة، صورة السفر الفلسفيّ، ربّما من تأثيرات قراءته للكتب، وهي هوايته الأساسيّة التي يداوم عليها منذ أن كان مراهقاً.

السفر الفلسفيّ بالنسبة لكريم ليس شيئاً سوى خطّة هروب ثانية، بعد فشله في خطّة الهروب الأولى. بيد إنّها خطّة غير مقنعة وليست حقيقية تماماً، وهذا ما كشفته له الأحداث اللاحقة. أخذ حقيبة سفر متوسّطة الحجم، وخرج من بيت أخته الكبيرة بعد أن ودّعها، وظلّ يتجوّل في الحيّ السكني، عند العصر، متقصّداً أن يراه أكبر عدد ممكن من الناس الذين يعرفونه ويعرفهم. حيّى بعضهم وأخبر الجميع، بتكلّف واضح، أنه مسافر إلى عمّان، ومن هناك سيسافر إلى بلد آخر ربّما.

غادر عند مغيب الشمس بحقيبته إلى شارع فلسطين، إلى معهد الأمل لتعليم الموسيقى، الذي تملكه عمّة صديقه فؤاد محسن. هذه العمّة أغلقت المعهد وسلّمت مفاتيحه إلى ابن أخيها كي يعتني بالمكان، ريثما تتحسّن ظروف البلد وتعاود فتح المعهد لتستقبل الطلبة الذين يرغبون

بتعلم العزف على البيانو الأبيض الكبير في وسط صالة المعهد، أو أيّة آلات أخرى.

وضع كريم حقيبته على سرير في غرفة علوية صغيرة داخل المعهد، وأخبره فؤاد بأنّ عليه أن يكون حذراً ولا يدخله في مشكلة مع عمّته، إن رغب بالاستفادة من المكان أطول فترة ممكنة.

كان قبلها قد حصل على عمل في محلّ للعطور ومستحضرات التجميل في شارع فلسطين نفسه. غيّر تسريحة شعره، وأطلق شاربيه ولحيته، واقتنى قبعة غريبة الشكل، مع نظّارات شمسية وأخرى طبّية من تلك التي تحجب ضرر أشعة شاشة الحاسوب، تنفع كإكسسوارات تساعد في التمويه على الأقلّ للناظر من بعيد. ظلّ مرتبطاً ببضعة أصدقاء قدامى، مثل فؤاد محسن، ولكنّه قلّل بشكل حاسم صلاته مع «عالمه القديم»، ولم يعد يحضر إلى أيٍّ من الأماكن العامّة التي تزداد فيها احتمالات اللقاء بأعداد كبيرة من معارفه أو أصدقائه.

سيمضي أيّامه بشكل شبه سرّي. يقرأ في غرفته العلوية داخل معهد الموسيقى. يقرأ أكبر عدد ممكن من الكتب التي أجّل قراءتها سابقاً. ويمتنع عن مشاهدة التلفزيون، ويمنع نفسه أن تتحمّس للأخبار والأحداث السياسية والأمنيّة التي تشغل غالبية الناس هنا. سيدخل في سفره الفلسفي من دون أن يحدّد سلفاً نهاية معيّنة لهذا السفر، فهو يتوقّع حدوث منعطف ما في المستقبل، كأن تزداد جرأته لتنفيذ هجرة فعلية خارج البلد، ويتجاوز هذه الحالة الغريبة التي تدفعه إلى كآبة عميقة كلّما شعر بواقعية وجدوى السفر. ربّما هاتفٌ ما يبلغه بفرصة عمل في دولة مجاورة تشجّعه على كسر هذا الحاجز الوهمي الذي يقبع خلفه. وحتى ذلك الحين فهو مرتاح لسفره «الفلسفي».

- 2 -

استغرق كريم في عالمه الموازي أشهراً طويلة. يغادر صباحاً معهد الموسيقى ويغلق بابه بإحكام، يفطر عند مطعم قريب ثم يذهب إلى عمله في محلّ العطور والإكسسوارات النسائية. ينفق وقته بالقراءة، وتلبية طلبات الزبائن المتفرّقين الذين يحضرون بين حين وآخر. كان يقاوم أثناء ذلك رغبة قويّة تستولي عليه للاتصال بأخته الكبيرة التي يشتاق إليها، فهي بمثابة أمّه وهي التي اعتنت به منذ طفولته بعد تفرّق العائلة إلى مصائر شتّى. ولكنّه لن يستطيع الاتصال من رقم هاتفٍ محلّي سيكشف لأختّه أنّه ما زال في البلد، ولم يسافر فعلاً.

كان حذراً فلا يضع نفسه في الشارع على الرصيف لوقتٍ طويل. لا أحد يعلم من يكون وراء نوافذ السيارات المارّة، ولربّما رآه أحد معارفه. وظلّ ينفق أغلب وقته ما بين محلّ عمله وغرفة النوم الصغيرة بالطابق الثاني من معهد الموسيقى. وما عدا فؤاد محسن لم يكن يتجاذب الحديث مع أيّ «صديق» آخر على الإطلاق.

وربّما بسبب هذه اليوميات الرتيبة، وشعوره بأنّ سفره الفلسفي قد نجح، وصار كأنّه يعيش في مدينة أخرى، أو مدينة خفية داخل المدينة المعلنة نفسها، تراخى الحذر المعتاد عند كريم بعد بضعة أشهر، وصار يتحرّك بدائرة أوسع بقليل، ويتسكّع في الشوارع غير آبه لمن يتعرّف عليه صدفةً.

ذات نهار صيفيّ كان كريم ينتظر «دريد» في كافتريا الموعد بشارع السعدون، وهي كافتريا من الخارج فقط، أمّا في الداخل فهي حانة صغيرة

من طابقين، تبدو مزدحمة في أوقات ما بعد الظهر، وتستمر بنشاطها حتى مغيب الشمس، حيث يفرّ الجميع من هذا المكان، وأماكن أخرى قليلة مشابهة، إلى بيوتهم قبيل موعد حظر التجوال، أو خشية أن تعترضهم مشاكل خلال الطريق في الليل.

طلب بيرة «أمستل» وظلّ يشرب من العلبة مباشرةً ويأكل من صحن لوز محمص. وبعد أن انتهى منها نظر إلى ساعته وأحسّ بأنّ صديقه تأخّر. لم يرغب بالاتصال به. شعر بخدر خفيف، ليس من البيرة غالباً وإنّما من الجلوس المريح في مكان بارد بعد مسيرٍ متعبٍ على غير هدى لأكثر من ساعتين.

كان يفكّر بطلب علبة ثانية حين ظهر «حاتم مزهر» مع مرافق له ضخم الجثّة لم يستطع التعرّف عليه سريعاً بسبب وقوفه في مجرى نور النهار القادم من الواجهة الزجاجية لهذه الحانة غير الرسميّة.

سلّما عليه بحرارة. وبدا أنّهما رغبا بالجلوس إلى هذا الصديق والجار القديم. لقد بطل سحر السفر الفلسفيّ إذن. ولا يبدو أنّ هناك إمكانية للتهرّب منهما الآن، فهو يعرفهما جيداً، على الأقلّ يعرف حاتم، أمّا رفيقه فهو من صنفه بكلّ تأكيد. وهما آخر شخصين يمكن أن يخطرا على بال كريم للقائهما في هذا المكان. فحاتم إبن مزهر هو جار كريم في مدينة الصدر، بيتهم في ظهر بيت «أم علاء» أخت كريم الكبيرة. يعرفه جيداً، كان عضواً نشطاً في ميليشيا صغيرة، وأثار مشاكل عديدة. لاحقه الأميركان فترة، ثم اصطدم مع مليشيات كبيرة داخل المدينة، وأطلق خلال ذلك كلّه نيراناً كثيرة، بعضها، دون شك، تسبب في مقتل أبرياء و«زملاء مجرمين». إنّ يده التي صافحها كريم الآن ملطّخة بالدم بكلّ تأكيد. وقد هرب كريم،

وأدّعى أنّه مسافر، بسبب حاتم مزهر وأمثاله بالدرجة الأساس، فلماذا يظهر له هنا فجأة، وكأنّه جنيٌّ خرج من علبة الأمستل الفارغة؟!

ـ لقد تغيّر كلّ شيء كرّوم.

كرّوم!.. صيغة تحبّب ستشعر كريم بالغثيان أن كرّرها حاتم كثيراً على لسانه. وهو ما يبدو أنّه سيتحقّق، لأنّ حاتم وصديقه الضخم بدآ يدخّنان، ثم أمسك حاتم بذراع النادل الذي مرّ بجوار الطاولة وطلب لنفسه رُبع عرَق وجاجيك وبيرة لصديقه الضخم، غير أنّ صديقه رفض. أشار بيده له أنّه لا يريد، ولم يفتح فمه بكلمة. مستمرّاً بالتدخين والنظر إلى جلّاس هذه الحانة الصغيرة، متجاهلاً على ما يبدو، الحوار الذي كان يدور بين حاتم وجاره القديم.

ـ أنت مستغرب يا كرّوم!.. لقد تركت كلّ شيء. عِفت السوالف التعبانة واللّه هدانا.

ضحك حاتم ملءَ فمه. وابتسم كريم ابتسامة عريضة، مقلّباً في رأسه هذا الجواب، الذي لا يشرح بشكل كافٍ كيف أنتقل حاتم من اليمين إلى الشمال، من السلاح المليشياوي العقائديّ إلى الجاجيك ورُبع العَرَق. ولكنّ الموضوع كلّه، على أيّة حال، لا يهمّ كريم كثيراً، إنّه يريد التخلص من هذا اللقاء المفروض عليه، ثم يفكّر لاحقاً في ترميم سفره الفلسفي الذي تمّ اختراقه. يقرّر مثلاً عدم المجيء إلى حانة الموعد هذه على الإطلاق، يربّي شارباً ثمانينياً سميكاً، يحلق شعره نمرة صفر، يغيّر من ملامحه بأيّة طريقة كانت.

نظر إلى الرفيق الضخم لحاتم مزهر وشعر بأنّه يعرفه. كان حاتم يستمر

بإطلاق تعليقاته الساخرة من وضعه السابق وكيف كان أحمقاً. سخر من نفسه بشكل جيّد، ولم يتطرّق إلى أيّ شيء له علاقة بالدم، وكأنّه كان عضواً في فريق شعبي لكرة القدم وتزاعل معهم وتركهم.

ـ هل أخذت الطوبة معك؟

ـ أي طوبة؟!

صمت كريم لثواني وهو يستشعر سؤاله الهذياني، ولكنّ الجوّ المرح استمرّ على إيقاعه.

ـ أنت تركت كلّ شيء مثلما يترك أبو الطوبة اللعبة، وياخذ الطوبة معه.

ضحك حاتم بملء فمه مرّة ثانية، وأثار انتباه الجالسين في طاولات مجاورة، وظلّ كريم يتفحّص الرفيق الضخم مليّاً حتّى تعرّف عليه:

ـ أنت سلام.. مو؟

ـ عرفتني أخيراً.

ضحك الشاب الضخم وبانت أسنانه الكبيرة ذات الفراغات البينية الواضحة.

ـ عوفك من سلام هسّه.. انت اللّه جابك.. عندي شغلة زغيرة أريدها منّك.

قال حاتم وهو يعمّر كأساً ثم يشربه دفعة واحدة، مثيراً إعجاب سلام الضخم الذي لا يبدو أنّه قام بمحاولة مشابهة سابقاً.

ـ كنت تكتب خوش كتابات.. تكتب رسائل حب لأصدقائنا من كنّا شباب، وكنت تاخذ فلوس مِنّا. آني ما أعرف أحكي، وخسرت زوجتي

واطفالي لأنّي ما أعرف أحكي. أريدك هسه تكتبلي رسائل قصيرة، مسجات ع الموبايل، أحب وحدة. آني انطيك المواضيع وأنت تكتبلي.

ـ الآن؟! أنا عندي موعد وتأخّرت أصلاً.

ـ لا.. ليس الآن.. وإنما فيما بعد، نلتقي مرة ثانية بغير مكان ونقعد نكتب الرسائل. شغلة تفيدك.

فكر كريم؛ اذا كان اللقاء في هذا المكان بحاتم مزهر هو أمر سيّء جدّاً، فإنّ الأسوأ منه هو تقديم مساعدة لمجرم، حتى لو كان في مسألة رومانسية. أمّا الأسوأ على الإطلاق فهو ترطيب الأجواء وتكوين صداقة مع هذا الرجل وإعادة اللقاء به مرّة أخرى. إنّها عودة بدون حقائب من السفر الافتراضي إلى أرض الجحيم من جديد.

لم يستطع التهرّب من إعطائه رقم هاتفه، ورن حاتم عليه حتى يحفظ رقمه. كتب كريم الاسم على موبايله «حاتم المجرم»، بسبب هيمنة الهاجس الهذياني لمرّة ثانية خلال هذه الجلسة. ثمّ انسحب بهدوء، رافعاً أوراقه وكتبه من الطاولة. قال له بأنّهما سيلتقيان بكلّ تأكيد ويحقّق له ما طلبه. رفع حاتم كأسه المملوءة بالنصف كنوع من تحيّة «أصحاب الصنف»، كما يقول، رغم أنّ كريم ليس من أصحاب الصنف ولم يشرب سوى علبة الأمستل اليتيمة، حتّى صحن المزّة تركه على حاله. ابتسم سلام بوجهه ببراءة طفولية ورفع يده بالتحية أيضاً. تركهما وخرج، واستنشق الهواء وهو يتوقّف على الرصيف كما في مشاهد الأفلام السينمائية. استنشق هواءً عميقاً، وكأنّه استعاد بهذه الحركة سفره الإفتراضي وعاد من أرض بلده الخانقة. استمرّ بالسير باتّجاه الباب الشرقي، وفي عطفة عند مدخل

النفق دخل إلى «مقهى هوبي» وطلب شاياً. أخرج دفتر ملاحظات، وبدأ يسجّل أرقام الهواتف القليلة في موبايله. نقلها كلّها على ورقة الدفتر. فتح موبايله، ودون أن يفكّر كثيراً بهذه الحركة، أخرج الشريحة، كسرها ورماها في بقايا استكان الشاي الذي شربه. خرج ليتوقّف على رصيف الشارع، ويسحب شهيقاً سينمائياً آخر. ها هو يتخلّص من حاتم مزهر الآن، رمزياً على الأقل، أحرقه بشكل طقسي، وكأنّه يمارس سحراً أسود، مع شريحة الموبايل الغاطسة في الشاي الساخن. لينهي لهذا اليوم، هذيانات الزيارة المفاجئة وغير المتوقّعة للجحيم الذي هرب منه.

ـ 3 ـ

كان يأكل السمك مع «دريد» في مطعم اللاذقية بالعرصات حين لمحه جالساً على طاولة بعيدة في زاوية المطعم. لم يكن هو تماماً، استغرق الأمر بضع دقائق من كريم حتّى يتأكد. إنّه هو فعلاً، ولكنّه لا يبدو أحمق وساذجاً كما رآه في حانة الموعد بشارع السعدون قبل بضعة أشهر. إنّه يرتدي ملابس حديثة، ولمح في يده اليسرى ساعة ثقيلة لامعة، تتناسب مع جثّته الضخمة. كان يتحدّث مع النُدل والعاملين في المطعم بأناقة تناسب رجل أعمال، وليس عضواً في مليشيا صغيرة في حيّ فقير. غضّ كريم طرفه وأشاح بوجهه بعيداً حتّى لا يلمحه هو بدوره، واستغرق في الحديث مع صديقه دريد الذي دعاه إلى هذه الوليمة الاستثنائية، بمناسبة التقرير الطبّي الذي كشف له أنّ صحته النفسية سليمة تماماً، وأنّ أعراض الرغبة بالانتحار قادمة من أسباب منطقية وليس بسبب الجنون أو ما شابه. لم يكن كريم متشجّعاً لسماع هذه التفاصيل التي يعرفها جيداً، والتي سينصت إليها

مرّة أخرى بسبب المناسبة الجديدة، ولكنّه يحبّ السمك المشويّ هنا، ولم يستطع المقاومة.

استغرق في الإنصات المزيّف، وانشغل بالسمكة الكبيرة، وصحون المقبّلات المتنوّعة، ثم حين تأكّد أنّ ذلك الشابّ الضخم لم يكن مهتمّاً بالنظر إلى الجهة التي يجلس فيها، وإنّما إلى موبايله والطعام الذي أمامه، شعر بالاسترخاء ثم نسيه تماماً حين وصل صديقه إلى تفاصيل غريبة في حكايته الشخصية مع الموت:

ـ عرفت أنّ المشنوق، إن كان بسبب حكم الإعدام أو الانتحار، يقذف في اللحظات الأخيرة ما قبل خروج الروح.

ـ يقذف ماذا؟!

ـ هاي شبيك؟ من عضوه يعني.. وكأنّه النداء الأخير للحياة، وكأنّه تشبّث الإنسان بآخر وأقوى سلاح عنده بالحياة الزائلة من بين يديه. الجنس هو الـAntibiotic للموت.

ـ اها.. أنا سمعت أنّه يتبرز.. يخرأ على نفسه أو يتبوّل.. أنت تجعل الأمر تراجيدياً ورومانسياً جداً.

ـ لست أنا من يقول هذا.. هذه وقائع.

ـ لا أدري.. ولكن ما يهمّك من الموضوع الآن. لقد تخلّصت تماماً من موضوع الانتحار، وصرت إنساناً جديداً.. أليس كذلك؟

ـ نعم.. صرت إنساناً جديداً مهووساً بالجنس.

ـ هذا أحسن.

استمرّا يتحدّثان حتى انتهت الوجبة، وحين عاد كريم من المغاسل استعداداً لشرب الشاي مع صديقه على طاولة أخرى حصلت المفاجأة، حين صار نظره في وجه سلام الضخم مباشرة. حتى أنّ سلام مدّ يده الملوّثة بدسم الطعام إلى يد كريم المبلّلة وصافحه بحرارة، وكأنّه أكتشف صديقاً حميماً، وخشي كريم أن يحتضنه. ولم يعرف كيف يتصرّف مع هذا المأزق. لابدّ أنّ حاتم مزهر في مكان قريب، ربّما يأتي في أيّة لحظة، ربّما ينادي عليه سلام بالهاتف ويخبره بأنّه يمسك الآن بيد صديقه وجاره القديم الذي تهرّب منه وغيّر شريحة موبايله حتى لا يعثر عليه.

ـ أنا عرفتك من أوّل ما دخلت، بس قلت خلّي يتغدى ويبقى مع صديقه احسن.

قال سلام، كاشفاً عن دهاء غير متوقّع. وقبل أن يترك يده رنّ موبايل سلام فرفعه ونظر إلى شاشته ثمّ أطفأه، ثمّ إلتفت إلى كريم:

ـ أنا محتاجك بشغلة ضرورية.. ما أريد أزعجك مع صديقك هسه.. بس انطيني رقم هاتفك الجديد.

يا اللّه.. لا مفرّ. أعطاه رقم هاتفه، ورنّ عليه، وحين أراد كريم أن يكتب اسم سلام بادره الأخير:

ـ اكتب.. ناظم عوّاد.

ـ ناظم عوّاد منو؟

ـ هذا اسمي الجديد.. إسمي.

ـ وليش غيّرته؟ ليش مو سلام؟

ـ هاي قصّة أحكيها إلك لما نلتقي مرّة ثانية... بس أكيد نلتقي.. اللّه يخليك.

ـ أكيد أكيد.

غادر سلام باتّجاه المغاسل، ثم عاد كريم إلى صديقه ليستأنف الاستماع المزيّف، مع الشاي الساخن، لحكايات صديقه المنتحر السابق. ولكنّ ذهنه كان مشغولاً بشيء آخر؛ «رقم هاتفك الجديد»!.. إذن هو يعرف أنّني غيّرت رقمي.. ناظم عوّاد.. حكاية.. وشغلة ضرورية..

شاهده وهو يخرج من المغاسل وينشّف يديه بمناديل ورقيّة كثيرة، ثمّ يقف عند الكاشير ويرفع يده له من بعيد، للإشارة أنّه دفع ثمن غداء كريم مع صديقه. لم يستطع كريم منعه، لأنّه بعيد نوعاً ما، ولأنّ هذه القضايا تبدو سخيفة بالنسبة لكريم، أن يتسابق الأشخاص من أجل دفع ثمن الغداء، كما أنه معزوم من قبل صديقه، والسباق الاستعراضي أمام الكاشير يجب أن يقوم به صديقه المنتحر وليس هو.

رشف من شايه الساخن، وخطر في باله أن يكرّر طقس السحر الأسود مع الشريحة الجديدة، ولكنه شعر بأنّها حركة سخيفة وغير مجدية الآن. سيتّصل به ويفتح الاتّصال معه ويتحجّج بالانشغال وعدم التفرّغ أو السفر إلى محافظة بعيدة أو أيّ شيء آخر. من الواضح أنّ أشباح حياته السابقة ستظلّ تطارده داخل هذه المدينة، ولا يوجد مفرّ من مواجهتها، إلّا بالسفر الفعلي خارج المدينة والبلد بأسره. كما أنّه يكتشف، مع صديقه المنتحر السابق، وآخرين مثله، أنّه يستبدل قيوداً بأخرى، وليس حياة بحياة أفضل. أنّه مجبر على المجاملات وعلى إنفاق وقت في رسم صورة جيدة عن

نفسه لدى الآخرين. مجبر على شغل حيّز ما داخل بيئة ما، والعمل، مثل موظّف عيّنه القدر هنا، لخدمة هذا الحيّز وخدمة الصورة المأخوذة عنه، فلا مفرّ ولا مهرب إذن.

شعر بالإحباط، وهو ينظر إلى شفاه صديقه المنتحر السابق تتحرك دون أن يسمع شيئاً محدّداً وواضحاً. لقد غاص وعاد إلى منطقة هلاوسه الذاتية. وبالمقارنة مع هذا الصديق الذي تخلّص بضربة حظّ من ثمن الغداء الباهظ، فإنّ كريم هو من كان بحاجة إلى استشارة نفسية جادّة، حتى يعرف الموضع الذي تنبثق منه طاقة الهذيانات النهارية، فيقوم بردمها وإغلاقها بشكل نهائي.

ـ هذا صديقك شنو؟ تاجر لو مقاول؟ شفت السيارة مالته على الرصيف؟

قال المنتحر السابق وهو يستريح على كرسيه وينظر إلى ما وراء الواجهة الزجاجية للمطعم. نظر كريم أيضاً ولم ير شيئاً.

ـ هذا أولاً مو صديقي.

قال كريم ثم أكمل.

ـ وثانياً هو مو تاجر ولا مقاول.. هذا صكّاك.

ـ 4 ـ

أتّصل في اليوم التالي، ولكنّ كريم لم يجرؤ على فتح الاتّصال معه. ترك الهاتف يرنّ، ثم تكرّر الاتّصال مرّة وأخرى في الأيّام التالية، فأغلق كريم هاتفه في نهاية المطاف. هرب ولم يملك الشجاعة لمواجهته كما

كان يأمل مع نفسه. مع هذا فهو لم يختبئ. وهو الحلّ الأمثل للتخلّص من وضع مشابه. ما زال يتسكّع قرب الأماكن نفسها. وها هو يدخل عند العصر إلى كافتريا الإبريق الصيفية على الضفة الثانية من الجامعة المستنصرية. يجلس على أحد المقاعد المصنوعة من خوص النخل ويطلب نارجيلة وشاياً، يخرج قدمه من الحذاء ويتحسس بأصابعه من وراء قماش الجورب برودة الحشائش المرشوشة بالماء قبل افتتاح الكافتريا أبوابها. ينتظر أصدقاءه ويحاول الإنصات إلى أغنية تأتي من مذياع الكافتريا البعيد. لم تمض سوى لحظات ليدخل سلام الضخم الذي غدا إسمه الآن ناظم عوّاد. يقترب بخطوات ثابتة من كريم حتّى يصبح أمامه:

ـ لقد شاهدتك تسير في الشارع فنزلت من السيارة.

ـ أهلاً.. أليس لديك سيارة فخمة؟

ـ ليست لي.. لماذا لم تردّ على اتصالاتي؟

ـ أجلس.. دعني أعزمك على شاي ونارجيلة.

ـ سأجلس.. بس أنا زعلان.. ليش ما ترد على التلفون؟

ـ كنت مشغول أو مسافر إلى محافظة بعيدة.. أو لا أريد الردّ عليك ببساطة.

ـ ما فهمت..!

كانت رؤية سلام كافية لاستيقاظ الهذيانات في رأس كريم من جديد، وهو على شفا أن يتحوّل الآن إلى شخص آخر أكثر جرأة أو حمقاً، ولم يبدُ أنّ سلام يهتمّ لهذا التحوّل في سلوك كريم. كان مستغرقاً مع شأنه الخاصّ

الذي يشغل باله، وعلى استعداد لتقبّل أيّ شيء في سبيله. حتى لو صفعه كريم على وجهه أو داس على رأسه فإنّه لن يهتمّ، إنّه يريد مساعدته الآن. أما كريم فلا يفكّر بسلام الآن وإنّما بحاتم مزهر. سلام مجرّد واجهة أو ذراع أو بوابة توصل إلى حاتم، أو توصل حاتم إليه، وهذا ما لا يرغب به، أمّا سلام نفسه فهو لا يعرف عنه شيئاً. كان تلميذاً معه في مدرسة الظفر الابتدائية في قطاع 38 في حيّه الفقير. وبعد الانتقال إلى المتوسطة فقد أثره، ليظهر في مناسبات متباعدة. يراه واقفاً عند رأس الشارع، أو يركب معه في حافلة واحدة، يرمقه بنظرة بعيدة، ويتحاشى أحدهما الآخر، لا لسببٍ معلوم، وإنّما هكذا هم الناس، يحاولون تقليل صلاتهم مع الماضي، أو لا يرغبون بأن يفرض الماضي نفسه بنفسه، من دون انتقاء أو حرّية اختيار.

ـ كيف هو حال حاتم مزهر؟

ـ لا أدري.

ردّ سلام وهو يجلس على كرسي خوص مقابل كريم. كان مبلّلاً، ولكنّ هذا لم يزعجه. أخرج سجائره وبدأ يدخن.

ـ لا تدخن.. سأطلب لك نارجيلة.

ـ لا أحبّها.

ـ لم تقل لي.. كيف لا تدري.. ألست صديقه المقرب؟

ـ لا.. تخاربنا.. هو شخص سيّء.

ارتاح كريم لهذا التصريح. لن ينقل سلام أيّة معلومة عنه إلى حاتم إذن، ولكن عليه مع ذلك أن لا يقلّل كثيراً من تقدير هذا الرجل. إنّه يبدي في

كلّ لقاء مستوى من الدهاء والفطنة أكثر ممّا يوحي به مظهره الخارجي، أو طريقته في الكلام.

ـ أرجوك ساعدني.. ولا تتهرّب مني. هل أزعجتك. هل آذيتك بشيء؟!

قال سلام بلكنة توسّل واضحة أثّرت في كريم، ولكنّه لم يفهم، مع ذلك، طبيعة المساعدة التي يطلبها منه.

ـ أنا ثريّ وعندي أموال، رغم أنها لا تفيدني كثيراً. ساعدني وسأعطيك أيّ مبلغ تريده.

ـ ماذا تريد بالضبط.. اذا أقدر سأساعدك بكلّ تأكيد.

ـ أنت تقدر.. أريدك أن تكتب لي رسائل مثلما فعلت مع حاتم مزهر والآخرين.

ـ أنا لم اكتب شيئاً. لم أرَ حاتم مزهر من يوم لقائنا في كافتريا الموعد.

ـ إذن لن تراه ثانية.. أنا أعدك بهذا.

ـ كيف؟

أطلق سلام حسرة مديدة تعبيراً عن نفاد صبره.

ـ أرجوك.. إنسَ حاتم مزهر.. خليك معي.. أريدك أن تكتب لي رسالة. أحكي لك القصّة وأنت تكتبها على شكل رسالة. أنا لا أعرف الكتابة وحتّى إذا حكيت ستبدو حكايتي سيئة جداً. أنت بطريقتك تعرف أفضل مني.

ـ أي رسالة؟

ـ أريدك أن تكتب لي رسالة إلى الأمم المتّحدة.

ـ تريد أن تطلب لجوء؟

ـ يا لجوء..عفية خليك معي.. سأحكي لك وأنت أكتب ما أحكيه بشكل رسالة إلى الأمم المتّحدة. أريد الاعتراف بكلّ شيء، وما تقرّره الأمم المتّحدة سأرضى به، حتى أرتاح وأخلص.

ـ 5 ـ

في وقتٍ لم تكن فيه موبايلات أو رسائل الكترونية، كان كريم كاتب رسائل بارعاً. كتب رسالتين ناجحتين لاثنين من أصدقائه في المدرسة الإعدادية، فانتشرت سمعته بسرعة. كان يفعل ذلك بالمجّان في بداية الأمر، لأنه رأى الأمر مسلّياً، كما أنّه يخجل أن يطلب من أصدقائه مبالغ مالية لقاء هذه الخدمة، ولكنّه مع جلوس شباب غرباء أمامه، وتكاثر الطلبات المعقّدة، أحسّ أنّ عليه التعامل مع الموضوع كعمل.

ـ لقد تركتني وتوسلت بها ونجحت في إعادتها لي، حتى أنتقم منها. اكتب لي رسالة انتقام.

ـ أنا أحب اثنين، وكل واحدة لسبب، واليوم اكتشفت الأولى حبي للثانية، أريدك أن تفسّر الأمر لها. لا أريد أن أخسرها ولا أخسر الثانية.

ـ أنا أحبّ امرأة بعمر أمي، وهي ترفض حبّي. أكتب لها وقل لها إنّ العمر غير مهم.

استمرّ الأمر مع كريم مثل موسم، أو عصر ذهبيّ، ثم سرعان ما صار الشباب يتبادلون الرسائل نفسها، يتعاملون معها كمخزن يمكن أعادة تدوير الموادّ الموجودة فيه من دون اللّجوء إلى المصنع في كلّ مرة. ثمّ ظهرت كتب للرسائل الغراميّة في السوق، وصار الموضوع أكثر ابتذالاً،

استعارات من كلمات الأغاني، قصائد من الكتب. كلمات وجمل كاملة من الأفلام، أو حتى من أفواه عاشقين كبار مرّوا بتجارب مماثلة. لم تعد الخدمة التي يقدّمها كريم مميزة، خصوصاً مع تخرّج الجميع من الإعدادية وتفرّق المجتمع الصغير الذي كان يقدّر جيداً هذه الخدمة. غير أنّ هذا لم يمنع بقاء سمعته ككاتب رسائل بارع عند البعض، وسلام صاحب الجثّة الضخمة يتذكر هذا على ما يبدو، وإن بطريقة غير مباشرة. لا يتذكّر كريم أنّه كتب رسالة حب له. وها هو اليوم يطلب منه كتابة رسالة من نوع آخر، رسالة أكثر جدّية، تتضمّن اعترافات غامضة، موجّهة إلى الجهة الخطأ بكلّ تأكيد، فعن أيّ أمم متّحدة يتحدث هذا الساذج؟!

وصل أصدقاء كريم متأخّرين في ذلك اليوم. غابت الشمس تماماً قبل أن يأتي فؤاد وناصر وصديقه دريد صاحب محاولات الانتحار الفاشلة. كان يبدو مرهقاً من الإنصات، على مدى ساعتين ونصف، إلى الاعترافات الغريبة التي أدلى بها سلام الضخم، والتي يريد من كريم أن يصوغها على شكل رسالة موجّهة إلى الأمم المتّحدة.

قال له إن هذه هي أطول فترة يقضيها في مكان واحد. إنّه مطلوب من قبل كثيرين، وربّما يدخلون الآن في أيّة لحظة. المكان مكشوف، وأيّة سيارة دفع رباعي مرتفعة عن الشارع، سترى من وراء السياج الواطئ المصنوع من خوص النخيل، كلّ الموجودين في هذه الكافتريا، وسلام مميّز بجثّته الكبيرة، ويستطيع أعداؤه اصطياده بسهولة. ولكنّ هذا كلّه فداء للفرصة النادرة التي حظي بها اليوم، فليس هناك أحد مؤهّل لسماع اعترافاته، وهو يعرف أنّ كريم مؤهّل لذلك، وأنّه سيساعده. يجب أن يكتب هذه الرسالة مهما كلّف الأمر.

تركه وغادر قبل أن ينهي حكايته الصادمة، التي لا يعرف كريم كمية الصدق والحقيقة فيها، ولكنّه أحس بحشرجات صوت سلام وهو يحدّث، ورأى لمعان عينيه بدموع مقموعة يكبتها بصعوبة. هل هو يمثّل عليه، وهل هو فعلاً يحتاج إلى كتابة هذه الرسالة؟! لم يكن كريم يعرف. لم يكن مؤهّلاً لتلقّي كلّ هذه المعلومات والأسئلة دفعة واحدة. سيحتاج إلى وقت أطول للتحليل ومحاولة الفهم.

ظلّ أصدقاؤه يتحدّثون ويلقون النكات ويطلقون الدخان من نراجيلهم في الهواء، بينما ذهن كريم يستعيد مرّة بعد أخرى جانباً من التفاصيل التي سردها سلام الضخم. إنّه قاتل حقاً. لقد قلّل كريم من أهميّته كمصدر خطر، بالمقارنة مع حاتم مزهر، وحاتم لم يعترف له يوماً، ولا يبدو أنّه مستعد للاعتراف بأيّة جريمة. غير أنّ هذا الشابّ ذا الوجه الطفولي البريء اندلق مثل وعاء كبير على الأرض. إنّه قاتل ومغتصب وسارق وأشياء كثيرة أخرى.

ـ عليك أن تسلّم نفسك للشرطة. هذا أفضل حلّ.

ـ سيقتلونني. يقدّموني إلى حبل المشنقة. أنت لا تفهم.. أنا لا أريد الموت. أنا ولدت من جديد. وأريد أن أحيا.

ـ سافِر إذن، أهرب قبل أن يعثر عليك أهالي الذين قتلتهم.

ـ لن أسافر قبل أن أصل إلى جواب.

ـ سيقتلونك في كلّ الأحوال.. أنت لم تذكر هذه الأشياء أمام أحد آخر؟!

ـ لا.. لك أنت فقط.

ـ لماذا؟ كيف تثق بأنّي لن أذهب إلى الشرطة الآن وأبلّغ عنك.

ـ ما الذي ستخبرهم به؟.. لديّ أسم جديد، ولا تعرف أين أسكن، حتى رقم الموبايل هذا.. اشتريته من بسطة في سوق شعبي. ثمّ أنت لست من هذا النوع، أنت مثل النبي. شخص نظيف وتفهم.

ـ ماذا أفهم؟! أنت قاتل، كيف تريد منّي أن أتعاطف معك؟

ـ أنت قلبك كبير، ستفهم صدّقني، أنا لم أكمل لك القصّة كلّها. كما أنّي لم أعد سلام غضيب. لقد قتلت سلام غضيب. إنّه الشخص رقم 24 من الذين قتلتهم. أنا ناظم عوّاد الآن. شخص جديد. أنا أحدّثك عن شخص صار ماضياً.

ـ إذا صار من الماضي.. لماذا أنت مهتمّ به؟ أنت تقول قتلته.. إذن دعه ينام في قبره بسلام.

ـ انه يلاحقني ولا يتركني. يخنقني خلال النوم، ويجلب معه كلّ الـ23 الآخرين. أريد التخلّص منهم.. وأريدك أن تساعدني بذلك.

ـ 6

أخبر صديقه فؤاد بنصف القصّة التي حصلت بينه وسلام. قال له إنّه شخصٌ من منطقته السكنية، وصار الآن يلاحقه ويزعجه. لم يخبره بأنّه «صكّاك» وقد نفّذ عمليات اغتيال لأكثر من عشرين شخصاً خلال السنوات الماضية كما يزعم. سيصاب فؤاد بالرعب لو سمع هذه التفاصيل.

ـ كلّه بسببك يا كريم.

قال فؤاد، وهو ينظر إلى كريم من كرسيّ البيانو، ويضرب بسبابته على المفاتيح كيفما اتّفق.

ـ أنت قلت تختفي. وتشرع بقراءة منهجية وما إلى ذلك من أشياء، لا أن نلتقي بأصدقاء قدامى، وتتجوّل في المطاعم والكافتريات.

ـ أُصابُ بالضجر.. ماذا أفعل. ليس الأمر سهلاً. العزلة أيضاً تحتاج إلى تمرين، يعني شيئاً فشيئاً.

قال كريم مستشعراً صدق ملاحظة صديقه، ثم أكمل وكأنّه يعتذر:

ـ أنا بالفعل قلّلت لقاءاتي مع الأصدقاء. لم أرَ أحداً سواك منذ خمسة أيّام.

كان يكذب، فهو إلتقى سلام من يومين، ولكنّه قرّر في تلك الجلسة أن يلتزم بوعده، ويخفّف لقاءاته مع أصدقائه أو القيام بأيّ تجوال حرّ. سيذهب إلى عمله في محلّ المستحضرات النسائية، ثمّ يعود إلى مسكنه في معهد الموسيقى.

ظلّ سلام يهاتفه ولا يردّ عليه، وفكّر جدياً باستبدال شريحة الهاتف من جديد، ولكنّه شعر أنّها عملية مرهقة، فماذا لو أنّ سلام التقى به مرّة أخرى، سيأخذ منه رقم هاتفه، ثم يكسر شريحة الهاتف ويلتقي به مرّة أخرى وهكذا. أمرٌ عبثيٌ تماماً. فليتعوّد سلام على عدم الردّ، وربّما سيصاب باليأس لاحقاً.

لكنّ سلام ظهر أمام باب محل عمل كريم. لو كان لمحه قبل دخوله من الباب لربّما اختفى وراء الميز، أو انبطح على الأرض. كان سيفعل أيّ شيء غريب في سبيل أن لا يلمحه. ولكنّه مثل من ينبثق فجأة وسط المحل. كان كريم يقرأ في كتاب في يده ولم ينتبه.

ـ أنت تظنّ أنّني ألعب معك؟!

قال سلام بلهجة لم تخف شعوره بالغضب والانزعاج.

ـ أنا ملاحق من استخبارات الداخلية، ومن أشخاص يطلبون الثأر منّي بسبب قتلي لأقارب لهم.. وأنت تتختّل وتتهرّب منّي.. لماذا؟!

ـ لم أتهرّب.. أنا مشغول.. عندي عمل والتزامات.

ـ هذا مو سبب. سأمرّ عليك بعد نهاية عملك، ونذهب لنتعشّى.

قال سلام ذلك ثم خرج، وكأنّه واثق أنّ كريم لن يغلق المحلّ أو يتّصل بمالكه ليبلّغه بإنه سيغادر مثلاً. يتّصل بالشرطة ويبلّغهم عن هذا الصكّاك الذي يطلب الغفران من الأمم المتّحدة. يغلق المحلّ ويعود إلى مسكنه، حتى لو زعل مالك المحل، فسيعطيه المفاتيح وينهي عمله، ثم يخطّط سريعاً لهروب عاجل إلى محافظة ما ومدينة بعيدة. سيفعل أيّ شيء غير الانتظار البطيء لمقدم سلام.

ولكنّه لم يفعل شيئاً. بقي جالساً في المحلّ، وتشاغل بمراقبة الحركة المتزايدة في الشارع مع مغيب الشمس، ثمّ حلول الليل. دخول نساء وخروجهن. بيع مستحضرات تجميل، وعطور. الذهاب إلى تواليت في مطعم قريب والمجازفة بترك المحلّ من دون حراسة. متابعته دون تركيز لقنوات أفلام على شاشة التلفزيون الموضوعة على حامل معدني في مواجهته.

في تلك اللحظات كان موقف ما يتبلور في ذهن كريم؛ لقد فشل سفره الفلسفي. في الحقيقة لا يوجد شيء اسمه سفر فلسفي. سيعود إلى معهد الموسيقى ويجهّز حقيبته متوسّطة الحجم، ثمّ يعود إلى غرفته في بيت أخته الكبرى، إلى حياته السابقة التي ألفها واعتادها. يتخلّص من أكل المطاعم، والوجبات البسيطة التي يحاول إعدادها لنفسه أحياناً، ويترك نفسه لعناية أخته الحبيبة. إنّه عملٌ عبثي تماماً هذا الذي قام به حتى الآن.

جاء سلام من جديد وأخذ كريم بسيارته المارسيدس السوداء. ظلّت السيارة تسير في الشوارع وتجتاز السيطرات، وحين تستوقفه سيطرة ما يرفع في وجهها بطاقة تعريف لم يعرف كريم ما هي، فما أن ينظر إليها الشرطي أو الجندي حتى يلّوح بيده سامحاً للسيارة أن تمرّ بسرعة. من المؤكّد أنها بطاقة هوية مزيّفة، ربّما لضابط برتبةٍ كبيرة أو شخصيةٍ نافذة يدّعيها سلام.

تعشيّا في الحاتي، ثم جلسا على مقاعد بلاستيكية في مقهى صغير في شارع السعدون، ومع شرب الشاي نظر سلام إلى كريم نظرة حانية لا تناسب سيرته المرعبة ثم قال:

ـ أنا آسف. رفعت صوتي عليك. أعتذر، بس وضعي أنا صعب جداً. وأنت لا تهتمّ لي.

تبادلا العتب، ثم استمرّا بالكلام حول القضية التي تشغل بال سلام، وأيقن كريم أنّ الحلّ الوحيد هو مسايرة هذا الرجل، فحتّى لو هرب إلى مدينة ما في الجنوب، فهذا الصكّاك السمين لديه من الجنون ما يكفي لملاحقته في أيّ مكان يكون فيه، ومن الأفضل إنهاء العمل الذي يطلبه، وبعدها ربّما سيختفي من حياة كريم نهائياً.

ظلّا يثرثران وشربا ثلاثة أو أربعة استكانات شاي، وانتهيا بالكلام إلى اللّه.

ـ أنا لا مشكلة لديّ مع اللّه. لا أظنّ أنّني قمت بعمل سيء.

ـ كيف هذا؟ وقتل البشر أليس عملاً سيئاً؟!

ـ أنت رومانسي جداً. الحياة فيها قتل وكلّ شيء. ولكنّه قتل بالحق.

ـ وكيف تصدّق بأنّك تعرف الحقّ؟ من قال لك أن قتل 24 شخصاً هو حقّ وعدل؟

ـ أنا غير متأكد من واحد بس. هذا دمرني تماماً.

قال سلام ذلك ثم بدا وكأنّه يريد أن يبكي. وشرع يسرد قصة هذا «الواحد» الذي قتله سلام من دون أن يكون متأكّداً هل يستحقّ القتل أم لا، وخلال ثنايا قصّته، وكيف انتظر الضحيّة في الزقاق وضربه برصاصة على إذنه وما إلى ذلك من تفاصيل صادمة، كان كريم معها يشعر أنّه دخل إلى قلب الرعب الذي تركه خلفه أو ظنّ أنّه هرب منه.

تمالك كريم نفسه، ووعد سلام بأن يكتب رسالته إلى الأمم المتّحدة التي طلبها منه.

ـ قلت لك لا مشكلة لي مع اللّه، وإنّما مع هذا العالم. قل لهم أنّني أدافع عن قضية ولست مجرماً، كما أنّي قمت بقتل سلام غضيب بسبب قتله لهذا الواحد.

ـ تقصد قتلته افتراضيا.. فأنت أمامي هنا الآن.

ـ نعم، أنا شخص جديد الآن كما قلت لك.

عادا إلى شارع فلسطين، وكانت هذه الليلة الطويلة مجرّد فرصة ليتأكّد كريم من معلوماته، وليعرف أنّ حدسه عن سلام لم يكن مخطئاً؛ الرجل أحمق ولا يعرف ماذا يقول، إنّه غبيّ كبير، غبيّ وخطر في الوقت نفسه، وهذا يجعل خطورته مضاعفة. سيكتب على حاسوبه المحمول رسالة طويلة يسرد فيها كلّ الجرائم التي ارتكبها سلام، ولكن على وفق المنظور

الذي يفسّر به هذه الجرائم، مثبّتاً كلّ قناعات سلام، وطلبه أن تتفهّم الأمم المتّحدة وجهة نظره، ومن ثمّ تقوم الأمم المتّحدة بإفهام العالم بالنيابة عنه.

أصرّ سلام أن يوصل كريم إلى باب بيته. طلب منه أن ينزله أمام محلّ كبير للتسوّق لأنّه بحاجة إلى بعض الأشياء، ولكنّ سلام قال بأنّه سينتظره.

ـ ما الذي تخاف منه؟ بعد أن تكتب ليَ الرسالة لن ترى وجهي مرّة أخرى. أعدك بذلك. الأمر منذ البداية بسيط ولكنّك بقيت تتهرّب منّي.

شعر كريم بأنّ سلام يقول الصدق. وتركه ينزله في نهاية المطاف أمام باب معهد الموسيقى، ثم رحل.

بعد يومين جاء سلام إلى معهد الموسيقى. لم يستطع كريم منعه من الدخول، ووقف بجوار البيانو الأبيض ثم تسلّم الرسالة الموجهة إلى الأمم المتّحدة، وكانت من سبع صفحات. قرأها سلام بحماس، ثمّ حين أنهاها هتف جذلاً وفرحاً:

ـ واللّه نفس الكلام اللي بقلبي.

ـ والآن ماذا سنفعل؟

ـ الآن أرسلها أنت إلى الأمم المتّحدة وإلى كلّ مكان.

ردّ سلام، ولكنّ كريم تخوّف من هذا الأمر.

ـ سأعطيك الرسالة على فلاش ميموري وأنت تصرّف بها أرجوك.. لا أريد أن تصدر الرسالة من بريدي الشخصي.

تجادلا عدّة دقائق، ثم استسلم سلام لإصرار كريم على موقفه. أخذ منه الفلاش ميموري، وصافحه بحرارة، ثمّ غادر.

بعد دقائق كان كريم يستعدّ لإغلاق المعهد كي يذهب إلى عمله وقبل أن يخرج اكتشف ظرفاً ورقياً على حافة البيانو الأبيض، وحين قلبه اكتشف أنه يحوي مبلغاً كبيراً من المال.

ـ 7

اختفى سلام من حياة كريم، أو هكذا ظنّ لأوّل وهلة. مضى أسبوع منذ أن سلّمه كريم رسالته المزعومة إلى الأمم المتّحدة. واستغرق كريم في يومياته التي خطّط لها؛ عمله وقراءاته. مع لقاءات بين حين وآخر مع فؤاد محسن في الصالة بالطابق الأرضي من المعهد. ولربّما ذهب معه إلى وجبة عشاء أو لشرب شاي في مقهى بين حين وآخر.

كان من الممكن أن تمضي الأمور بهذا الإيقاع لولا ظهور سلام من جديد أمام باب المعهد الموسيقي بوجهٍ كلّه غمّ.

ـ لقد أرسلت الرسالة إلى الأمم المتّحدة. استطعت العثور على ايميلات خاصّة بها. ونشرتها في بعض المواقع.

ـ هذا شيء جيد. أليست هذه رغبتك؟

جلس سلام على كرسي البيانو الأبيض وهتف وهو يهزّ يديه في الهواء.

ـ ليس شيئاً جيداً أبداً. لم تردّ الأمم المتّحدة بشيء، كما أنّ الأعضاء في المدوّنات التي نشرت فيها الرسالة قالوا عنها أنّها قصّة جيّدة.

لم يفهم كريم ما المشكلة، وظلّ سلام يسهب في الكلام لتوضيح فكرته:

ـ قصّة.. قصّة يعني أدب.. سالفة.. مو رسالة حقيقيّة.

لم يكن سلام ساذجاً جداً في نهاية المطاف، لقد فهم شيئاً جديداً، ولكن كيف سيوضّح كريم له أنّ النصّ، أيّ نصٍّ كان، يحوّل الوقائع. كلّ شيء حدث في الواقع يغدو خيالياً أو تابعاً للخيال وتحت سلطته حين يدخل في اللغة. وكريم لن يتجرّأ أبداً في محاولة شرح هذه الفكرة المعقّدة لسلام.

ـ عليك أن تظهر في التلفزيون، وتروي الأشياء التي قمت بها، وآراءك وأفكارك أمام الجمهور، حينها سيصدّقون بها.

ـ ولكنّي لا أستطيع ذلك، سيلقون القبض عليّ.

كانت الدوّامة ترتدّ من جديد لتحيط بكريم من كلّ ناحية. والسبب الوحيد الذي يجعله غير قادر على الإفلات منها هو خوفه من هذا الرجل. فهو كان يحتفظ بمسدسٍ تحت سترته محشوراً بحزامه، والذي يقتل 23 شخصاً لأسباب تبدو غير مقنعة لكريم يستطيع أن يجعل العدد 24 شخصاً في هذه الساعة.

ولكن الدوّامة وسلطة الهذيان التي أراد مغادرتها حينما كان يعيش في حيّه السكنيّ الواقع تحت أشباه سلام وسيطرتهم، استحكمت منه في تلك اللحظة. كان يريد الفرار من الشخصيّة الانتحارية التي كان عليها، والتي خلقت له مشكلات مع أخته وزوجها، والتي تدفعه إلى حافة الصدام مع المجموعات المسلحة، ولكن ماذا يفعل والظروف التي هرب منها لاحقته حتى هنا.

ـ سلام.. هذا اللي أقدر عليه.. واذا لم تخرج الآن فوراً.. سأتّصل بالشرطة.

قال كريم بصوت مرتجف، وشاهد التماعة الدهشة في عيني سلام.

ـ هيجي صارت؟

ـ إي.. يلّله.. أريد أطلع وأغلق المكان.

وعلى غير ما توقّع لم تكن ردّة فعل سلام عنيفة، وإنّما بدا مخذولاً، ويشبه هيأته التي عرفها كريم عنه أيّام ما كانوا شباباً صغاراً وأكثر براءة ممّا هم عليه الآن.

مسح سلام ذراعي سترته وكأنّه ينفض تراباً، ثم رما حسرة ونهض مغادراً الصالة بهدوء، وحين وصل إلى الباب الداخلي المُطلّ على الفسحة الصغيرة في مدخل المعهد، التفت وقال مخاطباً كريم بحنجرة مرتجّة:

ـ آني تعاملت معك كصديق، بس أنت من زمان ما تحبني.

تمشّى سلام حتى سيارته المارسيدس السوداء التي رصفها عند الشارع أمام المعهد، وما أن فتح باب السيارة حتى ركض ثلاثة شبّان من الجهة المقابلة من الشارع، يبدو أنّهم كانوا يترصّدونه، وشهروا مسدساتهم في الهواء، وحين انتبه لهم سلام وحاول القيام بردّ مناسب كانوا قد امطروه بوابل من الرصاص.

سمع كريم أصوات الإطلاقات النارية، وظنّ لأوّل وهلة أنّ سلام صار يطلق النيران في الهواء بسبب غضبه من كريم أو لأيّ سبب آخر، ولكنّه لم يكن بحاجة أن يكون خبيراً ليعرف أنّها إطلاقات من عدّة أسلحة وليست سلاحاً واحداً.

خرج بحذر، ونظر إلى ما وراء الباب الخارجي. شاهد رأس وذراع سلام اليمنى تظهر من وراء بدن السيارة السوداء التي تكسّر زجاجها. كان

منطرحاً على ظهره ووجهه إلى الأعلى. ولم ينتبه كريم إلى أيّة دماء في المشهد من هذه المسافة.

عاد سريعاً وصعد إلى غرفته، ورتّب أشياءه على عجل في حقيبته متوسّطة الحجم. ثمّ نزل سريعاً، وأغلق باب المعهد، وظلّ يمشي بمحاذاة المحالّ التجاريّة من دون أن ينظر جانبيّاً ليرى ما حصل مع جثّة سلام. ربما تجمّع بعض الأشخاص بجوارها الآن.

ظلّ كريم يسير بخطوات بدت متسارعة، ثمّ انتبه لنفسه فأبطأ من مسيره. أخرج هاتفه المحمول واتّصل بفؤاد محسن ليبلغه أنّه ترك المعهد وسيعود إلى بيته في حيّه السكني القديم. لم يترك لفؤاد فرصة استجوابه ومحاولة فهم هذا القرار المفاجئ. قال له بأنّه سيشرح له فيما بعد وأغلق الاتّصال.

كانت صورة ما تطرق على رأسه ولا يستطيع إبعادها؛ لقد صار المقتولون 24 في النهاية. المقتل الافتراضي لسلام صار واقعاً. ومع هذه الصورة كان شعور ما بالارتياح يغمر كريم. لم يشعر بالأسف ولا الحزن لمقتل هذا الرجل الذي حاول التعامل معه بصداقة ومودّة قدر الإمكان ولجأ إليه لطلب المساعدة. كانت هناك دفقة من الحرّية تسري في بدن كريم وكأنّ نسبة الأوكسجين قد زادت فجأة في الهواء الملوّث بالغبار وعوادم السيارات. وبعد أقل من ساعة حين دخل إلى منزل أخته واحتضنته متفاجئة، وكأنّه عائد من سفر فعلي. شعر بأنّه كان مخطئاً منذ البداية. لا يوجد شيء هنا يستحق المغادرة. لم يكن مؤهّلاً في تلك اللّحظة للانتباه إلى مفارقة أنّ الأوضاع كانت على حالها، ولربّما كانت أسوأ في بعض الجوانب.

انطرح على سريره في غرفته العلوية ببيت أخته. أخذ بضعة دقائق

يتأمّل السقف ويحاول أن يجعل تنفّسه منتظماً، ثم خطف كتاباً من حقيبته وشرع في القراءة، وكأنّ سفره الفلسفي كان إفتراضياً جدّاً ولم يقم به في الحقيقة إلّا في أروقة عقله. ألزم نفسه بهذه القراءة حوالي نصف ساعة، ولكنّه اكتشف بعدها أنّه لم يفهم شيئاً ممّا يقرأ، وأنّ شعور الارتياح الذي غزاه خلال النهار صار يتبدّد، مخلياً المكان لشعور آخر، أكثر ثقلاً وسواداً. انبثقت أمامه صورة سلام الواقف عند باب المعهد الموسيقي، وهو يرمي كلماته المخذولة الأخيرة. أغلق كريم عينيه وفتحهما أكثر من مرّة، ولكنّ صورة سلام أمام ناظريه ظلّت ثابتة لم تتغيّر.

الشهرزاديون

هذه الحكاية التي سردها ساهر آل رشيد في ليلة واحدة، متأسّياً بسنّة أسلافه من الحكّائين، رغم الفأل السيء المنذر بالموت في سرد الحكاية، إلّا أنّ السامعين لا ذنب عليهم.

هناك، في الدرابين الضيقة لمحلّة صبابيغ الآل، والتي تعود بجذورها إلى محلّة المأمونية في بغداد العصر العباسي المتأخّر كانت العوائل ذات البيوت المتلاصقة، تتكاتف فيما بينها في المحن، وتنسى الاختلافات الموجودة حين يجدّ خطبٌ ما، وعلى مدى قرون طويلة مرّت على هذه المحلّة، تراكمت عشرات القصص العجيبة التي لم يحفظها أحد، وذهبت مع فناء أصحابها، وربّما عبرت بضعة قصص إلى جيلين أو ثلاثة، ثمّ مع الجيل الرابع صارت القصّة أكثر انحرافاً عن أصلها، ومنها تلك القصص التي كانت تتحدّث عن أصل عائلة رشيد، وقصص أخرى لا يستطيع أحدٌ ما، هذا اليوم، أن يتحقّق من صدقها، أو نسبة المختلَق فيها، مهما بذل من جهد مخلص.

أكثر القصص إثارة تلك التي تتعلّق بتداخل العوائل، من دون قصد، خلال الكوارث والنوائب التي تمرّ بين زمن وآخر، مثل وباء الطاعون الذي اجتاح بغداد أكثر من مرّة، أو تناوب الغزوات، من تتر ومغول ثم ترك وفرس، والمذابح الشنيعة التي كانت تحصل إبّان ذلك.

واحدة من هذه القصص التي بقيت متداولة بين أفراد عائلة رشيد تحكي عن فناء العائلة بكاملها بسبب الطاعون، ما سوى صبيّ صغير كان يعي ما يجري حوله، لكن عائلة مسيحيّة من الجيران اصطحبته معها في فرارها من بغداد، حتى انتهى الوباء، وبقي الصبي مع العائلة وكأنّه طفلٌ متبنّى، ثمّ حين بلغ واستطاع القيام بشؤونه وإدارة أملاكه، تزوّج من بنت من هذه العائلة النصرانية، وزعم كثيرون أنّه صار نصرانياً، ولكنّه ظلّ يخفي عقيدته، خوفاً من الناس.

هذا الجدّ البعيد، لم يكن وحده الذي مرّ بتجربة من هذا النوع، فتعرّض الكثير من أحفاده إلى تحوّلات عديدة وانتقالات عجيبة، نُسيت واندرست في غالبها وبقي البعض منها كأحاديث شائعة، ليس بين أبناء عائلة رشيد فقط، وإنّما كقصص شعبية تتداولها الكثير من الألسن بين الأزقّة والأحياء القديمة لبغداد، ومنها أنّ عائلة رشيد تنتسب إلى البيت العباسي، وأنّ جدّهم الأعلى كان خليفة المسلمين ويجلس على كرسيّ حكم العالم القديم.

المؤكّد في كلّ ذلك أنّ دماء سكّان صبابيغ الآل، الذي تعاقب عليه وافدون جدد في كلّ حقبة، كانت تنتقل إلى شرايين عائلة رشيد، ويتمّ تطعيم صفات هذه العائلة بخصائص جديدة ومختلفة بشكل مستمرّ. وفي كلّ ذلك كان الأحفاد والأبناء قادرين على الاحتفاظ بقصّة متماسكة عن أسلافهم، وعن تقدّم العائلة بالزمن، منذ العصر العباسي المتأخّر وحتّى يومنا هذا.

يتذكّر ساهر آل رشيد، المهندس المعماريّ ذو الأربعين عاماً، هذه الحكايات جيداً. لم تكن عائلته بارعة في شيء أكثر من سرد الحكايات.

كان يتصوّر أنّها صفة مرتبطة بالجدّات، لما كانت عليه حكايات جدّته «مهديّة» من براعة وسحر، ولكنّه عرف فيما بعد أن هناك جدّاً من ثلاثة أو أربعة أجيال سابقة كان «قصّخوناً» معروفاً في حي صبابيغ الآل والأحياء المجاورة، حتّى أنّه في ليالي شهر رمضان يستجيب لدعوات مقاهٍ شعبية في محلّة الهيتاويين والقطرخانة القريبة، ويبقى يسرد الحكايات العجيبة هناك على مسامع الناس حتى وقت السحور، وأحياناً مقابل مال أو هدايا.

وليس غريباً بالنسبة له أنّ والده ورث موهبة الحكي هذه ليغدو روائياً وكاتب قصص معروفاً، وأصدر عدّة أعمال أثارت بعض الانتباه، رغم خيبة مؤلّفها وتبرّمه وشكواه من المحسوبية والعلاقات الشخصية التي تدفع هذا الناقد أو تلك الجريدة لنشر مديح عن رواياته القليلة.

بعد سنوات توقّف ابراهيم رشيد عن الكتابة في حركة احتجاج شخصية، عزاها إلى ضغط السلطة ومطالبتها للكتّاب أن يكتبوا عن الحرب أو الانتصارات المزعومة للنظام، وهو يربأ بنفسه عن القيام بشيء من هذا النوع، فهو يكتب للمتعة، وليس لهدف آخر. ولكن زوجته نور الفيصل كانت تقول بأنّه يعاقب نفسه لا أكثر، فهو كما تروي لابنها أحياناً حين يداهمها باسئلته، تخلّى عن هدف الحكي الأصلي وصار يطلب الشهرة، وحين عرف مضارّ هذا العمل عاقب نفسه بالصوم عن الكتابة وسرد الحكايات.

ـ وما هدف الحكي الأصلي؟

سأل الابن، فمسحت الأمّ على شفتيها وكأنّها تستجمع أفكارها، ثم قالت:

ـ أن يدفع الموت بعيداً.

لم يكن ساهر مهتمّاً بالحكايات إلّا بقدر ما يهتمّ لها مستمع أو قارئ هاوٍ، ورغم أنّه يختزن الكثير منها، بحكم الأمر الواقع، وعيشه لسنوات طويلة داخل بيت يزخر بالحكايات، إلّا أنّه لم يتجرّأ ليختلق واحدة. كان يرى سرد الحكايات دلالة على ضعف الدماغ. فهكذا كان يفعل الإنسان البدائيّ الذي لم يصل إلى التجريدات المعرفية المهمّة، ينقل كلّ شيء بصور كلاميّة وحكايات. لكنّ العقل الإنساني تطوّر، خصوصاً مع اختراع الرياضيات والهندسة، وصارت بضعة خطوط وأرقام تختصر حكايات كبرى. مثل معادلة أنشتاين: حاصل ضرب الكتلة في مربّع سرعة الضوء يساوي طاقته.

عالمنا الحديث في أساسه قائم على بضعة أشياء منها معادلة أنشتاين هذه، وليست حكايات الجدات والأمّهات والآباء الذين يطمحون للشهرة من خلال تأليف القصص ويفشلون في ذلك. وساهر لا يريد أن يكون جزءاً من هذه القصّة المحزنة، وإنّما أن يركب في قطار أنشتاين المسرع.

كان والده، خصوصاً بعد تقاعده من التدريس في الجامعة، مستعدّاً لإنفاق ساعات يشرح فيها أهمّية الحكايات، وكيف أنّ عالمنا كلّه، ليس عالم أنشتاين الحديث وعالم القطارات المسرعة والإلكترونيات المبهرة وغزو الفضاء فحسب، لا يمكن أن نفهمه إلّا من خلال حكاية.

ـ في البدء كانت هناك حكاية، وليس جملة شعرية، ولا معادلة رياضية.

ـ في البدء نعم، ولكن البشرية غادرت البدايات من زمن بعيد.

ـ البشرية تكرّر نفسها، عبر إعادة سرد مستمرّة، الحكاية تتعدّل وتتغيّر خلال ذلك ولكنّها تبقى الحكاية ذاتها.

لم يكن ساهر قادراً على الانتصار على والده في مناقشات من هذا النوع، ليس لغياب الحجّة، وإنّما لضعف الحماسة. والده يمكن أن يسهر حتّى الصباح للدفاع عن وجهة نظره، وأفضل وسيلة بالنسبة لساهر لإنهاء هذا النقاش هي تصنّع وافتعال تصديقه لكلام والده، وانتظار ابتسامة ارتياح على وجهه تدلّ على أنّه صدّق بمكر ابنه.

يعرف ساهر جيداً أنّه الحفيد الوحيد المتبقّي اليوم مع عائلة رشيد. ربّما لأنّ العائلة، وعلى خلاف الامتزاج والتداخل الذي طبع الأصول القديمة للعائلة، قد تبنّت قبل بضعة عقود موقفاً غريباً، دفعها للتقوقع والانغلاق، فصارت تتزاوج داخلياً، وكان لأحد الأعمام البعيدين أن دخل في موقف غريب، حيث وجد نفسه، وهو الصبيّ، مجبراً على الزواج بإبنة عمّه ذات الخامسة والثلاثين.

ظلّت العائلة تصرّ على الزيجات الداخلية، وكان التفسير الشائع أنّ الأمر متعلّق ببقاء الأملاك والعقارات والوقفيات من دون تقسيم، ولم ينتبه أحدٌ أنّ العائلة كانت خلال ذلك كلّه تنقرض تدريجياً، وانتهت السلالة إلى الشاب ساهر إبراهيم آل رشيد وإبنة عمّه لبنى حيدر آل رشيد.

هذا الانغلاق ونسيان سيرة التلاقح مع العوائل الأخرى هو ما سيؤدي إلى انقراض هذه العائلة العريقة، حسب قناعة ساهر. وكان قد حدّث والده أكثر من مرّة برأيه هذا، غير أنّ والده الأديب والروائي المعروف والأستاذ الجامعي، قلّل من مخاوف ساهر، وظلّ متلفّعاً بإيمان غريب أنّ العائلة ستستمرّ بالزمن وتزدهر.

كان ساهر قادراً على تفهّم مواقف أسلافه القريبين الذين تبنّوا الانغلاق

والزيجات الداخلية، ولكنّه لم يفهم كيف أنّ والده الروائي والأديب ذا الأنفاس اليسارية، والذي تزوّج زميلته في الجامعة، يجبره اليوم على الزواج من ابنة عمّه.

كانت لبنى صبية ضامرة، تعاني من جملة أمراض، ولم يكن ساهر مهتمّاً بها بأيّ شكل من الأشكال، ولم يعرف خلال لقاءاته القليلة بها موقفها من هذه الزيجة، غير أنّها بدت مستسلمة. أراد أن يسألها أكثر من مرّة؛ لماذا عليهما أن يديما استمرار السلالة بهذه الطريقة. هل سيتهدّم العالم لو نُسي آل رشيد مثلما نسيت الكثير من العوائل عبر التاريخ؟

غير أنّه كان يعرف أنّ لبنى ستنقل كلامه إلى عائلتها، وربّما يتّخذون موقفاً يخالف رغبات والده، ما يدخله في حرجٍ معه. ما هو الشيء المميّز في هذه العائلة، الذي يدفع الأديب إبراهيم رشيد للحفاظ عليها، بدل أن يهتمّ بخلوده الشخصيّ كأديب مثلاً. ولماذا لم يفكّر بسعادة ابنه كهدف محترم يتماشى مع قيم العصر؟!

كان الأخوان العجوزان مصرّين على هذه الزيجة، وكان ساهر صغيراً وخاضعاً بدرجة ما لمسؤولية الحفاظ على إرث العائلة وأملاكها، لذلك ما أن تخرّج من كلّية الهندسة في عام 1994 حتى اقترن بلبنى، وعاشا في بيت العائلة فترة من الزمن. ثم إنتقلا إلى بيت مؤجر في حيّ المنصور، وتنقّلا خلال عشر سنوات بين بيوت عدّة. لم يكن مرتّبه كموظف في وزارة الاسكان والتعمير يساعده، خلال فترة التسعينيات، على العيش بشكل مناسب، ولكنّه مع زوجته كانا يستفيدان من المساعدات المالية التي تقدمها العائلتان باعتبار الزوجين هما الرأس المستدقّ لغصن العائلة ووريثيها الوحيدين.

كان على الغصن أن يزهر ويثمر. ولكن مرّت خمس سنوات من دون نتيجة واضحة. لم يكن ساهر مهتمّاً كثيراً بهذا الموضوع، وربّما رغب أن يبقى خفيفاً بدون أعباء ريثما يتحسّن حال البلد، ولكنّ العائلتين كانتا أكثر إصراراً، وانتقل هذا الإصرار إلى زوجته أيضاً، وبسبب تكرار موضوع الحمل في الكلام مرّات عديدة، حصلت مشادّة بين الزوجين، وغادرت لبنى زعلانة إلى أهلها.

في النهاية، وبعد شدّ نفسي طويل حصل الحمل المنتظر. سيأتي وريث عائلة رشيد الأوّل، لكنّ الحمل تعثّر، بسبب البنية الجسدية غير المناسبة للُبنى، وأسقطت في شهرها الثاني. وحتّى عام 2001 حملت وأسقطت لبنى مرتين، وفي الحمل الثالث، قال لها الطبيب بوضوح أنّ نمو الطفل في بطنها سيؤثر عليها سلبياً. إنّه خطر على حياتها.

تعارك ساهر معها. هو صار يحبّها، كانت تهتمّ به، وبإخلاص عجيب لتقليد عائلي، كانت تروي على مسامعه حكايات مثيرة، تذكّره بألف ليلة وليلة والقصص العديدة التي سمعها من جدتهما المشتركة مهديّة، ومن والدته نور الفيصل. تفعل ذلك كلّ ليلة تقريباً، داخل غرفة النوم المعتمة، وقبل أن يمارسا الجنس. كان يقطع سرد حكايتها بقبلة حامية وطويلة على شفتيها.

ظلّت لبنى مصرّة على إبقاء الحمل مهما كلّف الأمر، وأيّدها أهلها ووالدا ساهر في هذا الأمر، بَدَوا جميعاً وكأنّهم في مغامرة خطرة ستؤدّي إلى موت لبنى دون شكّ. كلّ ذلك في سبيل الوريث المزعوم. وكأنّه أهمّ من حياة لبنى وحياة ساهر معها.

ولدت لبنى ولداً، وكانت العائلة قد اختارت اسم «رشيد» له مسبّقاً، ولكنّ مضاعفات الولادة والنزف الكثير الذي عانت منه لبنى أدّى إلى وفاتها، ثم لم يصمد «رشيد» الطفل طويلاً في غرفة العناية بالخدّج، ومات بعد أُسبوع من موت والدته.

أصيب ساهر بنكسة كبيرة، وبسرعة تطوّر في داخله موقف كراهيّة لأهله وأهل زوجته. كان الجميع مثله منكوبين بالخسارة الفادحة غير المتوقّعة. لكنّ ساهر أبلغهم أنّهم من قتلوا زوجته، وأنّهم كانوا يعرفون حجم المجازفة.

أدّت هذه الخسارة والأثر الذي خلّفته في نفس ساهر إلى قطيعة مع عائلته. ظلّ يعيش وحيداً، محاطاً بشبح زوجته الذي يفاجئه في كلّ مكان. ثم اكتشف ذات يوم أنّه صار يكره لبنى. لقد خذلته. فضّلت أن تكون وفيّة لرغبات العائلتين، ولم تكن وفيّة له هو نفسه. كانت جندياً مخلصاً داخل حكاية ينسجها أبوه وأمّه وعمّه وزوجة عمّه. وهو تخيّل أنّهما معاً، ساهر ولبنى، يمثّلان حكاية جديدة منفصلة، وليسا مجرّد مفردتين في حكايات الآخرين.

لقد فضّلت الولد المنتظر عليه. جازفت بحياتها معه من أجل الولد، الذي كان يخبرها مراراً بأنّه لا يريده أصلاً، يريدها هي.

لقد خانته وتركته، لم تراعِ مشاعره أبداً، لذلك صار يكرهها، ولهذا السبب ترك المنزل الذي كان يقيم فيه مع لبنى، وتخلّى حتّى عن أثاثه واشترى شقّة في مجمّع الصالحية.

بعد الحرب والاضطرابات التي حصلت في بغداد ما بعد نيسان 2003،

تعرّض لعدّة عمليات ابتزاز، وتهديد بالمغادرة من شقّته، ولكنّه استطاع الاستعانة ببعض أصدقائه ممّن غدا لهم نفوذ في الوضع الجديد، وظلّ مُصرّاً على مقاومة فكرة المغادرة، حتّى مع إلحاح والده أن يعود إليهم في محلّة صبابيغ الآل، ورجائه أن يصلحوا الخلافات التي حصلت بينهم، وعليه أن لا يشكّ للحظة أنّهم يحبّونه ويريدون له السعادة.

كانت سعاداته قصيرة في واقع الحال. ليس هناك أمام كلّ هذه الصور الكابية والحزينة، وتلك المزعجة للخراب الذي حلّ بالبلد، من منفذ للسعادة بالنسبة له إلّا أن يكون بين أحضان إمرأة مثيرة، قادرة على أن تجذبه باتجاهها، فيعبر أيّ عوائق موجودة ليحظى بها في النهاية.

مرّت على حضنه نساءٌ عديدات، وحين يستعيد صورهنّ في ذاكرته، يجدُ أنّ هناك شيئاً مشتركاً بينهن. فإن كنّ نساءً عابرات أو أكثر رسوخاً ويملكن تأثيراً قوياً، فهنّ ينظرن، في الغالب، إلى البعيد. إلى أبعد من مربّع السرير الذي يجمعهنّ مع ساهر. وكان ساهر يعرف أنّه في نقطة ما من هذا البعيد يكمن جنين ما، ولدٌ يغدو أهمّ من ساهر نفسه لاحقاً، ويستهلك أغلب وقت الحبيبة التي ستصبح أمّاً، ليصبح خلاصة حياتها. وهذه الصورة تذكّره مباشرة بلُبنى ومصيرها الكابي.

كان قد انتهى إلى صورة شبه ثابتة مع النساء. لا يريد من امرأة ما، حتى لو كانت ملكة جمال العالم، أكثر من ليلة واحدة، ثمّ يفترقان بعدها بشكل نهائي. وكم كان يزعجه أن يصادف واحدة من عشيقاته السابقات في مكان ما. فهو يتخيّل مع نفسه أنّه أجهز عليهنّ. أطلق عليهنّ رصاصة الغياب وهنّ عرايا في السرير. وما ظهورهنّ لاحقاً إلّا تخريب لهذه النهاية الحاسمة.

لم يكن الوضع من حوله، ولا نطاق حركته المحدودة داخل مدينة كانت تسقط في فوضى قتل وارتباك أمني متزايد، يتيحان له رفاهية انتقاء نساء ينام معهنّ لليلة واحدة. لذلك بقيت هذه الفرص شبه نادرة، وقد تمضي أشهرٌ طويلة من دون أن يقيم علاقة ما، حتى ولو مع بائعة هوى.

انتهت هذه القصّة في صيف 2010، في أحد أسواق اسطنبول. كان قد حضر إلى مؤتمر عقد فيها حول عواصم العالم القديم الخمسة، العواصم الكونيّة كما في شعار المؤتمر: بابل، بغداد، أثينا، روما، كستانتنيبول «القسطنطينية/ اسطنبول». وقرأ في المؤتمر بحثاً نال إعجاب الجميع عن العمران القديم في مدينة بغداد، وأثر الطين المفخور في بناء الحضارات العراقية، ومدينة بغداد نفسها، وحجم المدفون من آثار بغداد غير المكتشف بعد، وما إلى ذلك.

في جولة له مع بعض أصدقائه في شوارع اسطنبول، انتهى إلى سوق للمشغولات اليدوية، وهناك رأى «نسرين» أوّل مرّة. فتاة عشرينية سوريّة الأصل، تخرّجت هذا العام من جامعة دمشق في تخصّص الفنون. وهي مقيمة هنا مع عائلتها منذ بضعة أشهر. كانوا يخافون أن تمتدّ تأثيرات الربيع العربي إلى سوريا، لذلك افتتح والدها مشروعاً خاصّاً في اسطنبول، مجموعة من محالّ الملابس.

تجاذب ساهر الكلام مع نسرين حول الأعمال الخزفيّة التي وضعتها أمامها. كان شعرها أسود مرسلاً، مع بشرة بيضاء صافية وطول يكاد يقارب طول ساهر نفسه. نساء قليلات تعرّف عليهنّ ساهر كُنّ بطول 170 سم. وهذه الصفة تجذبه في النساء فوراً. اشترى منها إطاراً خزفياً للصور. كان شكله غريباً. ثم عاد في اليوم التالي ليخبرها أنّه انكسر ليشتري إطاراً ثانياً.

لم يمض وقت طويل لتعرف نسرين أنّ هذا الرجل العراقيّ في أواخر الثلاثينيات منجذب إليها. تطوّر الأمر سريعاً، وعرف ساهر أنّه ليس بصدد علاقة عابرة. ربّما لأنّه صار يقترب من الأربعينيات، أو لشعوره بالملل من فكرة العلاقات العابرة، أو لأنّ نسرين ذات تأثير أكبر من أيّة إمرأة قابلها سابقاً، وأقنعته بحضورها وكلامها وشخصيتها وجمالها الخارجي بفكرة الاقتران الدائم.

كان والداه هما أسعد أثنين بفكرة زواج ساهر. سيتمّ استئناف حركة الغصن الممتدّ إلى الأعلى لعائلة آل رشيد. لم يخبراه بالطبع بأي كلام من هذا النوع، خشية أن يغضب ويخرّب فكرة الزواج كلّها. وباركا له هذه الزيجة حتى وإن كانت من امرأة بعيدة جداً، ليست عراقية ولا يعرفان عنها شيئاً.

تكرّرت زياراته إلى اسطنبول ثلاث مرّات، وفي المرّة الأخيرة كان حفل الزواج الذي حضرته كلتا العائلتين. وبعد بضعة أيّام من العرس، حين ودّع والديه في المطار أمسكه أبوه من ذراعه وشدّ عليها ثم قال بلهجة صلبة غريبة: إروِ لها حكايات وقصصاً في السرير يا ولدي.. النساء يعشقن هذه الحكايات.

كان كلاماً محرجاً، واستغرب ساهر جرأة والده، ولكنّه ظلّ مبتسماً وهزّ رأسه دلالة الموافقة، ثمّ نسي هذا الموقف لاحقاً، وغطس مع نسرين في عالم حلمي. حتى إنّه كان يفكّر أحياناً بأنّه لم يكن يصدّق بوجود سعادة من هذا النوع، وأنّه ظل مهجوراً، دون سبب، فترة طويلة ومركوناً مثل بيت خرب من البيوت التي كان يصادفها في محلّة صبابيغ الآل، والتي لم يشفق عليها أحدٌ حتى بصورة فوتوغرافية من قبل هواة التصوير الذين يتجوّلون عادة في الأحياء القديمة لبغداد.

كان سعيداً إلى درجة أنّ كلّ قناعاته السابقة تداعت وتلاشت وداسها بقدميه وهو يخطو إلى بهجة اليوميّات مع زوجته الجديدة، وصار بسبب ذلك يفكّر بالأولاد، ربّما لأنّ غرائزه تورّدت وأزهرت، فاستدعت تلك الغريزة الخاصّة بالأبوة والحاجة إلى طفل يحنو عليه ويقبله ويعتني به. مرّت خمس سنوات من دون أيّ حمل أو أيّ شيء. ذهبا إلى أطبّاء مختصّين بالعقم في بغداد. سافرا إلى بيروت، للتأكّد من النتائج. كانا سليمين. بويضات نسرين سليمة، وحيامنه قوية وسريعة.

كان والداه يتابعان هذه التطورات من دون أن ينبسا بكلمة واحدة. كانا ينتظران اتصالاته والمعلومات التي يدلي هو بها، وكانت أمّه تعلّق أحياناً باقتضاب قائلة: اللّه كريم.. إيدك بإيد اللّه.. انشاللّه خير. ولم تكن تزيد على ذلك.

كان هناك شيء ينطفئ والزوجان يخطوان إلى سنتهما السادسة. كانا سعيدين دون شك، على الأقلّ بما يخصّ اليوميات التي تجمعهما، لا بالقياس إلى الأخبار المحزنة التي تنقلها شاشات التلفزيون عن الحوادث الأمنية في بغداد وسوريا. ولكنّهما، رغم سعادتهما ببعضهما، يشعران أنّ ظلاً شاحباً صار يضرب حياتهما مثل غيمة داكنة مستقرّة في مكانها ولا تريد أن تغادر.

عادت نسرين إلى مشغولاتها الخزفية، وصارت تنفق وقتاً طويلاً معها. وصار ساهر يقضي وقتاً أكثر في الخارج، مع أصدقائه، وجلسات خمر وموسيقى في شقق بعض زملائه في العمل. وكان من الممكن أن يستمرّ هذا الحال وقتاً أطول، وربّما يؤدي إلى شحوب العلاقة بين الزوجين، أو انكسارها مثل واحدة من خزفيات نسرين، التي لا يمكن إصلاحها أبداً. لكن شيئاً ما حدث.

اتّصل ابراهيم رشيد بابنه وطلب منه أن يأتي وحيداً إلى بيت العائلة في صبابيغ الآل. داهم القلق ساهر في بداية الأمر وظنّ أنّ أمّه أصيبت بوعكة مفاجئة، ولكنّ والده طمأنه أنّهما بخير، ولكن من الضروري أن يحكيا معه حول أمر ما.

ذهب ساهر إلى بيت أهله وأنفق النهار كلّه هناك، ثم اتّصل بزوجته ليبلغها بأنّه مضطرّ لتركها وحيدة في البيت هذه الليلة، لأنّه سيبيت مع أبويه. استغربت نسرين هذا الأمر منه، ولكنّها وافقت، خصوصاً وأنّها تعرف أنّه لا يتواصل كثيراً مع والديه.

في نهار اليوم التالي، قال ساهر لزوجته أنّه يخيّرها أن يذهبا إلى اليونان أو الهند. سيحصل على فيزا سياحية إلى أحد هذين البلدين، ليذهبا سويّة إلى هناك مدّة عشرة أيّام. سيأخذ إجازة من وظيفته. هما بحاجة إلى كسر الرتابة التي تغطّي يومياتهما معاً. كان طلباً مفاجئاً بالنسبة لنسرين ولكنّها وافقت.

كانت نسرين تشعر أنّ هناك أشياء غريبة تحدث، ولكنّها تعوّدت أن تصبر ريثما يكشف لها ساهر الغموض في الوقت المناسب. تركته يفعل ما يريد. انشغل لبعض الوقت بأمر الفيزا والتذاكر وما إلى ذلك، ثم ها هما يحلّقان باتّجاه الهند ضمن فريق سياحي.

في ليلتهما الأولى بغرفتهما في الطابق الثالث من فندق تاج كاستل هومستي، وهما يشربان النبيذ الأحمر وينظران من النافذة إلى أضوية الهيلوجين الملوّنة التي تضرب تاج محلّ القريب من الفندق، ويدخّنان من سيجارة واحدة، أخبر ساهر زوجته بسرّ الزيارة الطويلة لعائلته. كان الأمر

متعلّقاً بالإنجاب والأولاد، لقد أخبراه باللغز الذي لم تنفع كلّ التلميحات بكشفه سابقاً.

لقد اختلط كلّ شيء الآن بالأساطير والحكايات الشعبية، ومن الصعب إنقاذ الحقيقة من بين أغصان الغابة المتشابكة للحكايات. إنّ ما يجعلنا نصدق أو لا نصدق، هو رغبتنا بالتصديق، هو الإيمان فحسب، دون حاجة لتفسير مقنع. وما هو أهمّ بالنسبة لهذا التصديق؛ أنّ السرّ الذي منع خلال ستّ سنوات من إنجاب طفل واحد على الأقلّ يكمن في تضاعيف هذه الحكايات الغريبة، التي تدور حول سيرة عائلته.

أخبر ساهر زوجته نسرين خلال هذه الليلة الهنديّة بكلّ شيء، مع النبيذ والموسيقى، ثم مع استلقائهما على السرير الوثير، وبدايات المداعبة والقبل ثم انغماسهما بممارسة جنسية طويلة وبطيئة.

أخبرها بأنّه كان مجبراً على استجماع كلّ قدرته على التركيز والقابلية على التصديق وهو يسمع كلام والديه، كلّا على حِدة. كانا عجوزين خرفين كما يمكن أن يجمع الآخرون، ولكنّه ابنهما، وعليه أن يكون متعاطفاً أكثر. أخبرته أمّه في تلك الليلة باللغز غير القابل للتصديق:

ـ أنا امرأة غريبة، ولكنّ سلالة آل رشيد، والدك وعمّك اللّه يرحمه، وأجدادهما، هي سلالة خاصّة. كلّ البشر ينشأون من نطفة ذكر، ولكن آل رشيد يولدون من الحكايات.

ـ كيف ذلك؟!

ـ كلّ رجل أو إمرأة من آل رشيد نمى من حكاية.

ظلّت الأمّ تشرح وتحاول توضيح فكرتها، وتجمّعت الصورة في ذهن ساهر شيئاً فشيئاً. لم يكن مستعدّاً للتصديق، ولكنّه كان يحاول أن يفهم.

الكثير من الحكايات التي سمعها من أبويه في تلك الليلة كانت قد مرّت على مسامعه خلال سنوات طفولته، ولكن كحكايات خرافية مسلّية، أمّا الليلة فقد دخلت في إطار جديد ينبثق أمامه لأوّل مرّة، وهو مطالب بأن يصدّق بها كلّها ويتعامل معها على أنّها حقائق حدثت.

كان يسمع من جدّته مهديّة تلك القصّة التي تتحدّث عن شهريار وشهرزاد. ولكن مع تعديلات حاسمة، فعائلة آل رشيد، كما تزعم الجدّة مهديّة، هم من سلالة شهرزاد، وأنّ إسمها الأصلي هو شاهنده، وهي بنت وزير نصف تركي أو فارسي ومن أمّ هندية. هذا الوزير كان يخدم أحد خلفاء بني العباس، وكلّ ما جرى في القصّة الخيالية بين شهرزاد وشهريار، كان قد جرى أصلاً مع شاهنده والخليفة الشاب رشيد. ظلّت شاهنده تدرأ موتها بالحكايات، ثم في الليالي الأخيرة كانت روح الخليفة الوسيم قد هدأت واستغنى عن فكرة القتل، واستبدلها دون شعور منه بفضول أكثر لسماع الحكايات، وفي الليلة الأخيرة التي ختمت حكايات شاهنده الطويلة، كانت قوة الحكايات التي تدرأ الموت قد تحوّلت تدريجياً إلى قوّة حياة، وخلال الممارسة الجنسيّة الأولى بين الزوجين داخل قصر الخلافة في بغداد، تبلورت قصّة تلك الليلة كي تغدو نطفة في رحم شاهنده.

نقلت شاهنده هذا السرّ لأبنائها، وصاروا حريصين عليه أشدّ الحرص. كلّ فرد من عائلة رشيد، التي اندفعت شيئاً فشيئاً بعيداً عن أسوار القصر، بسبب المتغيرات السياسية، وصارت تختلط بحياة العامّة في أزقّة وحواري بغداد العبّاسية، في رقبته مهمّة أساسيّة أن يحفظ هذه السلالة السحرية من الفناء، ولا يكون ذلك إلّا بتخليق حكاية جميلة يسردها الزوج على

مسامع زوجته في ليلة عرسهما قبل المجامعة، أو تفعل البنت الرشيدية ذلك مع زوجها من خارج العائلة. تتحوّل هذه الحكاية الجميلة الخاصّة بليلة العرس إلى نطفة في بطن الأنثى، ولا يجوز سرد الحكاية على مسامع آخرين لاحقاً، لأنّها سرّ حياة الوليد القادم.

لقد قام أحد الأعمام البعيدين لوالد ساهر، في عقد العشرينيات من القرن الماضي، بخطأ جسيم. كان قد ألّف «سالوفة» شيّقة عن السعالي والرجال مفتولي العضلات من خوشية الغزْل وأبو سيفين والصدريّة، وسردها على مسامع زوجته في أحدى لياليهما معاً. وفعلاً حملت زوجته، ثم أنجبت ولداً كأنه فلقة القمر. وصار نوراً في بيت العائلة وسبباً لفرح جديد. ولكنّ هذا العمّ غير المكترث، سكر في أحدى المايخانات القديمة، وسرد الحكاية على مسامع جلّاسه من السكارى وأثارت إعجابهم. وحين عاد تلك الليلة وجد مناحة كبيرة في بيت العائلة، فصبيّه الجميل كان قد مات لحظة انتهائه من سرد الحكاية في المايخانة. لقد استلّ روح ابنه وأطلقها في الهواء دون أن يدري.

لقد أرسل بعض الأجداد أبنائهم إلى مجالس القصّاصين ورواة الحوادث التاريخية، كي يتعلّموا منهم طرائق السرد الجميل، وقد يتناوب أبناء العائلة الواحدة على سرد الحكايات على مسامع بعضهم البعض الآخر، خلال ليالي الشتاء الطويلة، كنوع من التمرين، من أجل هدف مستقبلي يتعلّق بالإنجاب واستمرار السلالة.

كلّما كانت القصّة جميلة أكثر كان الولد أو البنت أجمل. وهذا ما جعل عائلة آل رشيد مشهورة بالقصّخونيّة الذين ذاع صيتهم في أحياء بغداد العثمانيّة، بل إنّ أمّ ساهر «نور الفيصل» تزعم أنّ كلّ قصص ألف ليلة وليلة

هي من تخليقات عائلة آل رشيد، وذاعت وانتشرت بين الناس، ثم حُمّلت باضافات وتعديلات بسيطة في مرحلة التدوين.

والد ساهر وعمّه هما ابنا حكايتين سرّيتين أيضاً، مثلما هو الحال مع ساهر ولبنى. وهذا ما يفسّر له سبب عقمه مع نسرين. لم يكن ساهر يروي الحكايات أثناء ممارسته للجنس مع لبنى، ولكن لبنى نفسها كانت مشغولة بشكل كامل بتخليق حكايات جديدة كلّ ليلة. كانت العائلتان قد أوكلتا لها هذه المهمّة، خصوصاً وأنّهم يعرفون الموقف غير المتعاطف مع الحكايات عند ساهر، فهو رفض أن يدخل إلى كلّية الآداب كما طلبت والدته، أو أن يتعلّم كتابة القصص كي يغدو مؤلّفاً مثل والده. كان عقله رياضياً وذهب باتّجاه أمور علمية، وظلّ محافظاً على موقف صارم بشأن سرد الحكايات. لذلك لم يكن من المناسب فتح هذا الملف الغريبّ معه بعد زواجه من لُبنى. تحمّلت ابنة العمّ الضامرة وحدها هذه المهمّة بصمت حتّى وفاتها.

ـ كلّ شيء يتداعى ويتخرّب في هذه المدينة. صارت الحياة تنقلب إلى صور ما عدنا نعرفها، ربّما هذا منطق الحياة، ربّما أُصبنا بالشيخوخة، ولكن ليس من المناسب أن يكون هذا عصر نهاية عائلة آل رشيد.

قال والده في تلك الليلة بنبرة أسىً وحزن. ثم وضع أمام إبنه ملفّاً ورقيّاً كبيراً، وقال له بإنّها مخطوطة رواية جديدة له، لا يتحمّس لنشرها، تتحدّث عن عائلة آل رشيد وبعض ما جرى لها من حوادث خلال الألف سنة الماضية.

ـ لا أريد أن أكون شاهداً على انتهاء هذه الحكاية الطويلة. إنّه شيء محزن جداً أن أتعرّض لهذا الموقف.

أكمل والده وكأنّه يشجّعه على تصديق الكلام الغريب، وأن يتبنى موقفاً أكثر حماسة لانتهاج سيرة تخليق الأولاد بالحكايات. ولم يكن ساهر يمانع، ليس لأنّه يصدّق فعلاً، وإنّما هو في وضع يتيح له أن يصدّق أيّ شيء يؤدّي إلى تحسّس بشرة طفل وليد وسماع صوت مناغاته.

لم يكن ساهر أوّل من يشكّك بقصّة أبناء الحكايات، وقد اختبر هذا الموقف بعض الشباب في العائلة خلال عقود سابقة، خصوصاً بعد تأسيس المملكة العراقية ودخول التعليم الحديث، وشيوع الانتقادات للخرافات الدينية والاجتماعية، وانتشار دعوى التحديث والعقلانية، واندراج بعض أبناء العائلة في النشاط السياسي، اليساريّ والقوميّ. كانت عائلة رشيد كبيرة، ولكنّها، بسبب الإيمان العقلاني للشباب الحديث، صارت تنقرض بحالة عقم مستشرية. وليس غريباً أن تبدو النساء هنّ من حفظن السلالة، بسبب تأخّرهنّ في الدخول إلى دعوى الحداثة والتنوير والعقلانية. وأيضاً هناك من الأبناء من لم يكترث للتناقض الذي يمكن أن يحصل معه، وهو العقلانيّ والحداثيّ، حين يتبنّى هذه الحكاية الخرافية ويصدّق بها. وساير الأسطورة العائلية ولم يدقّق لاحقاً، وهو يرى أبناءه يدرجون في البيت أمامه، هل فعلاً سبّبت الأسطورة العائلية في استمرار السلالة أم أنّها مجرد مصادفات.

كان جدّ ساهر متفرّداً في مساره، فهو كان بطبعه مغرماً بسرد الحكايات، بغضّ النظر عن أيّة أسطورة عائلية، وأنجب بسبب هذه العادة الشخصية، التي قد تنتقل معه إلى السرير، ولدين اثنين.

كان على ساهر، فضلاً عن إقراره بصحّة كلّ الحكايات التي رواها والداه أمامه، أن يتعهّد بنقل هذا «التراث» إلى أبنائه حين يأتون إلى هذه الحياة في يوم ما.

أطلق ساهر آهة مديدة دلالة الارتياح بعد بلوغه النشوة، وترك زندي زوجته ونهض من فوقها، وقام ليمسح العرق عن جسده، ثم استلّ سيجارة من علبته وجلس عارياً على الكرسي الخشبي في البلكون، وصار ينظر إلى أضواء المدينة في الأسفل. أطلق الدخان بدفعات متمهّلة، وشاهد زوجته تلفّ بدنها بشرشف السرير وتأتي بجواره، وتسأله إن كان يطلب شراباً.

كان يشعر باسترخاء كبير. لم يمارس الجنس بمثل هذه القوة سابقاً، وهذا التعب الذي كبس على كلّ أرجاء جسده الآن، ينبئ بنومٍ عميق، ربّما يعزّز ثقله بكأس من النبيذ.

ـ إنّها قصة جميلة ومثيرة يا ساهر، ولكن ضمن هذا المنطق متى تسمعني الحكاية الخاصّة بوليدنا القادم؟

سألت نسرين، وهي تجلس على الأرض بجوار الكرسي الخشبي وتحتضن ساق زوجها.

ـ لقد سمعتِها منّي الآن. إنّها نفسها هذه الحكاية. لقد مزجت الحقيقة بالخيال كما كان يفعل أسلافي الشهرزاديون. غداً سأُعيد سرد حكاية العائلة بطريقة أخرى مختلفة. أصنع قصّة جديدة.

قاطعته نسرين، وكأنّها تكمل كلامه:

ـ من أجل فرصة لوليدنا القادم.

أطلق زفيراً مديداً من سيجارته، ثمّ أكمل:

ـ آه.. إن كان ولداً سنسمّيه رشيد، وإذا كان بنتاً فشاهنده.

الوجه العاري داخل الحُلم

- 1 -

تمرّ ساعات ثقيلة وطويلة خلال النّوم كأنّها الدهر غزيرة التفاصيل قبل أن أشهق وأنا أفتحُ عينيّ في سريري ويكون النهار قد انتصف، ومثلما هو الحال في كلّ مرّة أصارع المرحلة الانتقالية العصيبة كي أستردّ إحساسي الواقعي بالأشياء من حولي؛ المغسلة ذات المقابض التي لا تتحرّك بسهولة. تسرّب المياه في سقف الحمّام. حاجتي منذ أشهر لحذاءٍ ثانٍ ولكنّني أتكاسل عن شرائه. عدم رغبتي بأكل شيء على الإطلاق وإحساسي، مع ذلك، بجوع رهيب. طعم الشاي المنزليّ الغريب، حاجتي لحلاقة لحيتي كلّ عشر ساعات لأنّها تنمو بسرعة. ثمّ اكتشفت شيئاً غريباً، فخلال مروري بأحلامي الثقيلة تنمو لحيتي بسرعة أكبر. تتغيّر ملامحي قليلاً، يزداد صلعي. تمرّ السنوات التي عشتها داخل الحلم على جسدي وتفعل فعلها، ومع ذلك يواجهني الآخرون، خلال النهار، بكلّ غباء ليؤكّدوا أن شيئاً من هذا لم يحصل. فأنت أنت، كما كنت نهار الأمس. لم يتغيّر فيك شيء ما سوى أنّك غدوت أكثر تبرّماً وضجراً، وأقلّ مرحاً من السابق.

كنت ليلة أمس مرهقاً تماماً بسبب تراكم حاجتي للنوم على مدى أسابيع. عدتُ متأخّراً إلى البيت، ولم أشارك أصدقائي جلسة شرب كانوا

قد دعوني إليها، فأنا لا أريد أن أتطوّح برأسٍ يدور، يدفعني سريعاً إلى النوم، أنا أهرب من النوم أصلاً. ولكن، من الذي يستطيع مقاومة جسده إلى النهاية؟ لم أكن بحاجة إلّا لدفعة صغيرة من زوجتي القلقة، كي اندسّ في الفراش وأغطس في نومٍ عميق.

نمتُ، وغرقتُ سريعاً في الطبقات العميقة من النوم، ولكنّه لم يكن نوماً عادياً، كما أخبرتكم. كان دخولاً إلى مصيري الحقيقي. يا إلهي. عدت إلى القصّة ذاتها التي رافقتني خلال أكثر من شهر، رغم تغيّر بعض التفاصيل فيها كلّ مرّة، وكأنّها تنمو وتزحف نحو هدف أجهله.

كنت، داخل الحُلم، في قاعة واسعة مضاءة بشكل جيد. نستعدّ لدفع الصفحات الإخبارية إلى المطبعة. بعضنا يقف وراء المصمّمين، وآخرون ينتظرون آخر ما يرد من الوكالات. كان الجوّ في الخارج بارداً، وبسبب التدخين المسرف لكلّ المحرّرين والمصمّمين وحتى عامل الخدمة الذي تأخّر معنا في تلك الليلة، كان لزاماً فتح بعض النوافذ. غادر رئيس التحرير مبكّراً. وبقينا نحن، سبعة شباب مع عاملٍ بنغالي، نستمرّ في التدخين والضحك، والتعليق على بعض الأخبار والأحداث، وتغمرنا سعادة ما بأنّنا نقوم بعمل جيد. سيكون عدد الغد من الصحيفة مميزاً، لأنّنا أجرينا حواراً مع شخصية نافذة، ولدينا تقارير كتبناها بناءً على معلومات استخباريّة خاصّة. وأشياء أخرى تبدو جميلة ومثيرة.

إنّه شتاء 2007. نفدت سجائري فطلبت من عامل الخدمة البنغالي أن يخرج ليشتري لي علبة من محلّ الأسواق القريب في رأس الزقاق. غادر العامل وترك الباب الخارجي مفتوحاً في بناية الجريدة التي هي مجرد بيت كبير في منطقة الكرّادة.

كنّا نعرف بأنّ هناك تهديدات من جماعات مسلّحة لبعض الصحف الصغيرة التي لا تحظى بالحماية، ولكنّنا لم نحصل على أيّ تهديد بعد، ولا نعرف بالضبط ما الذي فعلته هذه الصحف، وما الخطأ الذي ارتكبته، ولكنّنا كنّا نتصرّف بحرّية، ونتناول بالنقد كلّ شيء، ونعتقد مؤمنين أنّ هذا هو حقنا في استعمال الحرّية وواجبنا الأخلاقي تجاه الحقيقة وحقّ الناس في المعرفة. كنّا نوهم أنفسنا بهذه التصوّرات رغم أنّ جريدتنا تتّبع فصيلاً سياسياً نافذاً يشترك في الصراعات الدائرة على الأرض، بكلّ ما فيها من تداعيات صادمة في بعض الأحيان. ولم ننتبه أنّنا، بوجودنا العاري المكشوف، نعرضُ أنفسنا بغباء كي نكون أشبه بكبش فداء لهذه الصراعات العنيفة على المصالح والنفوذ، وهي صراعات لا تستجيب لأيّ قواعد عمل شريفة وعادلة.

كنّا واقفين في قاعة التحرير الرئيسة، حين دخل مسلّحون يرتدون ملابس مدنيّة. لم تكن أشكالهم شرّيرة. يمكن أن يكونوا محرّرين في جريدة مثلنا، إذا أزلْنا تفصيلاً صغيراً يتعلّق بالأسلحة الرشّاشة التي في أيديهم. أقتادونا جميعاً، دون كلام كثير، وتركوا باب الجريدة مفتوحاً. كانوا يدفعوننا لنسير بسرعة خارج البناية إلى سيارات دفع رباعي بزجاج مظلّل وقفت في منتصف الشارع الفرعيّ المعتم. وضعونا مكتّفي الأيدي في السيّارات السوداء وركبوا بجوارنا، وتحرّكوا بسرعة. رفعت رأسي لأنظر إلى أبواب البيوت والشبابيك علّ شخصاً ما يقف هناك ويكون شاهداً على ما جرى، ثمّ لمحت العامل البنغالي يمسك بعلبة السجائر التي طلبتها منه، وهو يقف مذهولاً بمنظر السيارات التي مرّت بجواره. ومن المؤكّد أنّ ذهوله سيتحوّل إلى رعب حين يجد قاعة التحرير فارغة منّا.

لم يمض وقتٌ كثير حتّى دخلنا إلى الشارع العام. كنّا ننتظر أن يرى أحد ما كيف جرى اختطافنا. شاهدنا سيارة شرطة واقفة في البعيد، ولم يتجرّأ أحدٌ منّا على مناداتها. هل بالإمكان سماع أصواتنا لو صرخنا؟! كان كلّ شيء في الشارع عادياً، وهناك حركة لسابلة ما على الضفّة الأخرى من الشارع. من خلال النوافذ كانت الحياة مستمرّة بايقاعها الطبيعي. عربات لبيع اللبلبي والشلغم. جنابر باعة السجائر على الأرصفة. محالّ مفتوحة ومُنارة بأضوية شديدة. مطاعم، دوريّات شرطة. ثمّ مررنا بسيطرة عسكرية، وانتظرت أن تتوقّف يد الجندي التي يشير بها إلى السيّارات أن تمرّ. انتظرت ان ينتبه لتكدّسنا المريب، ولكنّ يده ظلّت تلوّح للسيّارات وهي تدعوها إلى عدم التوقّف، ثمّ لمحت موكباً لمركبات دفع رباعيّ سوداء تتقدّم باتّجاه معاكس. يبدو أنّها لمسؤول كبير، وكان الجندي يحاول فتح الطريق لها.

بعد أقلّ من ساعة وصلنا إلى منطقة زراعيّة عند أطراف بغداد. أنزلونا من السيّارات، واقتادونا ما بين الأشجار والأحراش التي كنّا نتعثّر بها في سيرنا المرتبك، حتّى وصلنا إلى مكان بدا شديد العَتمة. كدّسونا نحن السبعة في مبزلٍ عميقٍ وجافّ. بركنا على ركبنا وصرنا خلف بعضنا البعض الآخر بشكل متتابع. كان الليل حالكاً، لا أضوية ولا أصوات مميّزة. لا أتذكر سوى الرائحة، رائحة أعشاب عفنة. استمرّ أحدنا [للأسف لا أتذكر إسمه] دون يأس بإطلاق توسّلاته أمام المسلّحين لكي يفهم ما الذي يجري. حاول أن يتفاهم معهم، بل ورشوتهم، ولكنّهم لم يتكلّموا بكلمة واحدة. حتّى مع احتمال أن يكونوا قد اقتادوا المجموعة الخطأ. كانوا مثل روبوتات تنفّذ مهمّة آليّة. لم يكونوا بشراً مثلنا، وندمت لأنّني شبّهتم، بسبب هيأتهم

المألوفة، بمجموعة من المحرّرين في صحيفة. لم يكن هناك أيّ بصيص لأمل بأن تنتهي هذه الليلة بطريقة مفاجئة وسحريّة وغريبة خارج المتوقّع. لم يكن الأمر قصّة لفيلم. لم نكن أبطالاً، ولم ينجُ أحد منّا أبداً.

وقعنا على وجوهنا في الوحل الأسود داخل المبزل العميق بسبب إطلاقات سريعة خلف الرأس. متنا، وغادر المسلحون سريعاً. وساد هدوء كامل. بقيت، رغم موتي، أتشمّم رائحة العشب العفن وهي تتسلّل ببطء إلى أنفي.

ما الذي حصل فعلاً؟ لماذا لا أبدو ميّتاً؟ إنّه سؤال جديد يضاف إلى أسئلة كثيرة أخرى كنت أتأمّلها خلال حياتي وأحاول الوصول إلى إجابات شافية عنها دون فائدة.

هل هي خطّة القدر أم اللّه؟ لا أستطيع الجزم بشيء. أنا في العادة أملك الكثير من الأسئلة والقليل جداً من الأجوبة المؤكّدة، ولم أنشغل طوال حياتي بمناقشة موقفي هذا مع الآخرين، أو استعراض شيء من قناعاتي. ولكنّي بالمجمل، ورغم كلّ شيء أستشعر قوّة السرّ والغموض في هذه الحياة. هناك سرٌّ خفيّ لا نستطيع الإمساك به ولكنّه يمنح معنى لكلّ شيء. لديّ بالمؤكد شيء يتّصل بهذا السرّ الغامض الخفيّ، ألا وهو شبكة غرائزي المتشابكة التي تدفعني باتّجاه معاكس لأيّ حسّ عدمي يسيطر عليّ. غرائزي تفهم شيئاً لا أفهمه أبداً. وربّما هي متّفقة مع «السرّ الخفي» لهذه الحياة، ربّما هي يده الحانية التي تربّت على كتفي، والتي تدفعني إلى الخلف بقوّة حين نزولي الساهي إلى الشارع أثناء مرور سيّارة مسرعة. ولكن، لماذا لم تفعل لي شيئاً ها هنا. لماذا غدر بي هذا السرّ الخفيّ وتركني أموت ميتة سخيفة برصاصة في مؤخرة الرأس،

ملطخ الوجه بالوحل الأسود، مع رفاقي الستّة الذين لا أعرف أسماءهم ولا ملامحهم الآن؟

كان استشعاري لملمس الرصاصة على قحف رأسي، أو تخيّلي لهذا الاحساس، هو الومضة الأخيرة في حلمي الرهيب قبل استيقاظي مع شهقة عميقة، وكأنّني طفوت إلى السطح ونجوت من غرق محقّق. صحوت في الثانية ظهراً. بقيت ساكناً في سريري عدّة لحظات، ثم شرعت بالبكاء، وتمنّيت أن لا يدخل أحد من أطفالي ليراني على هذه الحالة. بقيت أبكي لنصف ساعة، عضضت طرف البطانية بأسناني وبكيت على نفسي طويلاً. كأنّ كلّ الرعب الذي لم أشعر به خلال عملية الاختطاف وكلّ مشاعر الفقد وخسران الحياة، وتضاعف الأمل والرغبة والشعور بالظلم وغدر الحياة لي، قبيل أن يطلق المسلّحون النار علينا في المبزل العميق، كل هذه المشاعر المتضاربة والمتزاحمة في حيز صغير قد اندفقت في صدري وأنا أعضّ على البطانية وألفّ وجهي بها وأبكي بحرقة. أبكي نفسي التي ذهبت ولم يبك عليها أحد. نفسي الأولى. وربّما هذا واحد من غايات «السر الخفيّ» التي أراد تحقيقها بإعادتي مرّة ثانية إلى هذه الحياة؛ أن أقيم عزاءً على نفسي ورفاقي الستّة.

- 2 -

قالت لي زوجتي؛ إنّها قصّة مختلفة ببعض التفاصيل، ولكنّ هذا ما جرى معي فعلاً. إنّه شيء رهيب ومؤلم بحدّ ذاته. ولكنّ الأكثر إيلاماً وقسوة أن تعود مرّة بعد أخرى لعيش التفاصيل ذاتها من جديد.

- لقد منحني اللّه حياةً ثانية.

قلت وكأنّني أهذي، فردّت زوجتي:

ـ نعم بالمؤكّد، والآن قم واغتسل ريثما أحضر لك وجبة الغداء، أم تريد إفطاراً؟ لقد تجاوزنا منتصف الظهر من ساعات.

غالباً ما جرى خلال الأسابيع الماضية أن نخوض أنا وزوجتي حوارات من هذا النوع. ولكنّي أشكّ في كوننا نقصد الأشياء نفسها. لقد منحني اللّه فرصة ثانية للحياة، من دون أن أعرف بالضبط ما الغاية منها. لو أستطيع مواجهة ذلك «السرّ الخفي» كي أفهم منه معنى ما جرى لي، لكنت أرتحت. وخرجت من البيت للبحث عن عمل من جديد، ولأنهيت فترة النقاهة الطويلة التي أقسّمها ما بين التسكّعات والجلوس في البيت للقراءة ومشاهدة التلفزيون، ومحاولة الهرب من النوم قدر الإمكان، فهناك، ما وراء حاجز النوم، يلعب السرّ الخفي لعبته ليعيدني إلى المشاهد الرهيبة التي أحاول نسيانها.

فيما بعد صرت أكثر اتّزاناً وفهمت أنّه مجرّد حلم. تخفّف هذياني، وصرت أعي عالمي الواقعي، وأفصله عمّا يجري لي في عالم الأحلام، رغم الوقع الشديد لتفاصيل هذه الأحلام، إلّا أنّني ملزم بالتكيّف معها، وإدراك أنّها مجرّد أحلام.

قالت زوجتي، بما يشبه الخلاصة الحكمية، إنّ عليّ أن أستسلم لهذه الاحلام تماماً، ولا أقاومها، فهي تشبه سائلاً سامّاً محتجزاً في رأسي، عليّ أن أدعه يتسرّب، من خلال الأحلام، حتى يفرغ رأسي منها في النهاية، مهما استغرق من وقت، فلا سبيل غير ذلك.

قالت لي هذا على خلفية مراجعاتي لأطبّاء نفسيين ولأضرحة مقدّسة وقراءة الأدعية، والقيام بأيّ شيء يمكن أن يؤثر على ماكنة الأحلام في

رأسي ليعدّل من مسارها، أو نوع الموادّ التي تنتجها فتكون أخفّ أثراً. حتّى أنّي جرّبت السكر لعدّة ليالٍ. شربت أقصى من طاقتي، ونمت بمعدة ثقيلة ومزاج سيء. كانت ماكنة الحلم بالرغم من كلّ شيء تعمل بالكفاءة نفسها وتنتج الموادّ الرهيبة ذاتها. وعبثاً حاولت التعايش مع هذا الوضع، استجابة لنصيحة زوجتي، فبعد كلّ شيء أنا أبقى داخل تأثير الحلم لساعات بعد الصحو من النوم، ويبقى وعيي يتحرّك في عالم آخر لا وجود له، وحين أقرّ مع نفسي بأنّ ما جرى لم يكن سوى حلم مزعج، أبقى مع ذلك تحت التأثير العاطفي للحوادث الصادمة التي عايشتها، ويبقى مزاجي مكدّراً لوقت طويل، فيستهلك الأمر أغلب ساعات النهار عندي، ما يجعلني غير متحمّس للقيام بأيّ شيء.

تمرّ بضعة أيّام من دون أحلام، وأكاد أستعيد إيقاع حياتي الطبيعي، ثم يأتي حُلم صادم مليء بالتفاصيل الواقعية يخرّب كلّ شيء، وفي بعض الأحيان تندفع الأحلام بشكل متتابع على مدى يومين أو ثلاثة فأكاد أصاب معها بالجنون.

لقد كنت في باص كيّا يتّجه لمدينة كربلاء، وكان الطريق العامّ مقطوعاً بسبب ما قيل أنّها مواجهات مع جماعات مسلّحة. أضطرّ سائقنا للمرور بين البساتين على طريق ضيّق لا يتّسع إلّا لسيارة واحدة. نظرت إلى الخلف فلم تكن هناك سيّارة تتبعنا، ولم يبد في الأمام أيّ شيء ما سوى إلتقاء أفق الأشجار من الجانبين. لم يكد يمضي الوقت بنا حتى ظهرت مجموعة من الملثّمين من كلّ اتّجاه، تصوّب أسلحتها باتّجاه السيارة. ضجّ الركّاب بالصراخ والدعاء حين توقّف سائق السيّارة. أنزلونا ورصفونا على جانب الطريق، ثم أخذوا بطاقات الهُوية منّا تباعاً.

كنت أشعر بخدر تامّ في كلّ أرجاء جسدي، وأعلم تماماً أنّني ميتٌ لا محالة. أخذوا نصف الركّاب وكنت من بينهم، وتركوا الباقين يفرّون بالسيارة. كان موتي هذه المرّة ذبحاً بالسكين. شاهدت ثلاثة رجال يُذبحون قبلي، ولم تكن ردّة فعلي واضحة. كنت كأنّني أشاهد شيئاً بعيداً لا يعنيني ولا يخصّني. وكان جانبٌ فيّ يتمنّى أن ينتهوا من مهمتهم سريعاً. لا أريد التفكير بلحظات الانتظار ما قبل الموت، ولا أريد وقتاً كثيراً يجعلني أستدعي الذكريات ووجوه من أعرفهم من أهلي وأصحابي. لا أريد أيّ شيء ما بين هذه اللحظة ولحظة موتي، حتى يمرّ الأمر بيسر أكثر.

قالت زوجتي إنّها قصة جديدة، وهذا أمر ملفت. لا تعيد ماكنة الأحلام هنا إنتاج الوقائع الرهيبة التي حصلت معي، وإنّما تؤلّف قصّة جديدة تماماً. احتضنتني وطبطبت على ظهري وتركتني أنتحب على نفسي التي ماتت من جديد. أعطتني كلّ الوقت الذي أريده حتى أفرغ ما لديّ من عواطف سبّبها الحُلم.

تكرّر الحُلم ذاته في عدّة ليالٍ لاحقة، ووجدت نفسي في بعض النسخ، أغادر صمتي وأتوسّل بالخاطفين القتلة. حتى أنّي في نسخة أخيرة من الحُلم، قبّلت يدَ الرجل الذي سيذبحني، وطلبت منه الصفح والغفران، ولكن من دون جدوى.

وفي ليلة ما وأنا أتجوّل في الشوارع، أعيد تأمّل ما يحصل لي، توصّلت إلى قرار بأن أترك البيت لفترة، حتى أعفي زوجتي والأولاد وأيّ شخص له صلة بأسرتي، من آثار ومتاعب ما أمرّ به من وضع جنوني. سأسافر مستجيباً لدعوة صديق كرديّ في كلار. أخبرني على الهاتف بأنّ الطبيعة هنا خلّابة في هذا الموسم من السنة، وربّما يساعدني الهواء النقيّ والابتعاد عن بغداد

في رفع معنوياتي. قبلت عرضه وأنا أستشعر يقيناً بأن لا شيء سيؤثر على ماكنة الأحلام، ولكنني أمنح استراحة لعائلتي هنا منّي، وأترك الأحلام السامّة تتسرّب من رأسي على مهل، فلربّما قاربت النفاد هناك بشكل أسرع.

قبل أن أخبر زوجتي بقراري انبثقت فكرة أخرى في رأسي؛ فأنا، في استجاباتي كلّها حتّى الآن، أقاوم هذه الأحلام بشدّة. ماذا لو غيّرت من موقفي؟ ماذا لو تعاملت مع هذه الأحلام على أنّها حقائق؟ ما الذي سيجري حينها؟ الأمر لا يتعلّق هنا بالاستسلام لماكنة الأحلام كما تطلب زوجتي وإنّما أن أعيشها كوقائع فعلية، وأحاول أن أكون ذا إرادة في الحُلم كما أنا في الواقع.

- 3 -

كان البيت الحجري الذي اقتادني إليه صديقي الكردي عند أطراف قرية متناثرة البيوت. وحين أخرج لأقف أمام البيت أرى سهوباً متموّجة بالأعشاب المختلفة، وأغناماً متناثرة تتجوّل باسترخاء، مع ظلال زرقاء في الأفق لجبال بعيدة. افترض صديقي أنّ هذه المناظر بالإضافة إلى الهواء النقيّ والهدوء ستساعدني على تجاوز الحادثة الرهيبة التي حصلت معي، كما يقول هو.

في الليلة الأولى التي نمت فيها وحيداً في غرفة النوم الصغيرة داخل البيت الحجري، عقدت العزم على تطبيق فكرتي، سأحاول أن أتذكر نفسي وأنا داخل الحُلم، ولا أتركها أسيرة رغبات ماكنة الحُلم. سأفعل هناك ما أنا قادر على فعله هنا. سأتذكّر نفسي جيداً وأحاول التصرّف.

لم يحصل شيء خلال النوم، وكذا الأمر مع الليالي اللاحقة، بما بدا

وكأنه تأكيد لتوقعات صديقي الكردي. في النهار كان يقتادني بسيارته الجيب إلى أماكن متعدّدة. عيون ماء، وبعض الاحتفالات التي لا يتحرّج أصحابها من دعوتنا إليها رغم أنّهم لا يعرفوننا. ولربّما ذهبنا إلى مدينة كلار للأكل في مطعم أو التبضّع من بعض المحالّ. ثمّ حصل أنّني شعرت ببهجة غامرة، وكأنّ الهواء النقي وأوقات الاسترخاء فعلت فعلها، ولكنّ ماكنة الحُلم كان لها رأي آخر لم أكن أعرفه بعد.

كنت نائماً داخل غرفة صغيرة مبنيّة من أحجار خراسانية. لم أكن نائماً في الحقيقة وإنّما مستلقياً أحاول تنشيط نفسي من أجل النهوض. كانت الساعة السادسة صباحاً تقريباً، ولكنّ مثانتي كانت ممتلئة وتضغط عليّ بشكل مؤلم. ومن مشاهدتي للملابس العسكرية المعلقة على الحيطان، عرفت أنّني في نقطة تفتيش عسكرية. وكان هناك زميلان آخران ينامان على سريرين مجاورين.

للأسف لم يكن الحُلم كثير التفاصيل ولا طويلاً. دخل مسلّحون ملثّمون، وبأسلحة كاتم صوت أطلقوا النيران على الزميلين النائمين. ثم بسرعة وجدت فوّهة الكاتم أمام وجهي. لو أتيحت لي فرصة أن أرى نفسي بعد ذلك، لكنت رأيت وجهي متهشّماً بالرصاصة التي أُطلقت نحو أنفي.

لم يكن لديّ وقت لأتصرّف أو أحاول مقاومة ما يجري لي. ولكن هذه الفرصة أتيحت لي في الليلة اللاحقة مع حُلم آخر. كنت مسجوناً مع آخرين. كانت القاعة الطويلة مملوءة بنا. وكنّا نسمع أصوات إطلاق الرصاص في الخارج. كانت هناك مواجهة بين جماعة مسلّحة وحرس السجن، ونجحت هذه الجماعة المسلّحة في النهاية بقتل الحرس أو دفعهم إلى الفرار، ثمّ كسروا أقفال السجن وأخرجونا. احتضنوا بعضنا

وهنّأوهم بالسلامة، ولكنّي مع آخرين ربّما تجاوزنا العشرين نفراً، جرى فرزنا واحتجازنا من جديد، ولكن ليس في السجن نفسه، وإنّما في سيارة حوضية كبيرة، انطلقت بنا مع رتل الجماعة المسلّحة المكوّن من باص صغير مع سيارات دفع رباعي، وسيارة بيك آب عليها رشاش أحادي.

أثناء سير الرتل بسرعة كبيرة على طريق دولي، أخذت وقتاً كافياً لتجميع الموقف الذي كنت فيه. أنا ذاهب للموت لا محالة. وقد تمّ فرزي مع هذه المجموعة الصغيرة استناداً إلى تمييز طائفيّ. سيتمّ قتلنا في مكان ما في نهاية المطاف. حاولت فكّ الوثاق القماشيّ من يديّ المعصوبتين إلى الخلف. كان مربوطاً بإحكام. ثم انتظرت أن يلتفت المسلّحون في حوض السيّارة إلى جهة أخرى بعيداً عنّا، فوقفت على قدميّ بصعوبة داخل حوض السيارة المتحرّكة، وقلت سأرمي نفسي من السيارة وليكن ما يكون. كلّ شيء أهون من الموت بطريقة الإعدام. شاهدني أحد المسلّحين وأنا أنهض فوجّه سلاح الكلاشينكوف نحوي وأمرني بالعودة للجلوس، ولكنّي لم أفعل. واندفعت باتّجاهه لأضربه بجسدي.

دارت معركة صغيرة وسريعة، وسط صمت رفاقي الذين لم يتشجّعوا لفعل شيء. وانتهت هذه المعركة بأن وجّهوا إطلاقة إلى رأسي ثمّ رموا بي من حوض السيارة إلى أسفلت الطريق. كنت ميتاً حين سقطت ولم أتحسّس ألم كسر عظام وجهي وجمجمتي.

كان شعوري مختلفاً صباح اليوم التالي. لم أجد في نفسي رغبة ما للبكاء والنحيب على نفسي التي قتلت. شعرت بأنّ موتي الأخير كان أكثر نبلاً ويدعو للفخر. على الأقلّ لم أستسلم لقدري، ولم يشلّني الخوف، كما كان يحصل في القصص السابقة، واستطعت التفكير والتصرّف، حتى

وإن أدّى هذا الأمر في النهاية إلى موتي. لم يكن موتاً سهلاً ويسيراً على قاتلي، وهذه حدود ترضيني على أيّة حال.

في الحُلم اللاحق، كنّا مجموعة من الشباب محتجزين في غرفة، وكان هناك من يساوم على أسعارنا. إنّها عصابة خطف محترفة، تقدّم الأضحيات لمن يريد الانتقام ويريد إشفاء غليله بقتل شخص انتقاماً ممّن قتل عزيزا على قلبه من أفراد عائلته أو قريباً.

كنّا مثل الخراف، ولكلّ خروف سعرٌ معين، تبعاً لملامح وجوهنا أو مظهرنا الخارجي. ذلك الوديع اللطيف المليء بالبراءة لا يبدو مغرياً، إنّه يُشعر القاتلين المنتقمين بالذنب أكثر. ولكنّ صاحب الملامح الشرسة، يوحي بأنّه يستحقّ العقاب، وهو «خروف» مناسب لتنفيذ الثأر.

لم أكن أعرف هل أنا من الخراف الوديعة أم الشرسة، ولكنّي كنت داخل الحلم أتذكّر ما حصل في الحُلم السابق، وهذا تفصيل جديد وتطوّرٌ هامّ، وما هو أهمّ أنّني صرت أعرف أنّني إذا متّ هنا فإنّني لن أموت في الحقيقة. لذا وما أن دخلت العصابة المحترفة علينا إلى غرفة الحجز، حتى ضربت الشخص المتقدّم منهم بلكمة قوية أفقدته توازنه واستطعت بعدها بسرعة أن أسحب سلاحه منه. قتلت إثنين منهم قبل أن يزخوني بوابل من الرصاص من رأسي وحتى قدميّ، وحرمت نفسي بذلك من متابعة بقية القصة، وما حصل لبقية الشباب المخطوفين.

في الليلة الأخيرة التي سبقت موعد عودتي إلى بغداد، حدث تطوّر آخر أكثر إثارة. كنت في سيناريو مشابه لما جرى في الأحلام السابقة، ولكنّني هنا جنديّ مختطفٌ مع جنود آخرين، يحيطنا الإرهابيون من كلّ

اتّجاه، ويحرّضوننا بصياحهم وشتائمهم على التقدّم. دخلنا إلى ما يشبه القصر أو البيت الكبير، ولم يبد أنّهم يريدون ضيافتنا أو تقديم الطعام لنا. خرجنا من باب يطلّ على حديقة واسعة خلف القصر، وبقيت الأوامر أن نسير ولا نتوقّف، حتى عبرنا سياج الحديقة وصرنا أمام مشرعة نهر صغير. هناك تقدّمت مجموعة منّا وصارت على حافّة النهر تماماً. جعلوا الشباب يبركون على الأرض، ثم تقدم مسلّح ملثّم وصار يطلق النار على رؤوسهم من الخلف تباعاً مع صيحة «اللّه أكبر» فيسقطون إلى النهر. كان الرعب يستولي على الجميع إلّا أنا، كنت أنظر حولي، وأراقب خيارات الهروب المحتملة. كنت خلال الطريق كلّه أحاول إرخاء وثاقي، ونجحت في فتحه، ولكنّي أبقيت يديّ إلى الخلف لأوهم العصابة الإرهابية بأنّني ما زلت موثقاً. دفعني أحد المسلّحين كي أتقدّم، وما أن هبطتُ إلى حافّة النهر حتّى استدرت بسرعة واختطفت سلاح الكلاشينكوف من يده. بقيت أطلق النيران باتّجاهات متعدّدة، وربّما قتلت من جماعتي المخطوفة دون قصد، ولكنّني بكلّ تأكيد قتلت عدداً من المسلّحين وأجبرت بعضهم على التراجع والتمترس بالحيطان وخلف الأشجار. لم أتوقّف عن إطلاق النيران وأنا أركض لاحتمي خلف سياج الحديقة الخارجيّ المواجه للنهر، ثمّ بقيت أركض، ولديّ شعور بأنّه هروب لا معنى له، فالمسلّحون يسيطرون على كامل المنطقة، وبإمكانهم أن يطاردوني ويطلقوا النيران عليّ مرّة بعد أخرى حتّى أسقط قتيلاً، ولكنّي لم أهتمّ بهذا التفصيل، قدر إهتمامي بتنفيذ أطول عملية هروب ممكنة، مع التسليم بخاتمة الموت على أيّة حال.

بقيت أركض وأطلق المسلّحون النيران عليّ من بعيد، ولكنّهم لم

يتقدّموا. كانوا مشغولين بالمجموعة الكبيرة من المختطفين، ويريدون التركيز عليهم وإنهاء مهمّة قتلهم بوقتٍ وجيز. ظلّ اثنان منهم يطاردانني. رميت باتّجاههم بشكل عشوائي وقتلت أحدهم، وبقيت أركض، إلّا أنّ صديقي الكرديّ أيقظني من النوم وأخرجني بقسوة من خضمّ الحُلم المليء بالانفعالات.

لم أمت. وهذا يحدث لأوّل مرّة منذ بداية هذه المحنة. وحين أيقنت بأنّني لن أعود إلى النوم مجدّداً، شعرت بزهو ودفقة كبيرة من المشاعر الإيجابية تغزوني بالكامل، ورغبت أن أتّصل بزوجتي على الهاتف، ولكنّي وفّرت الأخبار الجيّدة للقائي المباشر معها.

حين عدت إلى بغداد أخبرت زوجتي بالحدث الهامّ. ظلّت تنصت متحمّسة لتفاصيل القصّة التي تشبه ما يجري في الأفلام، ثمّ علّقت بأنّ هروبي كان شبه مستحيل، وفي الواقع لا تجري الأمور عادة بهذه الطريقة.

ـ ماكنة الحُلم تساهلت معك هذه المرّة.. أرادت إعطاءك مكافأة، وإلّا فإنّ هذه العصابة سيطاردك أتباعها حتّى لو وصلت بالركض إلى بغداد.

- 4 -

نعمت بعدّة ليالٍ هانئة بدون أحلام ولا مطاردات أو عصابات، ثمّ هجم عليّ حُلمٌ جديد. كنت مع عائلة تبدو وكأنّها عائلتي، نحمل أغراضنا المنزليّة على ظهر سيّارة صغيرة، وكانت هناك عجوز تبكي، لم أعرف علاقتها بي بالضبط، وفهمت أنّنا مهجّرون، ثم جاءت مجموعة من المسلّحين تراقبنا من بعيد، وكأنّها تريد التأكّد من استجابتنا للتهديد ومغادرة المنطقة السكنية التي نقيم فيها. كان هناك شابٌّ صغير معي، ربما

هو أخي في الحُلم، يحمل تحت حزامه مسدساً، فاستوقفته وسألته لماذا لا يستخدمه، فردّ عليّ بأنّه لو فعل ذلك فسيقتلون العائلة كلّها.

استللْت السلاح من حزامه وركضت باتّجاه المجموعة المسلحة وصرت أرمي باتّجاههم. قتلت أحدهم ولاذ البقية بالفرار. عدت إلى عائلتي الحُلمية، وطلبت منهم إعادة الأغراض إلى البيت، وطلبت من أخي الحُلمي أن يذهب من فوره إلى الجهة التي أخذ منها هذا المسدس لتدبير أسلحة أخرى.

كان أطول حلم مرّ علي، مليئاً بالتفاصيل، وانتهى بأن تحوّل جدار البيت الخارجي إلى مصدّ لنيران عصابة مهاجمة، وأنا مع أخي المفترض ورجلين آخرين نقاتل لحماية أنفسنا والعائلة في البيت. قتلوا أخي في البداية وأحد الرجلين الغريبين اللّذين تضامنا معنا، ثمّ لم أنتبه لنفسي وصرت مكشوفاً لبضعة ثوانٍ كانت كافية لتسديد إطلاقة بندقية إلى رأسي.

في حُلم الليلة اللاحقة، كان أخي الافتراضي معي وعدّة رجال آخرين، ونحن نطارد العصابة المسلّحة بين الأزقة والشوارع. كان أحدنا يحمل قاذفة استطاعت تهديم حائط مع باب خارجي بفردتين كبيرتين، تسهيلاً لدخولنا وتصفية العصابة المسلّحة التي احتمت بهذا البيت.

كنت أروي كلّ ما يحدث لي داخل الحُلم لزوجتي وأنتظر منها تعليقات محدّدة، فأنا لا أفهم تماماً ما يحصل، وأنتظر من زوجتي أن تفسّر لي. وفي هذه المرحلة قالت زوجتي؛ إنّ «المادّة» الحُلمية تتغيّر باتّجاه ايجابي، وهذا يعني أنّ سمومها قاربت على النفاد.

في الأحلام اللاحقة كنت أُقتَلُ أحياناً، وفي أحيانٍ أخرى أنجحُ في الفرار، ولكنّ أهمّ الأحلام هي تلك التي أقوم بها، لا بالفرار من القتلة وإنّما مواجهتهم والاقتصاص منهم والبقاء حيّاً حتّى نهاية الحُلم. ولكنّني كنت أعرف بأنّ هذه النتيجة الإيجابية كانت مرهونة دائماً بالظروف التي أجد نفسي فيها داخل الحُلم. فرغم أنّه حلم إلّا أنّ قواعد العالم الواقعيّ تنطبق عليه في كثير من الأحيان. وهذا هو الأمر المثير، وهو سبب المشكلة التي عشت فيها أصلاً.

مضت ثلاثة أسابيع وأنا على هذه الحالة. عدت إلى عملي في الجريدة، واستعدت إيقاع حياتي الطبيعية. صرت أحلم بقصص جديدة، ولكنّي توقّفت عن سرد أحلامي لزوجتي. لم يعد الأمر مهمّاً، وهي استشعرت أنّني تجاوزت المحنة التي كنت فيها. صرت إنساناً عادياً يواجه متاعب الحياة المعتادة، كما أيّ إنسان آخر، مع أحلام وكوابيس يبدو بعضها مزعجاً، ولكنّها مجرّد أحلام وكوابيس ليس إلّا. ثمّ مرت أسابيع أخرى كانت الأحلام فيها تجري على وتيرة شبه ثابتة، فأنا أقود مجموعة مسلّحة للاقتصاص من القتلة والمجرمين. أقتلهم قبل أن يوجّهوا بنادقهم باتّجاهي لقتلي أو قتل أبرياء آخرين. وينتهي الحلم من دون أن أصاب بخدش واحد.

كنّا، أنا وشبابٌ صرت أعرف وجوههم جيداً، حتى لو وضعوا اللثام، نستبق الحوادث قبل وقوعها. نتسوّر أسيجة عالية، ونكسر أقفال الأبواب لنباغت الإرهابيين وهم في أوقات راحتهم، ونمنعهم برصاصنا الذي ينزل مثل مطر على رؤوسهم من القيام بأيّة أعمالٍ إجراميّة لاحقة.

- 5 -

كنت مع المجموعة المسلّحة الصغيرة التابعة لي والمكوّنة من خمسة أفراد، نقود سيارتَي دفع رباعي في ليل بغداد. كان الطقس بارداً، والنوافذ مغلقة. لقد قطعنا نصف شوارع بغداد في الطريق إلى هدفنا. كنتُ أجلس بجوار السائق وأستمر بتوضيح فكرتي عن كون الرصاصة التي تقتل إنساناً في الشارع يسبقها بكلّ تأكيد نوايا قتل، وأنّ الذي يغذّي نوايا القتل هو شريك بالرصاصة التي تقتل. لذلك فإنّ قائمة المجرمين تغدو كبيرة، وعلينا قتل نوايا القتل قبل أن نواجه الرصاصة بالرصاصة.

كنت أنا نفسي موجوداً داخل الحُلم بوعيي ذاته، وكنت قادراً على إدارة دفّة الحلم بالاتّجاه الذي أرغبه، وكأنّني أنا من يصنع هذا الحُلم ويعيشه، أو أنّني أتوهّم ذلك وأحاول تصديقه.

دخلنا بالسيارتين إلى شارع فرعي، ثمّ توقّفنا أمام بناية أنيقة. كان الباب الخارجي مفتوحاً. وضعنا اللثام على وجوهنا ثم دخلنا بسرعة. كانت قاعة مليئة بالحواسيب، وحالما شاهدنا الشباب الذين كانوا فيها حتى وقفوا على أرجلهم، وأصيبوا بصدمة جعلتهم يتجمّدون في أماكنهم، فهذا تأثير مرأى السلاح مشهراً في الهواء.

كانوا سبعة شباب، كتّفناهم سريعاً، ثم دفعناهم للخروج. وحين أدخلناهم عنوة إلى السيارتين إنتبهت أنّ أحدهم هو عاملٌ بنغالي. لم يعد هناك مجال للتراجع، أو أنّني لم أهتمّ لهذا التفصيل، ولم أرغب بالتفكير به. كان وقتنا ضيقاً.

أغلقنا الأبواب في السيارتين، ثم تحركنا، وقبل أن تستدير السيارة التي

كنتُ فيها من رأس الشارع الفرعي باتّجاه الشارع العام، شاهدت شابّاً واقفاً وعلى وجهه علامات الدهشة والرعب. يمسك سيجارة في يده المرفوعة إلى شفتيه، بينما علبة السجائر في يده الأخرى. تأمّلت وجهه ونحن نتقدم لنمرّ بجواره فاتّضحت ملامحه داخل العتمة التي تكسّرها أشرطة الضوء القادمة من فناء البيوت المجاورة.

عرفت الوجه سريعاً، ورغبت لحظتها أن أصحو. صرخت وأنا في السيارة منادياً باسم زوجتي، طلبت أن أصحو. ناديت «السرّ الخفي» كي يتدخّل. كنت متيقناً قبل هذا الوقت بأنّ سمّ الأحلام قارب على النفاد من رأسي، ولكنّي في هذه اللحظة أحسست بوهم كلّ قناعاتي. وأنّني سأبقى أسير هذا العذاب، حتّى ساعة موتي الفعلي.

اختفى وجه الشاب الذي داهمه الرعب من منظرنا، ونحن ندخل بالسيارتين إلى الشارع العام، ولكن ملامحه لم تغادرني أبداً، فهي ملامحي أنا.

قتلنا المختطفين السبعة برصاصات خلف الرأس، وألقيناهم في مبزلٍ جاف، ثم عدنا متفرّقين كلٌ إلى بيته. لكنّي لم أصحُ، ولم أذهب إلى البيت!

بقيت أتجوّل في الشوارع بسيارة الدفع الرباعي، منتظراً حدوث شيء ما يؤذن بنهاية الحلم وعودتي إلى فراشي، ولكنّ هذا لم يحدث، صرخت، صحت. لم ينفع أيّ شيء. أوقفت سيارتي بجوار مطعم قريب من المسرح الوطني. كان الوقت متأخّراً ولكن المطعم مفتوح. نزلت وبقيت جالساً على طاولة خارجية وأنا أفكّر بشغل نفسي بعشاء متأخّر. فلعلّ «السرّ الخفي» يعطف عليّ ويرقّ قلبه تجاه حالتي الغريبة، وينهي هذه العقوبة غير المبرّرة. بقيت آكل من المقبّلات التي وضعها عامل الخدمة أمامي.

وأراقب تدافع الدقائق وكأنّها تأكل نفسها ولا يتقدّم الوقت في هذه الليلة التي لن تنتهي أبداً.

- 6 -

في اليوم التالي أصدر الحزب الذي يشرف على إصدار جريدتنا بياناً غاضباً، وتوعّد بالثأرللصحفيين الذين قتلوا، وأنّ ذراعه المسلّح قادر على الانتقام من الإرهابيين في الوقت الذي يراه مناسباً، محذّراً من تكرار الاعتداء على مكاتب الحزب. وانتهى البيان من دون ذكر للعامل البنغاليّ المسكين الذي راح ضحيّة معركة لا تخصّه بأيّ شكلٍ من الأشكال.

صحوت عند الثانية بعد الظهر وأنا أبكي في سريري. لقد ذهب أصدقائي إلى غير رجعة، ولن استطيع استعادتهم أبداً. كنت ليلتها أريد إرسال العامل البنغالي لجلب علبة سجائر، ولكنّي رأفت بحاله، فهو يقف على رجليه من الصباح وحتى هذه الساعة المتأخرة يعمل مثل العبد المطيع دون تذمّر أو شكوى، وكلّ ذلك لقاء مرتّب زهيد، يرسل أغلبه إلى عائلته في دكا. لذلك نهضت وذهبت بنفسي لشراء السجائر.

في نهاية الأسبوع عثرت قوّة من الشرطة المحلّية على الجثث في مبزلٍ متروك في أرض زراعية جرداء عند أطراف بغداد. وحينما شاهدت الصور الأوّلية لركوعهم بشكل متتابع داخل المبزل، انهدم شيءٌ ما في داخلي، وبدأت رحلتي مع الكوابيس الثقيلة. قرّرت وقتها الانتقام لهم، لكنّ زوجتي تخبرني دائماً أنّ هذه مهمّة غير مناسبة لي. وعليّ أن أترك كلّ شيء للّه، فهو القاهر المنتقم الجبّار.

دخلت إلى حمّامات المطعم بعد انتهاء عشائي المتأخّر، ولم يكن

تداخل الحلم مع الواقع قد انتهى بعد. وقفتُ أمام مرآة الحمّام وبقيت أنظر إلى وجهي المرهق. خطر شيء ما في ذهني، فرفعت غترتي الحمراء من كتفي ولففت وجهي بها، وتركت عينيّ ظاهرتين فحسب. نظرت إلى هيأتي هذه في مرآة الحمّام، وكأنّني أريد رؤية نفسي في إطار المهمّة غير المناسبة كما تقول زوجتي.

كنت أنظر إلى المرآة ولكنّي لا أرى غير نفسي التي رأيتها هناك، واقفة في ليل الشارع. عارية الوجه إلّا من رعب لا حدود له.

تقابل الوجهان، الملثّم والمكشوف، واخترقت النظرات المتبادلة على برهة ثانيتين لا أكثر حاجزاً ما وكسّرته، وتعانقت وكأنّها مصافحة أبدية، بحيث لم أعرف حتّى الساعة بصوت من أتحدّثُ لكم الآن في هذه الحكاية. ومتى ينتهي هذا الحلم الرهيب لأصحو فعلاً.

الرومانسي

1 ـ قَدَم

حين لمستُ قدمك الصغيرة السمراء، وأنت تستلقين عارية أمامي على السرير، أتأمّلها وأقبّلها قبلات متتابعة، راح ذهني إلى أشياء بعيدة، فتذكّرت أوّل قدمٍ نسائية لمستها. كان ذلك في سنّ السادسة عشرة أثناء عملي في معرض أحذية النورين في شارع السعدون، وهو المعرض الرئيس لدى عائلتي التي تمتهن منذ عقود طويلة صناعة وبيع الأحذية بكلّ أشكالها وأنواعها. كنت صبياً صغيراً وكان والدي الحاج ابراهيم يرغب أن أشترك مبكّراً بأجواء العمل، مع أخي الكبير خالد، وأولاد عمّي. رغب والدي أن أبدأ من الأسفل، مجرد عامل صغير في المعرض.

في تلك الفترة أمسكت بكواحل وأقدام بيضاء وسمراء وحنطية، وتركتني إمرأة أربعينية أمسح على باطن ربلة ساقها أثناء ما كنت أحاول تثبيت الحذاء الضيق على كفّ قدمها. لم أعرف متى اخترقت ذلك الحاجز الخفيّ ما بين العمل الروتيني المعتاد والاحتكاك الحسّي مع أجساد النساء، من خلال الأحذية. إرتفاع نظراتي نحو الوجه في الأعلى، تبادل الابتسامات، تكرار تجريب الأحذية واحداً تلو الآخر في محاولة من بعض النساء لإطالة أمد التلامس ما بين سيقاهن وأقدامهن الممدودة

واليدين الماهرتين للشابّ الصغير الجالس مثل خادم تحتهنّ، أنا خليل إبراهيم، الذي تدرّبت طويلاً لتكون حركاتي أكثر رقّة ونعومة بالتعامل مع أرجل النساء.

من الأحذية النسائية والتماس الأوليّ ذي الأهداف الضبابية والتي يستشعر غموضها شخصان أثنان؛ أنا والمرأة الزبونة، ولا يستطيع رصدها الناظرون الآخرون، من هذا المستوى من التماسّ الحسّي إلى العلاقات المفتوحة مع فتيات أو نساء ناضجات، حتّى أنّني حين وصلت إلى سنّ العشرين كنت مشبعاً بالجنس، ولا أتذكّر أنّني عانيت من مشاكل كالتي يمرّ بها أقراني في الثانوية والجامعة، كإغراق النفس في الرومانسية والأغاني. لم أبك لرحيل إمرأة أو فقدانها، كان قلبي يرفّ أحياناً لمرأى فتاة من زميلاتي في كلّية الآداب بجامعة بغداد، ولكنّ الصورة التالية كانت تخرّب التورّد الرومانسي لبرعم الحبّ في قلبي، فسرعان ما أتخيّل هذه الفتاة عاريةً وأنا معها في وضعٍ حميم. كما أنّي صرت انتبه جيداً للهنات والثغرات في صورة البنت الخارجية أو طريقة سيرها وكلامها وتصفيفة شعرها. أيّة شائبة كانت تخلق عندي نوعاً من النفور.

لذلك يا عزيزتي أوروك، لم أجد في حياتي كلّها مبرّراً للارتباط الدائم، أتزوّج أو تكون لي علاقة ثابتة طويلة، كما أنّني لسبب ما كنت أميل إلى النساء اللائي يكبرنني بالسن، ربما بسبب تجاربي الجنسية الأولى، وكانت هذه المسافة بالعمر ما بيني والمرأة المشتهاة تتقدّم معي، حتى وصلت أنا إلى سنّ متقدّمة وتخرّبت المسافة النفسية لعمر المرأة الكبيرة عندي. فأنا الآن وقد عبرت الخمسين لا استطيع الانجذاب لمن عبرت الستّين مثلاً. ربّما لأنّني في العمق ما زلت أحتفظ بعين روحي الداخلية، التي توقّفت

عند عيني ذلك الصبيّ في محلّ الأحذية النسائية. هذه العين تقول لي الآن في هذه اللحظة، إنّ المسألة لم تكن تعلّقاً بالنساء الأكبر منّي سنّاً، وإنّما بنوعٍ من الجمود في لحظة المراهقة. وأنت يا أوروك الآن، ذات الخامسة والثلاثين، تمثّلين لي صورة تلك المرأة الناضجة، عشيقتي الأولى، التي دخلت أوّل مرّة، تطرق بصوت كعبٍ عالٍ، إلى محلّ أحذية النورين في ذلك النهار البعيد، وأنا أمامك، الآن، داخل هذه العتمة المقطّعة بنورٍ شفيف، ذلك الصبيّ ذاته.

2 ـ ركبة

وأنا أتقدّم بقبلاتي الطقسية هذه حتّى أصل إلى ركبتك، انتبهت على ضوء الغرفة الباهت إلى أثر جرحٍ مندمل.

ـ إنه جرحٌ من أيّام الطفولة.

أجبت أنتِ بحنجرة جافّة ودون تفاصيل كثيرة. قبّلتُ الجرح المندمل ووزّعتُ قبلاتي على أرجاء الركبة الصغيرة. وتذكّرتُ جرحاً مشابهاً في ركبتي اليمنى، ربما لن يبين الآن، بسبب التقدّم في السنّ والشعر الذي يغطّي الركبة.

كنتُ تعثّرت في الطريق وسقطتُ على وجهي بسبب ركضي السريع لمناداة عمّي في الضفّة الثانية من شارع الرشيد، بعد أن أخذ الحزبيون والدي الحاج ابراهيم، بسبب إيوائه فارّاً من الخدمة العسكرية في ورشة صناعة الأحذية كما زعموا.

في نهاية اليوم أطلقوا سراح والدي بعد توسّط بعض المعارف، وكنت

أسير بين الناس الذين كانوا في المحلّ وأنا أعرج، حتّى انتبه أخي الكبير خالد إلى الدم الذي يغطي بنطلوني، فأخذني إلى عيادة ممرّض قريبة وعالج الجرح الذي لم انتبه له بسبب رعبي ممّا حدث، وأنّبني خالد كثيراً لأنّه يعرف أنّني لا أعرف المشي مثل الصبية الآخرين وإنّما أنتهز أيّ فرصة للركض، أعبر على سلال النفايات، أو بقع الماء في الشارع، أقفز من على الأسيجة الواطئة، ويشاركني في هوسي هذا صديقي الذي يكبرني بعامين، سليم أيوب، ابن حجي أيوب الفلسطيني، أسطة الأحذية في ورشة أبي.

كنّا نخرج راكضين حتّى نزلة النهر المجاور، قرب ساحة التحرير، ننزل إلى الماء حتّى منتصف اجسادنا، نصنع بأيدينا أمواجاً متتابعة، ثم نتوقف لنرى كيف تندفع هذه الأمواج بعيداً حتّى تذوب على سطح الماء. نصطاد السمك بالسنّارات. ننشغل بشؤون كثيرة لا نجد الوقت الكافي للقيام بها كلّها، ولا نعرف الشيء الكثير عن عالم الكبار الذي كان يرزح تحت وطأة الحرب التي ابتدأت، وجملة من المشاكل المتعلّقة بتجارة الجلود والموادّ العديدة الداخلة في صناعة الأحذية، والتنافس مع المنتج المستورد، واشتراطات السلطة، وجمع التبرّعات من التجّار والصناعيين للحرب، ثم ذهاب الشباب الكبار إلى الجبهات، واختفائهم بالتدريج من الورشة، حتّى انتهى المطاف إلى خالد، أخي الكبير، الذي غادر ذات صباح مرتدياً الملابس العسكرية.

كنّا نركض وكانت الأحداث كلّها تركض معنا، ثم شاهدت العمّال المصريين يحلّون في الورشة ليسدّوا الفراغ. صارت ورشة الحاج ابراهيم مجتمعاً عربياً صغيراً، فيها أسطة أيوب الفلسطيني، وبضعة عمّال عراقيين

مع آخرين مصريين وسودانيين. وما هو أهم من مظهر هذه الخلطة، أنّها خلطة ناجحة لاستمرار العمل وعدم توقّفه.

الجرح الصغير في ركبتي يمكن أن استثمره الآن في انشاء صورة أكبر عن جرح مشابه في ركبة الوطن والبلد، جعلته يتثاقل في الحركة، حتّى ازداد الألم في هذه الركبة وجعلته يتوقّف ثم يُقعي على الأرض.

كان هذا التوقّف مع الحرب الثانية ثمّ العقوبات الاقتصادية الدولية التي جمّدت الكثير من أعمال القطاع الخاص. توقّفت الكثير من معامل الأغذية، والورش الصناعية التي تعتمد في عملها على موادّ أوليّة مستوردة.

تراجع العمل في ورشة الحاج ابراهيم إلى حدود النصف، ثم بعد منتصف التسعينيات صار الأسطوات والحرفيون يغادرون إلى عمّان. أو يذهبون ليفتحوا ورشاً صغيرة في أحيائهم السكنية. اضطرّ والدي وعمّي إلى التحوّل التدريجي إلى التجارة، ووظّفوا رؤوس أموالهم في مشاريع أخرى، مع الاحتفاظ بالمعارض الرئيسة للأحذية.

كان الأمر بمجمله وصفة للتراجع، وكان والدي يعلّق أحياناً على هذا المسار الذي شملنا مع آخرين غيرنا من أصحاب رؤوس الأموال الصناعية، أنّ الاستثمار الحقيقيّ الذي يلخّص جهد عمره هو في شيئين أثنين تحديداً؛ ولداه خالد وأنا، والبيت الكبير في حيّ الواديّة، ذي الستّمئة متر والذي كنّا نسكن فيه.

بعد وفاة والدي في 2002 ثمّ مجيء الاحتلال وسقوط النظام السابق، وبدء أعمال العنف، هرب الكثير من الأسطوات من ورش صناعة الأحذية إلى سوريا وصاروا يعملون هناك. ثم مات الحاج أيوب الفلسطيني، أشهر أسطة أحذية لدينا، في عام 2005.

صرنا أنا وخالد أصحاب محالّ أحذية ليس إلّا، وانطوت صفحة صناعة الأحذية بشكل تامّ، وكان هذا قراراً حاسماً من خالد، وكنت أنا على حافّة المشهد، أتّبع ما يقوله أخي الأكبر ولا أجادله، خصوصاً ونحن نرى أنّ البلد قد برك تماماً على ركبتيه، وليس هناك من أمل أن ينهض قريباً.

3 ـ فخذ

ها أنذا أمسح على فخذك الجميل، وأوزّع قبلاتي الصغيرة على ملمسه الناعم. أقلبك قليلاً كي أصل بشفتيّ إلى المناطق السفلى من الفخذ، وأستغرق مع نفسي، فهذه عادة لا أستطيع مقاومتها. لقد تذكّرت شيئاً يشبه هذا الفخذ الناعم المنبسط. كنت في سيارة سامي أيوب، صديق العمر، الذي استقبلني في مطار بيروت، حينما وصلت إلى هنا قبل اسبوعين، وحالما دخلنا إلى الشارع المحاذي لشاطئ بيروت، أحسست بأنّ البحر قد هجم عليّ بمنظره. كان سامي يشرح لي المناطق التي نمرّ بها، وها نحن نمرّ بجوار فندق الموفنبيك ونعبر إلى تقاطع جادّة باريس ومن هناك حتّى ميناء الحصن وعين المريسة، بينما أنا مسحور بمنظر البحر. كان، للمصادفة وعلى امتداد الطريق المحاذي للشاطئ، ساكناً وهادئاً بسطحه المحدّب، وكأنّه امتداد لفخذ إمرأة هائلة تستلقي أمام ناظريّ. انغرز هذا التشبيه في ذهني عميقاً.

كانت هذه زيارتي الأولى لبيروت، بل لأقل؛ إنّها أوّل سفرة لي خارج العراق بشكل عامّ. حطّت طائرة خطوط الشرق الأوسط في مطار بيروت في الحادية عشرة صباحاً، الثالث من آذار 2015. كنت مثقلاً بهموم حملتها

معي من بغداد، وانتبه سامي لذلك، ورأيت في ملامحه أنّه ينتظر منّي أن استفيض وأشرح ما بي، لكنّي لم أعرف حينها ماذا أقول له.

أخذني إلى هذه الشقة التي نحن فيها الآن، في حيّ يطلّ على شاطئ الرملة البيضاء، قال سامي إنّ مدير عمله السوري يملكها، ولكنّه لا يقيم فيها إلّا بضعة أيّام خلال السنة، وخمّن سامي أنّ هذا المدير لن يحضر في هذه الأيّام، كان يريد أن يمنحني المزيد من الهدوء والخصوصية، وأنا لم أكن أفكّر بمتطلبات محدّدة في واقع الحال.

أنت تقولين إنّك مقيمة هنا منذ سنوات وربّما اعتدت عليها، ولكنّ كلّ شيء في هذه المدينة أثار دهشتي، وأنا أتجوّل مع سامي في الشوارع، أو نتغدّى في مطعم مطلّ على البحر الذي ظلّ يجذب انتباهي، فأراقبه أثناء الأكل كيف يدفع امواجه الصغيرة ببطء إلى الأعلى، ثمّ سرعان ما تخمد ليبتلعها البحر، رغم أنّهما، هذه الأمواج والبحر، كلاهما الشيء نفسه.

ظلّ سامي يسحبني لارتياد أكبر عددٍ من الأماكن في وقتٍ وجيز، وكم شعرت بالندم لأنّني احتفظت طوال السنوات الماضية بحاجز نفسي تجاه فكرة السفر. كان لديّ ما يكفي من المال غير أنّ سامي لم يتركني أمدّ يدي إلى جيبي، ولكنّه نبّهني ضاحكاً أنّ هذه ضيافة خمسة نجوم لمدّة يومين لا أكثر، فهو ملزم بمتابعة أعماله في محالّ الأحذية التي يشرف عليها، وسيكون لديه وقتٌ للّقاء ليلاً في الأيام القادمة، وعليّ خلال النهار أن اتسكّع وأعمل ما أحبّ لوحدي.

في الليلة الثانية سهرنا في «ذا بار» بالفورسيزنس، وتبادلنا الأحاديث حول مختلف الشؤون، تذكّرنا أهلنا، وما جرى في السنوات السابقة.

وحين انتهينا إلى لحظتنا الحاضرة، لم أكن متيقناً بعد من أهدافي هنا، لذلك حرصت على ترسيخ فكرة في ذهن صديقي أنّني جئت هنا للسياحة. رغم أنّي أعرف ذكاء سامي ومعرفته الدقيقة بي، وأنّه لم يكن يصدّق كلامي.

سكرنا، وكنت أفعل هذا لأوّل مرّة منذ أشهر، وعلى المقاعد الصيفية في بار صغير بشارع الحمرا شاهدت الشباب من مختلف الجنسيات وهم يرقصون ويغنّون. وجاشت المشاعر لدينا وصرنا نصفّق ونغنّي أيضاً، ثمّ خلال ذلك كلّه كان سامي بتأثّر واضح يؤكّد لي أنّه مدين طوال عمره لكلّ ما فعلته أنا من أجله. وأنّه مستعدّ أن يصنع المعجزات من أجل أن يردّ الدين.

أثّر فيّ كلامه، ولكنّي في الحقيقة لم أكن أبحث عن ردّ دين أو أيّ شيء آخر. أحزنني أنّ هذه الجلسة الجميلة دفعت سامي إلى هذه الاعترافات، وربّما احرجته أنا بمقدمي إلى بيروت هكذا من دون خطط واضحة، وربّما السبب هو في هالة الحزن التي كانت تغلّفني رغم كلّ الضحك والمرح الذي اشتركنا به.

شاهدته يدخل في حلقة الرقص الارتجالية ويتشارك مع إمرأة ممتلئة رقصة على أغنية مصريّة. كانت حركاته داعرة ولكنّها منسجمة مع الجوّ العام. ضحكت وصفّقت كثيراً، ثمّ انتبهت إلى الأزواج من الراقصين الآخرين، شباباً يتحاضنون ويقبّل بعضهم الآخر دون حرج، وهم في خدر الشرب والموسيقى، فلمستني يد الأسى بعمق، رغم أنّي كنت قبل عقدين أو أكثر أسمّي هذه الأشياء بالمشاهد السينمائية، وأسخر منها.

حين رجعنا إلى الشقّة التي أسكن فيها، وقفنا تحت العمارة، واستندت

بيديّ على كتف سامي، ولا أعرف لماذا قلت له إنّها كانت أعظم ليلة في حياتي، ربّما لأنّ هذه هي الأوقات المناسبة لإطلاق المبالغات، وهو أمر معتاد وطبيعي، ثم ذكرت له شيئاً عن المشاهد السينمائية التي شاهدتها في باحة البار الصيفي. أمسك سامي يدي ونظر في عينيّ وقال بكلّ ما لديه من جديّة:

ـ أطلب أيّ شيء وأنا أحقّقه لك.

كان سكراناً تماماً، ولم أتمالك نفسي فأطلقت ضحكة مدوّية:

ـ دور مصباح علاء الدين لا يناسبك الآن يا سامي ولا يناسبني، صرنا شيوخاً، وقد ولّى العمر.

ـ لا تقل هذا.. إخلع أجواء العراق من رأسك يا أخي.. هل شاهدت العجائز الذين يكبرونك بعقدين ماذا كانوا يفعلون اليوم؟ لماذا تدفن نفسك بهذه الطريقة.. جرّب وأطلب منّي أيّ شيء.

هتف سامي بحماسة، وكأنّنا صبيّان صغيران أمام محلّ ألعاب. تركت كتفه وفتحت ذراعيّ مثل طائر، واستسلمت لدفق اللّحظة الشعري، وقلت له:

ـ أريد أن أعود شاباً ولو لوقت وجيز.. أن أتجرّأ لأرقص مثل هؤلاء الشباب في الحانة.. أريد أن أعيش هذه اللقطات السينمائية التي سخرت منها سابقاً.

ـ تستطيع أن تفعل أي شيء تريده.. غداً نرقص مع الشابات إن أردت.

ـ أوف يا سامي.. لن تفهم قصدي أبداً.

قلت ذلك وأنا أودّعه لارتقي بعدها درجات مدخل العمارة.

4 ـ مؤخّرة

ها أنذا أقلب جسدك برفق، كي أرى مؤخّرتك المكوّرة الصغيرة، أتحسّس ملمسها الإسفنجي تحت يدي، وأضغطها قليلاً، قبل أن أتفرّغ لتقبيلها.

كنت مهووساً بالمؤخّرات، وأردّد ساخراً أمام سامي في أكثر من مناسبة تلك المفارقة التي التقطتها منذ وقت مبكر؛ أنّ المؤخّرة ذات التقاسيم المثيرة تجذب النظر، لكنّ الفرج غالباً هو من ينال المنافع من وراء ذلك.

لم تتوقّف المؤخّرات عن إثارة انتباهي أبداً. لقد تركني سامي أتجوّل في بيروت لوحدي، لكنّه يتصل بي كلّ حين كي يطمئنّ إلى عدم ضياعي أو تعرّضي للاستغلال. ها أنذا أشطب على مفردات السائح الاعتيادي تباعاً. أراقب مؤخّرات النساء متنوّعة الأشكال في محطّة تلفريك بيروت من وسط جونيّة، وأركب مع السائحين حتّى أعلى جبل سيدة حريصا.

هناك في الأعلى، وأنا أطلّ على معالم المدينة في الأسفل، انتبهت إلى مؤخرة مثيرة لفتاة ثلاثينيّة ترتدي بنطلون جينز عادياً ولم تكن بشكل مبهرج. كانت واقفة على سياج كافتريا تصوّر المناظر في الأسفل بهاتفها المحمول.

تعمّدت الوقوف على مسافة منها، وبقيت أدخّن وأجول بنظري في المكان، وأميل كلّ لحظة لأرى شيئاً من ملامح هذه البنت. كانت بحنك دقيق وأنفٍ مستدقّ وسمرة خفيفة مع شعر أسود مسترسل جمعته على شكل ذيل حصان غير محكم. ثمّ انتبهت إليها وهي تتحدّث عبر الهاتف، كانت تتكلم بلهجة عراقية، ما أثار انتباهي تجاهها أكثر.

بعد أقلّ من ساعة شعرت بالملل، فعدت إلى كابينات التلفريك، ركبت في واحدة، وركبت معي عائلة من زوجين وطفلتين صغيرتين، ثمّ يا للدهشة، ركبت معنا الفتاة السمراء ذاتها.

حين انحدرت الكابينة إلى الأسفل انتبهت أنّ هذه الفتاة كانت تستند بيديها على زجاج النوافذ العريضة، وتحني رأسها للأسفل. تجرّأت وهتفت نحوها سائلاً عمّا بها، فردّت بسرعة أنّها تخشى المرتفعات.

مضت لحظات فعاودت النظر باتّجاهي، كانت مليحة، بوجه غير معتنىً به بشكل جيد. قالت إنّها كانت بانتظار أصدقاء ولم يأت أحد. رددت أنا بأنّها المرّة الأولى لي أيضاً.

حين خرجنا من محطّة التلفريك انتظرتها، ولم تمانع من التسكّع معي. ثم حين دعوتها إلى شرب فنجان قهوة في كافيه قريبة استجابت. أخبرتها بأنّها الشخص العراقي الوحيد ـ إن تجاوزت ذكر صديقي سامي نصف العراقي ـ الذي أقابله منذ مجيئي إلى بيروت حتّى الساعة.

بقينا نثرثر حول أوضاع البلد، والحرب على الإرهاب، وقضايا كثيرة يمكن أن تنفتح من تلقاء نفسها بين أيّ عراقيين يلتقون بالمصادفة. أخبرتني أنّها تعيش في بيروت مع أمّها منذ سنوات، وهي تدرس الماجستير في إدارة الأعمال بالجامعة الاميركية وتعمل في شركة سياحة. وعرّفت نفسي أنّني تاجر أحذية وجئت إلى بيروت من أجل الراحة والاستجمام.

كان هذا لقائي الأول معك يا أوروك. من السذاجة أن أقول أنّك تعرفين ذلك، فهو لم يحدث منذ سنوات، وإنّما منذ اسبوعين تقريباً، ولكنّك تصرّين على أن أروي الأحداث هنا وكأنّك شخصٌ غريب، تريدين سماع هذه التفاصيل بأذنَي الشخص الغريب الذي يمكن أن أروي له كلّ هذه

الحكاية، وتعرفين أنّني لن أتحمّس لرواية هذه الحكاية مرّة أخرى لأيٍّ كان، حتّى لصديق عمري سامي أيوب.

لقد أخذتِني في مواعيد لاحقة إلى أماكن لم ارتدها مع سامي، وعرّفتني إلى أصدقائك السوريين واللبنانيين والفلسطينيين وغيرهم. جعلتِني أرقص في سهرة ما. لم أرقص سابقاً أبداً. سأخبر سامي إذن بأنّني رقصت مثل الشباب الصغار وانتهى الأمر. وما هو أهمّ من كلّ هذه التفاصيل أنّ كلّ اضطرابي الذي جئت به من بغداد كان يتلاشى حين أكون معك، ومعكِ أنجزت حواراً طويلاً ومتفرّعاً لا أتذكر أنّني أجريته مع امرأة منذ زمن طويل.

بعد أسبوع من لقاءاتنا اليومية كشفت لسامي تفاصيل الوقت الذي أقضيه بعيداً عنه. وكما في مواقف مشابهة كثيرة حصلت بيننا، أدّى سامي الدور المنوط به في محادثة من هذه النوع، فسألني بشكل مباشر وصريح:

ـ هل ضاجعتها؟

ـ لا.. ليس بعد.. أو.. أنا لست مهتمّاً بهذا الموضوع.

مطّ سامي شفتيه إلى الامام مستنكراً ثم قال:

ـ إن لم تكن مهتمّاً بمضاجعتها.. فللأسف أنت لست خليل إبراهيم.

5 ـ فَرْج

أصل بارتقائي البطيء إلى فرجك الذي علاه شعر عانة خفيف على شكل مثلث مقلوب. أقبّل الشعر ثم أنزل أكثر، وأنفي المشبّع بروائح جسدك صار يلتقط رائحة مختلفة. كلّ رائحة جديدة تمحو التي قبلها،

هكذا، ينحشر الإحساس مع جسدك باللّحظة الآنيّة فحسب. مثلما تمحو روائحك المتغيّرة كلّ ذكرى لروائح نساء أخريات. إنّها رائحة القاع، والموقف النهائي لإثارات الجسد. ليست روائح طيّبة ولا سيئة، وإنّما روائح الحقيقة الكثيفة والمعتمة. لذلك فالجسد الذي يغطّي روائحه الطبيعية بغلالة من العطور سيبقى جسداً مكسوّاً وليس عارياً بشكل تامّ.

تسألينني فأغوص في ذاكرتي لألمس صورة مقرّبة لهذه الرائحة المميّزة. وكأنّها روائح تعرّق مع رائحة ضعيفة لقرنفل مطحون. تقولين؛ إلى أين يمكن أن أرحل بذاكرتي مع هذه الرائحة المميّزة؟ أنا أعرف الجواب جيّداً. إنّه يأخذني إلى «هديل».

هديل هي إبنة عمّي الوحيدة، وكما يمكن أن تتوقّعي، فقد كانت هناك فكرة منذ طفولتنا أن أتزوّجها حين نبلغ مبلغ الشباب، لكنّ هذا لم يحصل.

جاءني والدي ذات يوم بخبر أنّ هناك من تقدّم لخطبة هديل ذات الخامسة والعشرين من العمر. لم يرغب الأب أن يفرض رأيه عليّ، ولكنّه توقّع أنّني سأمضي على الاتّفاق الشفهي القديم. غير أنّي خيّبت أمله.

تزوجتْ إبنة العم في 1998 بموظّف في وزارة التربية يملك مطبعة صغيرة في شارع الرشيد وهو في الوقت ذاته عضو فاعل في حزب البعث. كان يعيش حياةً مترفة ويريد ولداً بعد أن يئس من زواجه الأول. تأخّرت هديل بضعة سنوات، ثمّ في عام 2001 أنجبت إبنها «إيهاب».

بدأت التحوّلات الكبيرة مع سقوط النظام في 2003 وهروب الكثير من القيادات الوسطية لحزب البعث، إمّا تحسّباً لأيّة عمليات انتقام محتملة، أو بسبب تهديدات صريحة وصلتهم.

اختفى زوج هديل ذات يوم ولم يعد بعدها أبداً، ولم تعرف عائلتنا ولا عائلة زوج هديل أيّة أخبار عنه. هل فرّ خارج العراق؟ أم قتل؟

ظلّت هديل تقيم في بيتها بحيّ الأمين، ثم شاهدت مثلما شاهد الكثيرون شريط فيديو كان يباع في أقراص سي دي على أرصفة سوق الهرج بالباب الشرقي، وهو يعرض عمليات تعذيب لمعتقلين في زمن النظام السابق. كانت الملامح واضحة، ولا يستطيع أحدٌ إنكار ما رآه رغم أنّه يعود بتاريخه إلى عقدٍ مضى؛ لقد كان أحد الجلاوزة ممّن يضربون المعتقلين بالكيبلات هو أبو إيهاب، زوج هديل نفسه.

ظلّت الأحداث تتلاحق، واكتشفت هديل أنّ البيت الذي تقيم فيه هو ملك لعائلة زوجها ولم يكن مسجّلاً باسمه. وبعد عام اكتشفت أنّ هذه العائلة باعت البيت، فاضطرّت هديل للعودة إلى بيت أهلها في الكرّادة، لتبدأ بعدها مشاكل معقّدة بين العائلتين، من أجل الحصول على حقوق هديل وإبنها.

قبل أن يحلّ عيد ميلاد إيهاب الخامس كانت المشاكل قد تمّت تصفيتها بين العائلتين، وتم تطليق هديل غيابياً في المحكمة، ووقف أخوها الكبير أمامها مهدّداً بضرورة أن ترسل الولد إلى أهله.

عبثاً حاولت هديل أن تبيّن لأخيها الكبير أنّها هي أهل ابنها. لم تكن لديها خيارات كثيرة. بعد عدّة مشاجرات حملت هديل ابنها معها وذهبت إلى بيتنا، بيت حجّي إبراهيم، وهناك شرحت لخالد ولي المشكلة. ما ذنب الطفل كي يرى كلّ هذه المشاكل أمامه، ثم يفقد أمّه بعد أن فقد أباه؟

كانت كلّ تفاصيل القصّة منذ بدايتها تتحرّك أمام عينيّ على مدى

سنوات، وربّما بسبب شعوري الطفيف بالذنب وأنّي ساهمت في عذاب هديل بشكل ما، اتّخذت بعد ليلة من مبيت هديل عندنا قراراً مفاجئاً. سأتزوّج هديل وأتبنّى ابنها، بالمعنى الاجتماعي الكامل.

هكذا، بعد بضعة أشهر، وإذ تبيّن عدم اهتمام أعمام إيهاب بضمّه إليهم، انتقلت هديل وابنها بشكل تامّ إلى بيت حجّي إبراهيم في حي الواديّة، وصرت متزوجاً أخيراً، وإن كان بطريقة لم أتوقّعها أبداً.

كانت ملابس هديل التي خلعتها في ليلة عرسنا تفوح بهذه الرائحة، رائحة القرنفل المطحون، كانت رائحة غامضة وغريبة، ظلّت عالقة بجسدها كلّما اقتربت منها لأيام. ولكنّي حين أتذكّرها الآن لا تثير عندي مشاعر مريحة. وكأنّي أتذكّر غرفتي والبيت الذي فقدناه وراح منّا إلى الأبد. كأنّ هذه الرائحة قد تحوّلت لتغدو رائحة فقد وخسارة مؤلمة.

6 ـ سرّة

أقبّل سرّتكِ، وأترك لساني ينحدر إلى منخفضها، فتحضر في ذهني دون جهد تلك الصورة التي تتكرّر في قصص ألف ليلة وليلة عن جمالية سرّة المرأة، فهي عميقة، ويمكن صبّ الزيت فيها، وهي لهذا شيء بالغ الحسيّة، على خلاف السرّة المسطّحة التي تذكّر بالجسد الطفولي، أو بالنحافة المفرطة التي لا تثيرني شخصياً.

لا أتذكّر ميزة ما للسرّة أكثر من كونها ذلك الشيء الذي في منتصف الجسد، ربما لأنّ هذا ما ترسّخ في ذاكرتي بسبب والدي.

كان يستخدم السرّة في أوصافه كثيراً، فهذه سرّة السيّارة وذاك المسمار

في سرّة الحائط، وهكذا. وكثيراً ما ذكّرنا، أنا وخالد، أنّ بيت العائلة ذا الستّمئة متر الذي كنّا نقيم فيه هو في سرّة حيّ الوادية، فكلّ الطرق الفرعية القادمة من الشوارع الرئيسة برصافة بغداد تؤدّي إلى البيت لأنّه يقع في المنتصف تماماً.

هل من مزايا لكون بيتنا في سرّة الحيّ غير ذلك؟ ربّما لأنّه بعيد بمسافة متعادلة عن صخب الشوارع الرئيسة. لا أستطيع تذكّر مزايا أخرى.

بعد عام 2008 افتتح الحزب الإسلامي الوطني NIP مقرّاً في منتصف الشارع الذي فيه بيت والدي الحاج إبراهيم أحمد، ثم سرعان ما اتّضح أن الحزب جعل من البيت الذي اشتراه مقرّاً رئيساً، لأنّه قطع إحدى نهايتي الشارع بالحيطان الكونكريتية، ثمّ وضعوا نقطة تفتيش في النهاية الأخرى. رحّب الأهالي في الحيّ بهذه الخطوة في بداية الأمر، فهذا يعني شعوراً أكثر بالأمان مع وجود حرس يفتشون الداخل والخارج إلى الشارع. ثم بمرور الزمن اكتشفوا أنّ مقر الحزب صار مصدراً للضيق، واضطرّ أحد الجيران لنقل زفاف ولده إلى بيت أحد الأقارب في حيّ آخر لأنّ الحزب منع دخول السيارات وضيّق على الضيوف دخولهم وخروجهم. وكلّما حدثت مشادّة كان الأمر ينتهي بتنازل الأهالي لصالح الحزب.

مرّت السنوات، ولم أنتبه للمتغيرات الصغيرة التي كانت تتراكم، واستيقظت ذات يوم لأكتشف أن الكثير من البيوت الفارهة الفخمة في الشارع صارت خالية من سكّانها، لأنّهم باعوها وانتقلوا للسكن في أحياء أخرى لا توجد فيها مقرّات أحزاب تغلق الشوارع وتضيّق على حياة الناس.

كان هناك تفصيل صغير في قصّة مغادرة الناس لحيّ الواديّة لم أكن

أعرفه، واتّضح لي ولكن بعد وقت طويل حين جلست مع «أبو مريم» الدلال في مكتبه المواجه للشارع العام حين وصلت إلى النتيجة ذاتها التي وصل إليها جيراني من قبل؛ أن أغادر المنطقة.

في واقع الحال كان بيت الحجّي يساوي مليار دينار عراقي، ولكنّي كنت مستعداً للقبول بسعر أقل بمئة أو مئتي مليون. كان البيت الذي لم يتقسّم بين ورثة الحاج ابراهيم بعد، هو في حقيقته، الإرث الحقيقي للحاج إبراهيم بعد كلّ الخسارات التي منينا بها.

تحاورت مع أخي الكبير خالد حول المشكلة التي نعيش فيها، وكان هو يسكن في بيت مستقل في الكرّادة. لذلك هو لا يفهم تماماً حجم المضايقات التي صرنا نتعرض لها من قبل حرس الحزب الاسلامي الوطني، خصوصاً حين يتأخّر أحدٌ ما من سكّان الحي بعد الساعة العاشرة مساءً، فغالباً سنجد أنّ الحرس قد أغلقوا نقطة التفتيش، وحصل أكثر من مرّة أن كنّا نضرب لوقتٍ طويل على منبّه السيارة، أو نطرق على حديد الباب العريض الذي ركّبوه لإغلاق نقطة التفتيش.

انتهينا إلى قناعة بأن نحذو حذو العوائل الأخرى في المنطقة، إنّهم أناس محترمون وغير ملزمين بعيش هذا الذل، يستطيعون بثمن المنزل شراء منزل آخر، ربما أفضل وأحسن في منطقة جيّدة أيضاً.

كانت المفاجأة التي ألقاها أبو مريم الدلّال على مسامعي أنّ البيت، رغم عرضه للبيع منذ أشهر طويلة، ما زال على حاله. لم يتقدّم أحدٌ لشرائه، رغم أنّني أعرف شخصين في المنطقة أو ثلاثة ذكروا باعجاب موقع البيت ومساحته وحجم البناء الذي فيه.

في النهاية اتّضح أنّ عرض الشراء الوحيد الموجود هو من الحزب الإسلامي الوطنيّ. والتفصيل الذي انكشف أخيراً أمامي؛ أنّ هذا الحزب اشترى أيضاً كلّ البيوت الأخرى في الشارع التي بيعت من قبل. والصدمة أنّ سعر الشراء للبيوت كلّها كان أقل من نصف القيمة الحقيقية لهذه البيوت، وهذا هو العرض ذاته التي تلقيناه، فالحزب الإسلامي الوطني يعرض ثلاثمئة وخمسين مليون دينار لا أكثر. غضبت في البداية لأنّي شعرت أنّ السعر هو نوع من الإهانة، ونوع من السخرية والاستهانة بقدرة المقابل على الوقوف في وجه الحزب، خصوصاً وأنّ الأربعة أو الخمسة من المالكين السابقين في الشارع قد استسلموا ورضخوا لشروط البيع التي عرضها الحزب.

بعد سنة ونصف من وضع البيت عند أكثر من دلّال، وكتابة رقعة كبيرة تحوي كلمتين «الدار للبيع» على السياج الخارجي ظلّ الوضع على ما هو عليه.

جاء خالد ذات ليلة وجلس معي وأبلغني بضرورة أن نبيع البيت للحزب الإسلامي الوطني. إن القيادات في الحزب تشعر بالضيق بسبب عنادي، ولا تعرف إلى أين سينتهي هذا العناد. وقد ابلغوا خالد بوجهة نظرهم حول الموضوع؛ هم لن يغادروا مقرّهم هنا، ولن يختفوا ولن يحصل أيّ متغيّر ضدّهم خلال السنوات القادمة. ربّما سيستمرّون في موقعهم هذا وهيلمانهم وسلطتهم على مدى قرن كامل، ما الفائدة التي سأجنيها أنا من مواجهة وضعٍ كهذا؟!

كان ردّي على كلام خالد بأنّي قد انضممت منذ عدّة أشهر إلى حزب منافس هو الحزب الإصلاحي الإسلامي IRP وأنّني الآن أستفيد من حمايتهم لي، لأنّهم من أشدّ المعارضين والمنافسين السياسيين للحزب

الإسلامي الوطنيّ. وقد أبلغت بعض أعضاء الحزب الإصلاحي بمشكلتي مع الحزب الوطني، وتعهّدوا لي بالحماية وأنّهم سيناقشون مشكلة غلق مقرّات الأحزاب للشوارع والأحياء السكنية في الجلسات المقبلة للبرلمان العراقي. ضحك خالد ضحكة خفيفة وهو يرمي بصره إلى الأشجار التي تؤطّر الحديقة الواسعة للبيت. صمت قليلاً، ثمّ أشعل سيجارة وصار يدخّن، وعاد للنظر إلى النخلات متساوية الطول عند حافّة الحديقة المواجهة للشارع، ويبدو أنّه انعطف إلى موضوع بعيد، فذكّرني كيف أنّ والدنا في هذا الوقت من السنة تحديداً كان يرشّ الأشجار كلّها بالماء من خرطوم الحديقة، حتى تتبلّل تماماً وينتظر لتضربها التيارات الهوائية حتّى يشعر بلطافة الجوّ. ثمّ يقول إنّ هذه هي الجنّة، ودرجة حرارة الجنّة لن تكون أكثر ولا أقلّ من هذه النسمات الباردة الخفيفة التي ليس للتكنولوجيا أيّ دخلٍ فيها.

ـ ربّما هو الآن يرش بخرطوم ماء طويل على أشجار الجنّة هناك في السماء.

علّقت، ثم شعرت بكفّ خالد وهي تضغط على ساعدي، ليقترب أكثر وكأنّه يُسرّني بشيء:

ـ احتمال يرمون شي على البيت. يحرقونه مثلاً ويقولون تماس كهربائي. يقتلونك وأمّي وأخواتك وزوجتك وابنك ويقولون عصابة دخلت البيت بهدف السرقة. هؤلاء لا ذمّة ولا ضمير لهم.. وأنت تعرف هذا جيداً.

انعصر قلبي من كلام خالد. أنا أعرف بأنّه شخصٌ متّزن ولا يخضع للانفعالات أو يتّخذ قرارات متهوّرة. وأعرف أنّه لن يقول هذا الكلام لو لا

شعوره بجدّية الموضوع. رضخت أخيراً وتركت خالد يتمّ صفقة البيع. اشترينا بمبلغ الثلاثمئة وخمسين مليون دينار منزلاً من مئتي متر بحديقة صغيرة في حيّ الربيعية. لم يكن أفضل من الوادية. ولم يكن الأمر كلّه بالنسبة لي سوى مقلب كبير، وسرقة علنية في وضح النهار تمّت بطريقة شرعية جداً. وهذا ما جعلني أعيش حالة غضب مستمرّة.

ذات نهار شاهدت عند أثير الحلّاق الذي أقصده من سنوات، رجلاً عجوزاً يحمل ملفّات أوراق. كان يثرثر في الخلف بينما الحلّاق منهمك بتشذيب شعري وأنا جالس على كرسيّ الحلاقة. لم أنتبه في البداية لهذه المساجلة ما بين الرجل العجوز والحلّاق، ثمّ انصتّ لاحقاً حين سمعت كلاماً عن شراء الحزب لشيء ما.

ـ أيّ حزب؟

ـ الحزب الإسلامي الإصلاحي.. يا إبني.. اشتروا أرضاً واسعة مطلّة على دجلة، ولكنّ معمل البيبسي العائد لي يقع في منتصف هذه الأرض، في سرّتها تماماً. لقد أجبروني على بيع المعمل غصباً، حتّى تصبح كلّ الأرض لهم.

كان هذا هو الحزب الذي انضممت إليه في محاولة للوقوف بوجه الحزب الإسلامي الوطني. كلّهم في الهوا سوا، وقد سرقوا سرّة أخرى.

7 ـ نهد

أقبّل حلمة ثديك، أمصّها برفق، ثمّ أنتقل إلى الثدي الآخر، ويتداعى في ذهني شيء محدّد؛ فأي شيء عندي يتعلّق بالثدي والنهد كان يرتدّ إلى صلة أمومية، ومنه التقام ثدي الحبيبة، فهو نوع من الرجوع إلى لحظات طفولية،

نوع من الاستئناف لعلاقة ما مع أمٍّ أصلية. شكلٌ من أشكال الاتّصال بالعمق الخفيّ الذي يربطنا بالأرض ولغز الحياة. أمّ.. حبيبة.. وطن.. يمكن أن تختفي الحدود بين هذه المفردات من خلال الثدي والنهد.

وبمنطق التداعي نفسه الذي يحكم ليلتنا أتذكّر الآن كلاماً مجازياً عن الثدي والنهد، هو آخر ما سمعته من سامي أيّوب قبل أن يغادر العراق في منتصف 2005. لقد كان فيما مضى يرضع من ثديين، فطم نفسه بصعوبة من الثدي الأول «فلسطين» وآن له مضطراً أن يفطم نفسه من الثدي الثاني «العراق».

هذه النتائج، في واقع الحال، لم تنبثق دفعة واحدة، وإنّما هي خلاصات متدرّجة لحياة كاملة. فعلى خلاف والده كان سامي في مطلع شبابه مصرّاً على الذوبان في «الهُوية العراقية» والانقطاع قدر الإمكان عن شيء إسمه فلسطين. هو لا يريد ربط نفسه مع قصّة مخفقة، مع معاناة متّصلة، كما هي مرسومة على ملامح والده ولهجته وحكاياته والمفردات التي تقفز من الذاكرة إلى اليوميات التي تعيشها العائلة.

كان من السهل على الابن، الذي فتح عينيه على بيئة عراقية، أن يكون عراقياً، بالقياس مع الأب الذي تفضحه لهجته حين يتحدّث مع الآخرين، مهما تقصّد تطعيم كلامه بمفردات اللّهجة الشعبية العراقية البغدادية. ولا يكاد من يسمعه لأوّل مرّة يستطيع التكهّن بجنسية المتحدّث، غير أن الحاج أيّوب كان يتبرّع، في حالة افتخار لا يستطيع مقاومتها، للإعلان أنّه فلسطيني من قرية عين غزال من مهجّري الثمانية وأربعين.

ما هي «الهوية العراقية» التي كانت سائدة خلال حياة سامي، والتي يريد

أن يتماهى معها؟ إنّها ليست شيئاً أكثر من الحدود التي وضعتها السلطة. والتي تبثّ مفرداتها في المدارس والجرائد والإذاعة والأغاني واللافتات والشعارات والمناسبات الوطنية التي يرى جميع المواطنين أنّهم ملزمون بتقديرها واحترامها في الحدّ الأدنى. وقد شاهد سامي الكثيرين يتطوّعون إيماناً أو تملّقاً للاحتفال بهذه المناسبات الوطنية.

وإذ يهرب سامي من فلسطينيّته من الباب يجد أنّ المجتمع والسلطة يعيدونه إليها من الشبّاك، ففلسطين هي جزء أساسيّ من الخطاب الرسمي الوطني.

كان ينفر من فلسطين التي جاء منها وفلسطين التي تقفز بوجهه من الخطاب الرسميّ للسلطة العراقية، ويريد أن يكون مثلي، أنا صديقه العراقي، مجرّد عراقي آخر، لا يحمل وزر أخطاء الآباء والأجداد وعذاباتهم والقهر الذي تعرّضوا له، ولا مسؤولية الوعود الأخلاقية التي يقطعها على نفسه أمامهم، بأن يكون فلسطينياً دائماً وأن يستمر بـ«النضال» بأيّ صورة وشكل كان.

انتهى لاحقاً إلى مزاج خاصّ، قد لا يشاركه إيّاه أي إنسان آخر على وجه الأرض. فقد اقتطع من الخطاب الرسمي والتعريف الرسمي عن الهوية العراقية ما يراه مناسباً له، وصار بشكل لا واعٍ ينافس العراقيين على عراقيتهم، فأصبح يتقن اللهجة الجنوبية التي تغزوه في مكان عمله من كلّ مكان، واللهجة الموصلية، حتّى أنّه أتقن الحديث ببعض المفردات الكردية السورانية. ومع مرض أبيه وفتور حماسته الفلسطينية، صار سامي يشعر بأنّه تحرّر من إرث الذاكرة واقترب من تحقيق قدره العراقي كثيراً.

انتهت هذه الغيبوبة الطويلة بعد دخول الدبّابات الاميركية إلى

بغداد وسقوط نظام صدّام. لم يمض شهر على هذا الحدث الذي تشارك به سامي مع أصدقائه العراقيين، حتى أنّه فرح معهم بسبب حلم الديمقراطية والعدالة وإن كان بالدبّابات المحتلّة. لم يكن قد انقضى شهر واحد على هذا الحدث الزلزالي حتى وجد سامي نفسه مع أبيه مختطفَين من قبل جماعة مسلّحة كانت تستهدف الفلسطينيين في بغداد، وتحتجزهم في أماكن سرّيّة، تجري فيها محاكمات ارتجالية لمعرفة من هو موالٍ للنظام السابق ومن هو مسؤول عن التفجيرات التي صارت تتصاعد في أحياء بغداد.

عرف سامي سريعاً أنّ بعض الفلسطينيين/ العراقيين قد قتلوا فعلاً بتهمة دعم الإرهاب، وشاهد أباه ينهار أمامه، ولم تنفع توسّلاته للخاطفين أن يطلقوا سراح أبيه. كان يتحدّث معهم بلهجة عراقية مطابقة تماماً للهجة التي يتحدّثون بها، ولكنّهم كانوا يرون فيه وجهاً وملامح فلسطينية، ولم يعيروا للّهجة العراقية أيّ اعتبار.

في هذه الأثناء كانت الحاجّة أمّ سامي قد اتّصلت بنا مذعورة باكية، لأنّها لا تعرف أناساً مقرّبين غيرنا. لم يتحمّس خالد كثيراً لفعل شيء، إنّها حادثة من عشرات الحوادث التي صارت تحدث في شوارع بغداد يومياً، ومن الصعب تتبّع الجهات الخاطفة، كما أنّها جهات خطرة ولا يجد خالد في نفسه الشجاعة الكافية لمواجهتها. شعرت أنّ وراء تبريرات أخي الأكبر كلاماً مخفيّاً، وكأنّه لا يريد أن يقول: إنّه ليس شأننا، إنّهم غرباء في نهاية المطاف.

لم أكن أشعر أنّ سامي غريبٌ عنّا. إنّه صديق عمري، ولد على هذه الأرض، وقد عاش معي أغلب سنوات حياته. ثم إنّه، بشكل من الأشكال،

يبدو لي أكثر قرباً من خالد نفسه. إنّه الأخ الفعلي لي بحكم السلوك والأفعال على الأرض وليس بحكم رابطة الدم الاعتباطية.

كان من الواضح أنّ خالد لن يتحرّك لفعل أيّ شيء. لذلك لم أجادله كثيراً، وفضّلت أن أتصرّف لوحدي. طمأنت أمّ سامي أنّني سأبذل أقصى طاقتي للعثور على سامي ووالده، ثم تفرّغت بعدها لهذه المهمّة.

استطعت تتبّع العصابات الناشطة في بغداد في تلك الفترة، وقضيت وقتاً للفرز بينها، لتحديد تلك التي تستهدف الفلسطينيين. كانت بعض العوائل الفلسطينية تسكن في أرقى أحياء بغداد، في شقق شارع حيفا وشقق زيّونة. وهؤلاء تمّ استهدافهم للاستيلاء على ممتلكاتهم خصوصاً وأنّهم صاروا بدون حماية من دولة أو قانون أو حتّى جماعة مسلّحة. وهناك من تمّ خطفه لمجرّد أنّه فلسطيني، حتّى لو كان ملاكاً نازلاً من السماء.

في النهاية تعرّفت على شخصٍ قريب من عصابة تختطف فلسطينيين بهدف قتلهم، ومن خلال إغرائه بمبلغ من المال تشجّع هذا الشخص ليتحرّى هوية سامي وأبيه بين المخطوفين، وكم كانت دهشتي حين عرفت أنّهما موجودان، والرجل العجوز كان في حالة صحيّة سيئة.

لم يكن أمامي سوى أن أرتجل حلّاً سريعاً. زوّرت عقد زواج بتاريخ قديم، وأدعيت أنّ سامي هو زوج أختي، وصرت أؤكّد وأقسم بأغلظ الأيمان أنّه شخصٌ محترم ولا علاقة له بالنظام السابق ولا حزب البعث، ثم عرضت مبلغاً لفدية مقابل إطلاق سراح الرجلين.

أثمرت المفاوضات والمبلغ المالي الكبير في إطلاق سراح سامي وأبيه. ظلّ الأب في حالة صحيّة متردّية فترة من الزمن، أمّا سامي فكان

قانطاً طوال الوقت من هول الصدمة التي عايشها. وفي العمق لم يكن حدث الاختطاف بحدّ ذاته هو الصادم، وإنّما حقيقة اكتشافه أنّه لم يكن عراقياً تماماً. لم يكن عراقياً بذلك القدر الذي يستطيع الثقة به. كان يشعر بأنّه عراقيّ، وأنّه، بحكم الضرورة والإكراهات التي لا سلطة له عليها، فلسطينيّ. ولكن كلا الصفتين لم تشفعا له أمام الأخطار التي كانت تحيط به.

شاهد سامي فيما بعد أنّ هذا النقاش حول الهوية المضطربة كان يتناسل في الأجواء، وصار الجميع يتساءل عن «الهوية العراقية»، وهناك من صار يتهجّم بشكل علني ضدّ هذه الهوية وهناك من ينادي بضرورة التخلّي عنها لصالح هويات صغرى يجب رفعها إلى مستوى الهوية الوطنية، كما هو الحال مع أبو رباح الكردي، بائع اكسسوارات السيارات في مدخل شارع الرشيد، فقد ذكر أمامه أنّه لم يكن عراقياً في يوم ما، وأنّها هوية مفروضة عليه. كان الجدل المتناسل والمنفعل لا يكاد يؤدّي إلى أيّ شيء واضح. مجرّد صخب يثير الصداع والشعور بالملل واللامبالاة بسبب تكرار المفردات والحجج والأفكار ذاتها مرّة بعد أخرى.

توفّي الحاجّ أيّوب، ودفن في مقبرة محمّد سكران عند أطراف بغداد، واجتمعت مع سامي بعد بضعة أشهر ليخبرني بقراره الحاسم؛ سيغادر العراق. الوضع ليس آمناً بالنسبة له، وهو يشاهد اختفاء الفلسطينيين الذين كان يعرفهم من شوارع بغداد وأحيائها. بعضهم هاجر إلى عمّان، وآخرون، ممّن انتُزعت أملاكهم صاروا مثل المشرّدين، وهناك معسكر للّاجئين الفلسطينيين في ملعب حيفا الرياضي في حيّ بغداد الجديدة، وآخر مقام على الحدود ما بين العراق وسوريا، يذكّر بشكل صادم بقدَر يلازم هذه

الفئة من البشر منذ نصف قرن. وسامي أنفق عمره كلّه لتعزيز هدفٍ واحد؛ أن لا يكون مشمولاً بهذا القدَر البائس. وهو اليوم غير مستعدّ للاختطاف من جديد أو التعرّض للقتل، أو السكن في خيمة في معسكر اللاجئين.

لم أستطع اقناعه بالعدول عن قراره. أنا مع نفسي لست قادراً على ضمان حياتي في ظلّ الأوضاع المضطربة، فكيف أضمن حياة سامي؟! كما أنّ فكرة الهجرة ومغادرة بغداد والعراق تطرق في رأسي أيضاً. لقد انهار سريعاً حلم نهاية الديكتاتورية، وغرق هذا الحلم في مستنقع دمٍ مرعب.

في مطلع 2005 ترك سامي أمّه مع أخته وزوجها العراقي وغادر بحقيبة سفر صغيرة إلى سوريّا، مستقلّاً طائرة الخطوط الجوية السورية التي دشّنت أولى رحلاتها بعد انقطاع لخمس وعشرين سنة. ظلّ هناك يصرف من مدّخراته عدّة أشهر، حتّى عثر على عملٍ في إحدى الورش الشاميّة لصناعة الأحذية. وكم كان منظراً مثيراً بالنسبة له، بعد أحداث عام 2006 أن يرى كبار الأُسطوات المعروفين في شارع الرشيد وغيرهم ينتقلون للعمل في الشام. اختفت الماركات العراقية وصار خبراؤها عمّالاً في ورش سورية.

بعد أربعة أعوام من العمل الصارم، صارت لسامي سمعة جيّدة، ثم تقدّم خطوة أبعد، فانتقل للسكن في بيروت وإدارة معارض أحذية سورية هناك. صار يتحدّث اللهجة السورية واللبنانية بالاضافة إلى اللهجتين الفلسطينية والعراقية، وبعد أن إستقرّت أموره وجرت الأموال بين يديه، شعر بأنّه عثر على تلك الكينونة الضالّة التي كانت تؤرّقه. إنّه سامي أيوب فحسب. عجينة ضوئية طيّعة قادرة على التشكّل في أيّ هيئة يريدها. لقد

فطم نفسه أخيراً عن الثديين الفلسطيني والعراقي، وفطم نفسه، كما كان يأمل ويرغب، عن التعلّق بأيّ ثدي آخر.

8 ـ زند

أمسح براحة يدي على زنديكِ وأعصرهما، ثم أنزل بشفاهي لإكمال طقس التقبيل. أن يمسك الرجل بزندي إمرأة هي دلالة ما للسيطرة والاستحواذ. لا توجد صورة نمطيّة لإمرأة تقوم بهذه المسكة لعشيقها أو حبيبها، إنّها مسكة رجولية غالباً، وهي ترمز إلى السيطرة. من أطراف الأصابع وحتى رمّانة الكتف هناك أجزاء كثيرة في اليد والذراع، لكلّ جزءٍ معنى ودلالة نفسية وثقافية. أن يمسك أحدهم بكفّك أو يسحبها فهذه غالباً دلالة صداقة ومحبّة. أمّا إذا أمسك بساعدك، فهذه قد تكون طلباً للنجدة، لكنّ إمساك الزند، على الأقلّ بالنسبة لي، يحمل، خارج مدار الإشارات الشهوانية، دلالة مهينة. تذكّرني باقتياد المطلوبين والفارّين من الخدمة العسكرية أو المتّهمين بالقضايا الجنائية. كذلك فإنّ هذه المسكة تذكّرني بحالات الضعف والاعتماد على آخرين يمسكون بزندي من أجل أن لا أقع على الأرض وأستمرّ في المشي.

حدث موقف له علاقة بالزند، في الفترة ما بعد انتقالنا إلى بيت الربيعية. كانت زوجتي هديل تنتهز كلّ فرصة تراني فيها جالساً مستغرقاً مع نفسي كي تمسك زندي وتروي لي حوادث تقرأ عنها على النت، زوجة تقطع عضو زوجها الذي كان يستعد للزواج بإمرأة ثانية. زوجة أخرى تقتل إبن زوجها الرضيع الذي أنجبه من زوجة ثانية. إمرأة تحرق خيمة العرس وتقتل كلّ المعازيم في حفل زواج طليقها من زوجة جديدة.

كانت مهووسة بهذه الحوادث، بالإضافة إلى الأحلام التي ترويها لي كلّ صباح، وتحوي هذه الأحلام غالباً حوادث مفجعة تخصّ عائلتنا، وكثيرٌ منها يخصّ ابنها إيهاب. تراه جامداً على سريره من غير حراك، تدهسه سيّارة، يتمّ اختطافه.

لم أكن بحاجة إلى سماع أشياء مماثلة ولكنّي لم أقم بردّة فعل عنيفة تجاه هديل وهوسها بهذه التفاصيل، أتركها تحكي وتتوهّم أنّني مهتمّ حقاً بما تقول. كانت مرعوبة من فكرة أنّني سأتركها في يومٍ ما، لأنّها تشعر بأنّ زواجنا لم يكن عن حبّ، وإنّما كان أشبه بتقديم مساعدة لها. ولم أكن مستعداً للدخول في نقاشات معها حول هذا الموضوع، كنت مستغرقاً مع نفسي، وكأنّني أنسحب إلى هوّة عميقة في داخلي.

كنت أترك محلّنا الرئيس في شارع الكرّادة التجاري وأذهب مع أصدقاء إلى جلسات خاصّة، أو نذهب إلى أحد النوادي الليلية. أستغرق في سهرات يتخلّلها شرب كثير، أعود منها كلّ مساءً متعتعاً أحاول السير بشكل منتظم. ثم صارت العائلة تعرف برنامج حركتي، وحدث أن رأيت أخي الكبير خالد يحضر إلى المكان الذي أسهر فيه كي يقطع شربي ويمسكني من زندي ليرفعني ثم يقوم باصطحابي بسيارته إلى البيت. كان يقول إنّني رجل كبير وأنّ هذه العادات ستدمّر صحّتي. لم يكن يفهم أنّها الوسيلة الوحيدة للتكيّف مع شعوري بالخيبة والهزيمة. كان قادراً على النسيان أكثر منّي. كانت مأساتي هي هذه الذاكرة النشطة التي لا تريد أن تخمد أو تنام والتي تدور بي في مساحات شاسعة ولكنّها تنتهي عندي إلى بيت الواديّة المفقود.

تمسك هديل، ونحن على السرير صباحاً، بزندي العاري، وتروي لي

حلمها الفضيع وكأنّها تحكي تفاصيل فيلم شاهدته على التلفزيون. كان حلمها عنّي هذه المرّة، وأنا في عرس بهيج، يحيط بي أشخاص غرباء، والعروس شابّة أصغر من هديل بعشر سنوات. تتقدّم هديل داخل الحلم وتصفع العروس، ثم تمسك بي من زندي وتقتادني مثل مجرم خارج الحفل.

نهضت وقلت لهديل، في تعليق لم تعتد سماعه مني؛ إنّني سأنفّذ أحلامها في المرّة القادمة، إن أصرت على سردها لي.

في تلك الليلة سكرت حتّى نمت على الرصيف وأخذني خالد إلى البيت من دون أن أعي. وكانت هذه لحظة فاصلة. توقّفت أحلام هديل الكابوسية منذ ذلك اليوم، وتوقّفتُ حينها عن الشرب أيضاً.

9 ـ كفّ

أقبّل باطن كفّك وأطراف أصابعك، أوزّع القبلات على كلّ جزء في هذه اليد الصغيرة الجميلة. أعترفُ لك أنّني لم أفعل ذلك سابقاً، والصورة التي في ذاكرتي تتعلّق بأخريات يقمن بهذا الفعل تجاهي. أجلس بجوار هذه الفتاة أو تلك، فتسحب يدي فجأة وتبدأ بمسح خدّها على ظاهر كفي، ثم تقلبه وتمسح على باطنه بيدها وتنزل لتقبّلها قبلات صغيرة. كانت حركة تثيرني، ولكنّي لا أتركها لتطول.

الأكثر إثارة غريزياً ويرتبط بكفّي كان يتعلّق بشيء آخر تماماً، لا علاقة له بالأجواء الشهوانية. لقد منعت نفسي طويلاً من خوض تجربة محدّدة، ولكنّ التطورات من حولي دفعتني إليها دفعاً. كان شعوراً غريباً وأنا أمسك بكفّي، أوّل مرّة، بقطعة سلاح. في البداية لم أخبر أحداً بهذا الموضوع، ثمّ انتبه خالد إلى وجود مسدّس كْلوك تحت حزامي واستغرب من ذلك

فأخبرته أنّ السلاح ضروري ونحن في المحلّ خشية التعرّض لسرقة، كما أنّ اقتناء الأسلحة أمر شائع في البلد بسبب الأوضاع غير المستقرّة. لم يقتنع بكلامي ولكنّه لم يستمرّ باستجوابي.

لقد توقّفت عن ارتياد الملاهي والجلسات الخاصّة مع الأصدقاء، وصرت أشرب في البيت إن رغبت بذلك، ولكن ما لم أتوقّف عنه، وظلّ مسيطراً على هواجسي هو رغبتي الحرّاقة بأن أقتل أبو إدريس، مسؤول مقرّ الواديّة للحزب الإسلامي الوطني، والذي أدار عملية شراء بيت العائلة.

ذهبت له ذات مرّة تحت وطأة شعور سلبي متعاظم، وسلّمت عليه وجلست لأتحدّث معه داخل مقرّ الحزب الذي لا يبعد إلّا بضعة بيوت عن منزل العائلة المسلوب. كنت استحضر في ذلك اللّقاء شيئاً من شجاعة انتسابي إلى حزب إسلامي منافس. وكفّي تذهب من دون وعي منّي لتحسّس السلاح المخفيّ تحت ملابسي. تحدّثت مع أبو إدريس عن الظلم في عملية البيع، وأنّه من الضروري أن يدفع الحزب ضعف المبلغ الذي تسلّمناه منهم. ظلّ أبو إدريس يردّ عليّ ببرود، ثم تطوّر النقاش ليغدو الكلام أكثر تشنّجاً، وذكرت أمامه انتمائي للحزب الإسلامي الإصلاحي وأنّهم قادرون على انتزاع حقّي منهم لينتهي الموقف بتدخّل أناس آخرين طلبوا منّي مغادرة المكان.

بعد أيّام أبلغني أعضاء في الحزب الإسلامي الإصلاحي بأنّني مفصول، لأنّني أثير مشاكل مع الآخرين، وأنّني لا أتّبع تعليماتهم وتوجيهاتهم، وأحاول الاستفادة من الحزب لأغراضي الشخصية، كما أنّ هناك معلومات تفيد بأنّني لست ملتزماً دينياً وأتعاطى المسكرات.

جاءني خالد إلى البيت، وظلّ يتجادل معي حول السلاح. كان خائفاً وكأنّه يتوقّع أنّني سأقدم على عملٍ أحمق.

ـ سافِرْ.. غيّر جوّ.. أترك كلّ شيء. إذهب كم يوم إلى أذربيجان مع أصدقائي، سيسافرون الأسبوع القادم.. وافِق وسأبلغهم بذلك.

ـ لا.. لن أسافر.. لن أهرب.

ـ يا أخي.. ليس هروباً، وإنّما تعطي نفسك إجازة من هذا الضغط النفسي الذي لا مبرّر له.

ـ أريد استعادة البيت بأيّة طريقة.

نهض خالد غاضباً وظلّ يبحث في غرفة المكتب عن مسدّسي، ويقلّب إسفنج الأرائك، ويهدّدني بأنّه لن يغادر البيت إلّا والمسدّس معه.

لم ينته جدالنا في تلك الليلة إلّا وأنا أتعهّد لخالد بالسفر. كنت فعلاً أتقدّم إلى هوّة مخيفة، ولا أثق بقدرتي على مسك زمام نفسي وعدم الإقدام على عملٍ أحمق.

ـ سأسافر.. ولكن ليس إلى إذربيجان.. وإنّما سأذهب إلى سامي في بيروت.

قبل أن يغادر.. تلامَس كفّانا، أنا وخالد في مصافحة طويلة، بينما عيناه تحدّان النظر باتّجاهي للتأكّد من التزامي بوعدي.

10 ـ رقبة

ها أنذا أقبّل رقبتك يا أوروك، ونحن نجلس على هذا الساحل الرمليّ أمام البحر، مثلما كنت أقبّلك قبل ساعتين، أثناء ما كنت مستلقية بعُريكِ

الثريّ على السرير، مستسلمة لاستغراقي في طقسي الغريب بارتقاء جسدك، جزءاً فجزءاً بالقبلات، حتّى الرقبة.

كنت بحاجة إلى هذه المشاهد السينمائية الإضافية. زجاجة وايْن فاخرة مع علبة مكسّرات، وسجائر نحيفة، مع كأسين خفيفين من الفايبركلاس، نرميهما مع الزجاجة حينما ننتهي. أنا بشورت قصير مع فانيلة، وأنتِ بثوب قطني خفيف لا شيء تحته. كنت أتحسس جلدك المشدود بسبب لسعات البرد في هذه الساعة. تنحدر يدي لأمسح على ردفيك وتكوّر عجيزتك الصغيرة، ولا تُبدين أيّة ردّة فعل، وكأنّك تتوقّعين كلّ شيء.

في المشاهد الرومانسية المجهضة في ذاكرة الشباب الأولى، والتي أسمّيها بالمشاهد السينمائية، كانت هناك امرأة برقبة طويلة دائماً، كما هي رقبتك. كلّ اللقطات لنساء على البحر كانت لقطات لنساء بهذه الهيئة، يحرّك الهواء المشبّع بروائح الملح شعرهنّ فيرتفع إلى الأعلى قليلاً، كما يحدث لكِ الآن تماماً وأنتِ أمامي.

تسألينني؛ ماذا سأقول لموظّف الأمم المتّحدة حين أطلب اللجوء مثلاً. فأردّ؛ إنّني سأخبره بالحقيقة.

ـ لا أحد يقول الحقيقة يا عزيزي.

تردّين بشكل حاسم. وتطلبين منّي أن ألفّق حكاية أكثر إقناعاً من الحقيقة، فأرفض. لقد تعبت من زيف هذا العالم ولن أشارك في تزييفه.

ـ كلّ شيء فيه نسبة من الزيف يا خليل. لا يوجد شيء حقيقي مئة في المئة.

ـ ما نعيشه في هذه اللحظة حقيقي.. أليس كذلك؟

سألت، فصمتِّ قليلاً وأشحتِ ببصرك إلى الأفق البعيد المتداخل

لعتمة البحر مع عتمة السماء. ثمّ رشفتِ قليلاً من كأسك، وانطرحت على ظهرك على الرمل، فجارَيتُك في ذلك، وصرت بجوارك، أتخيّل أنّنا ننظر إلى السماء، كما في لقطة سينمائية أخرى في مخزون الذاكرة المقموعة.

ـ كيف ستحكي حكايتك؟

سألتِ، وكنتُ أتحسّس صوت المويجات التي تتكسّر على سطح البحر أمامنا، وأشعر بخدر سبّبه الشرب والإرهاق لهذه الليلة. تخيّلت كيف تطفو المويجات ثم يمتصّها سطح البحر، ثمّ رددت على سؤالك بطريقة لم تتوقّعيها:

ـ سأسردها على أجزاء جسدك، كما فعلت بالقبلات قبل ساعتين في الشقّة. سأبدأ مثل مويجات متابعة من قدميك صعوداً حتّى عينيك. سأجعلك وعاءً لهذه القصة.

سردتُ القصّة كلّها أمامك وكأنّكِ موظّف الأمم المتّحدة المفترض. أنهيت قصّتي التي فاجأتك في بعض أجزائها، وانتهت السجائر وعلبة المكسّرات وزجاجة الوايْن، وعدنا إلى الشقّة في العمارة المطلّة على البحر بخطوات متثاقلة، قبل ساعة من طلوع النهار.

11 ـ شفاه

أضع شفتيّ على شفتيك بشكل كامل ثمّ أضغط عليهما ضغطة خفيفة، في استمرار لأدائي الطقسي الهادئ والبطيء مع جسدك في هذا المساء، حتّى تنطبق حدود الشفتين، كما افترض، مع بعضهما البعض. وهذا وضع دقيق يوجب أن يتقابل الوجهان، وأحني رأسي إلى الخلف قليلاً حتّى

أتجنب انضغاط الأنفين على بعضهما البعض الآخر. كنت قد انتبهتُ منذ أوّل لقاء بيننا، في كابينة التيلفريك النازلة من جبل حريصا، إلى رسمة شفتيك الدقيقة يا أوروك. والتي تشبه، بشكل ما، رسمة شفتيّ أنا، مع تحديدٍ بنتوءات حرف إم الانكليزي واضح المعالم لأعلى الشفة العليا.

كان ذهني منشغلاً تماماً بالتفاصيل الدقيقة للحظة التقبيل هذه، بينما جانبٌ من نفسي وتفكيري، لا أستطيع السيطرة عليه، يذهب بعيداً ليستحضر شفاهاً أخرى بنتوءات حرف إم الانكليزي واضح المعالم للشفة العليا، وأوّل ما ظهرت في شاشة وعيي الشفاه البارزة المثيرة لصفيّة واصل، الراقصة والمغنّية في ملهى ليالي الشام غير المرخّص في جادرية بغداد. واستدراكاً لأيّ ربطٍ يمكن أن أنجرّ إليه، فأنا أقرّ أنّ صفيّة واصل رغم جمالها لم تكن المغناطيس الخفيّ داخلك يا اوروك والذي جذبني إليك أوّل مرّة، وإنّما مجرّد الشبه بين شفتيّ أنا وشفتيك.

دخلت مرّتين لا أكثر إلى هذا الملهى، واقتربت صفيّة واصل عدّة مرّات وهي تغنّي وترقص من الطاولات المحيطة بصالة الرقص الدائرية، وكانت هذه المرّات كافية لكي أتأكّد من جمال رسمة شفتيها، خصوصاً الشفة العليا ذات نتوءات الحرف إم.

شاهدتها فيما بعد على صفحات الانترنت بصورٍ شبه عارية بجسد ثري جذّاب مع تعليقات فاضحة تسخر منها ومن علاقاتها مع الرجال النافذين بالدولة. لم تثرني بشيء، كنت أصلاً في مرحلة الخمود وعدم الانجذاب للنساء، واستغراق داخلي عميق مليء بتداعيات الإحباط والشلل النفسي.

لم أتوقّع أن أرى هاتين الشفتين المميّزتين وجهاً لوجه مرّة أخرى.

كنت في يومي الأخير ببغداد. حجزت قبلها بإسبوع تذكرة على خطوط الشرق الأوسط اللبنانية. أخبرت صديقي سامي عبر الهاتف بأنّي سآتي غداً صباحاً، وأحتاج إلى فترة نقاهة. لم تكن هناك أيّة خطط واضحة لشيء أبعد. أعرف أنّ هذه الخطط ستظهر لاحقاً ولكن بعد أن يتحرّر عقلي من أغلال الضغوط النفسية هنا.

بقيت أتجوّل في الشوارع، وأتفحّص المحالّ التجارية ومعالم المدينة وكأنّي أودّع المناظر الأليفة والقريبة إلى نفسي، وكأنّي مهاجرٌ فعلاً، فهذه أوّل مرّة أسافر فيها، رغم أنّي استخرجت جواز السفر من سنوات، ولكنّي لم أتجرّأ لأسافر.

خطر في ذهني شيء، ما دمت في مزاج المهاجر والمودّع للمدينة وصورها؛ أن أذهب إلى بيت الواديّة، بيت أبي وأهلي وحياتي وطفولتي. لم أكن أستطيع نزع هذا البيت من رأسي أبداً. بل إنّ الجزء الأكبر من مشاكلي وتأثيرات هذه المشاكل النفسية كانت بسبب هذا البيت وما حصل معه.

أعرف أنّني لا أستطيع المرور إلى الشارع الفرعي من خلال نقطة التفتيش المقامة عند المدخل، فهناك سيسألني الحرس التابع للحزب الإسلامي الوطني عن غايتي وما أريد ولمن الزيارة، فالشارع الفرعيّ صار أشبه بالبيت الكبير، بعد استيلاء الحزب على كلّ البيوت التي فيه، ورغم أنّ الشارع ملكٌ عامّ إلّا أنّه صار جزءاً من الحيازة الشخصية للحزب.

لم تكن هذه الزيارة الأولى، فقبل بضعة أشهر كنت سكراناً وبقيت أدور حول حيّ الواديّة في وقت متأخّر من الليل، مجازفاً بأن يرصدني

حرس الحزب، وربّما تحصل مشكلة، خصوصاً مع التهديدات العلنية التي أطلقتها تجاه أبو إدريس في أيّام المنازعات على البيت ورغبتي الجارفة باستعادته.

بقيت أدور في أزقّة الحيّ حتّى إنتهيت إلى الطرف الآخر من زقاق بيت العائلة السابق. وهو الطرف المغلق بجدار الكونكريت. وقفت وبقيت أتفحّص هذا الجدار، محاولاً العثور يائساً على منفذ بين حافة الجدار وأسيجة البيوت، تتيح لي المرور حتّى ولو بصعوبة.

خلال ذلك اكتشفت أنّ البيت على يسار الحائط الكونكريتي المرتفع يبدو غير مسكون، فهو مطفأ الأضواء كما أنّ الأزبال والنفايات تتكوّم أمام بابه الخارجي. وجّهت ضوء هاتفي المحمول على باحة البيت وتأكّدت أنّ البيت مهجور.

ارتقيت السياج الواطئ للبيت وقفزت إلى الحديقة، ثمّ خطوت عدّة خطوات حتّى السياج المتعامد معه، والمغطّى بصفٍّ من الأشجار المتقاربة، كانت تشكّل امتداداً لارتفاع الحائط الكونكريتي.

من بين صفّ الأشجار هذا استطعت النفاذ ثمّ القفز من سياج البيت إلى إسفلت الشارع الفرعي. لقد عبرت حائط الكونكريت بنجاح. أبهرتني النتيجة، وسرت حتّى وصلت إلى بيت العائلة. وخلال أمتار الطريق القليلة اكتشفت أنّ أغلب البيوت المباعة للحزب ما زالت مهجورة، وأنّ مقرّ الحزب الإسلامي الوطني، البعيد نسبياً، من دون حراسة، فهم يعتمدون على حراسة نقطة التفتيش الحصينة عند المدخل الأوّل للشارع.

وصلت إلى بيت العائلة الذي وجدته مغلقاً بالمفتاح. ما زال الباب

القديم على حاله، لهذا فأنا قادر على فتحه. رفعت بمقدمة حذائي حافّة الباب العريض، ثمّ استندت بيديّ عليه ودفعته إلى الأعلى فانفلت الرتاج العمودي الذي يثبّت الفردة اليمنى للباب بالأرض.

دخلت ورددْت الباب خلفي بهدوء حتّى ليبدو للناظر من بعيد أنّه ما زال مغلقاً. صرت أتجوّل في أرجاء البيت، والحديقة المهملة المليئة بأوراق الأشجار الذابلة والنفايات وبراز القطط. أطلّ من وراء زجاج النوافذ على الغرف وعلى مطبخ العائلة. وأشعر بغمٍّ وألمٍ شديد وأنّ روحي تختنق. قلبت سندانة بلاستيكية فارغة على وجهها، وجلست عليها وبدأت أدخّن. قضيت ساعة أو أكثر وأنا أتأمّل البيت شبه المظلم، حتى شعرت أنّ روحي هدأت قليلاً، ثمّ عدت من ذات الطريق. أغلقت الباب بإحكام، وعدت إلى صفّ الأشجار الملاصق للسياج الكونكريتي العالي، وغادرت الأرض المحرّمة للحزب الإسلامي الوطني.

في ليلتي الأخيرة ببغداد، ومع رغبتي بنظرة وداعية مفترضة على بيت العائلة، اتّخذت الطريق السريّة ذاتها. إرتقيت من السياج المحجوز بصف الاشجار، ثمّ وصلت إلى بيت العائلة ورفعت الفردة اليمنى للباب بحذائي ويديّ، ثمّ دخلت.

انتبهت سريعاً إلى أصواتٍ تأتي من داخل البيت، وحين سرت بحذر على الممشى الملاصق للحديقة الكبيرة، حتّى وصلت إلى الباب الزجاجي للمطبخ في الطرف الآخر من البيت، عرفت أنّ الأضواء والأصوات تأتي من المطبخ تحديداً، وربّما من الغرف الداخلية التي تطلّ على الباحة الخلفية الضيقة للبيت.

أطللتُ بحذر لأرى شيئاً لم أكن أتوقّعه؛ كانت صفية واصل في المطبخ

واقفة بجسدها الثري ذي البياض الملفت، بملابس داخلية من قطعتين، تصنع شيئاً ما على الكاونتر الرئيس للمطبخ، تقطّع خياراً وتصنع مزّة ربّما، مع أصوات موسيقى أغنية غجرية راقصة. كانت تتمايل بغنج مع الموسيقى، وما هي إلّا لحظات حتّى ظهر رجلٌ بملابس داخلية أيضاً، احتضنها من خلف، وقال لها شيئاً ما عن تأخّرها. ظلّ يقبّلها على رقبتها وهي تحاول دفعه ضاحكةً.

خلال تحرّك الرجل المتكرّش حول صفية واصل، استطعت أن أرى وجهه جيداً. استغرقت لحظات وكأنّي غير متأكد، حتّى تيّقنت أنّ هذا الرجل بالشورت القطني الأبيض هو أبو إدريس ذاته. لقد جعل بيت الحاج ابراهيم محطّة لمتعه الشخصية.

ها هنا كانت أمّي تجلس. تفتح باب المطبخ على مصراعيه، وتضع كرسياً وتنظر إلى الخارج. ها هنا على الطاولة الرخامية غريبة الشكل، ذات الأرجل المعدنية القوية، تناولت مع خالد وبقية أفراد العائلة، آلاف وجبات الفطور والغداء. ها هنا حياةٌ كاملة ثرية تدوسها صفية واصل بقدمها العارية الآن، ويتبوّل عليها أبو إدريس.

رفعت الشال الخفيف المتدلّي على كتفي وأحكمت ربطه على أنفي والجزء السفلي من وجهي. ثم عالجت بيدي مقبض باب المطبخ وعرفت بأنّه مغلق. أخرجت مسدسي من تحت حزامي بسرعة وضربت إطلاقة على القفل فانكسر. لم تكن سوى لحظات وجيزة استغرقتها مجموعة من الأحداث المتلاحقة، حتّى من دون أن أستوعبها في ذهني جيداً. فلماذا فعلت ما فعلت، وهل فكّرت بالنتائج وما إلى ذلك. لم يكن الوقت كافياً للتفكير الدقيق والسليم. فزّ أبو إدريس، الذي بدا سكراناً، على مرأى هيأتي

الغريبة عند مدخل المطبخ، وتراجعت صفية واصل سريعاً إلى الخلف ثم صكّت يديها على وجنتيها وتقلّصت بكلّ جسدها لتحني ركبتيها وكأنّها شعرت بالحياء الشديد، أو الرغبة بالانسحاب من هذا الكابوس الذي تبدو فيه على شفا الموت.

أطلقت إطلاقتين من مسدّسي، أصابت واحدة منها رأس أبو إدريس والثانية حطّمت أصابع يده المرتفعة إلى الأعلى. كانت الإطلاقة الأولى كافية على أيّة حال. وظلّت صفيّة في الخلف تفتح فمها على اتّساعه، وكأنّها تطلق صرخة عظيمة من دون صوت. ورغم اتّساع فمها بهذه الطريقة المشوّهة، إلّا أنّني التقطتُ صورة ما مثل ومضة سريعة قبل أن أغادر المكان، للشفة العليا لصفية التي لم تتخرّب نتوءاتها النافرة إلى الأعلى مثل حرف إم الانكليزي.

كانت هذه هي المرّة الأولى التي أفعل فيها كلّ هذه الأشياء، ورغم ذلك، لم أكن مرتبكاً وساذجاً إلى درجة العودة إلى باب البيت ومن ثمّ العودة إلى سياج الأشجار العالية الملاصقة للحائط الكونكريتي عند الطرف الثاني من الشارع. من المؤكّد أنّ حرس الحزب وكذلك أعضاء الحزب في المقرّ القريب قد انتبهوا للإطلاقات النارية الثلاث. ولن يستغرق الأمر سوى أقلّ من دقيقة كي يحضروا إلى البيت.

قفزت من فوق السياج الخلفي الذي يفصل بيت عائلتي القديم مع بيت القاضي المتقاعد شاكر القروي، مجازفاً أن يلاحظ أفراد عائلة القاضي وجودي في باحة بيتهم. كان شيء ما في داخلي يخبرني بأنّ هؤلاء الجيران سيتضامنون معي حين يعرفون أنّني قتلت أبو إدريس. وصلت إلى السياج الملاصق لباب بيت القاضي وعبرت إلى الزقاق،

من دون أن يلاحظني أيّ فرد من أفراد العائلة. بعد دقيقة كنت عند رأس الشارع العام. رميت سلاحي في فتحة مكشوفة لمنهول مياه الأمطار، ثم أشّرت بيدي لسيارة أجرة.

في تلك الليلة لم أستطع النوم، وظنّت زوجتي وأمّي أنّ هذا بسبب قلقٍ فائض تجاه سفرتي صباح الغد، ولكنّي كنت أشعر بأنّ أعضاء الحزب المتنفّذ سيرفسون باب البيت في أيّة لحظة. لو كنت خطّطت بعناية لعملية الاغتيال هذه فأنا أجزم مع نفسي بأنّها لم تكن لتنجح أبداً، لذلك لم أكن مستعدّاً لفيض الانفعالات التي داهمتني منذ لحظة يقيني بأنّي قتلت أبو إدريس فعلاً.

بقيت متوتّراً ورافقني هذا الإحساس حتّى مع تقدّمي إلى التفتيش الأوّلي في مطار بغداد، وحتى لحظة ختم الجواز بختم المغادرة. قلّب موظّف الأمن جوازي بين يديه، فأثارت هذه الحركة نوعاً من المغص عندي. ولكنّي خمّنت أنها مجرد حركات معتادة عند موظفي الأمن العراقي. ظللْت على مستوى قلقٍ وتوتّر ثابت حتى مع جلوسي على مقعدي في الطائرة، ولم ينته هذا التوتّر ويخمد لهيبُه في داخلي إلّا مع تحرّك الطائرة ثمّ ارتفاعها عن المدرج وطيرانها بعيداً عن المطار وعن بغداد كلّها.

بعد أيام، في اتصالٍ مع أخي الأكبر خالد، أخبرني بحادثة مقتل أبو إدريس:

ـ يمهل ولا يهمل.

علّق خالد على الحادثة، وكنت على شفا أن أعلّق بأنّ الأمر لو كان

عائداً إلى اللّه فإنّه سيحاسبه في يوم القيامة وليس هنا، ولكن لو نطقت بهذه الكلمات فسأدخل بعدها في جدلٍ غريب سيجعل خالد في حالة من الشكّ وعدم الفهم.

ـ هل كان هناك شهود عيان على الحادثة؟

سألت، وفي بالي صورة صفية واصل وشفتيها البارزتين مع حركة صراخ صامت.

ـ لا.. لم يكن هناك شهود عيان.

ردّ خالد، فبقيت أقلّب الأمر في ذهني محاولاً الفهم، إلى أن انتهيت إلى تفسيرٍ يبدو مقنعاً بالنسبة لي؛ فالحزب الإسلامي الوطني لا يستطيع تقديم صفية واصل كشاهد عيانٍ على حادثة مقتل أبو إدريس. ما الذي يجمع القيادي الكبير في حزبهم الديني المحافظ مع أشهر راقصة ومغنّية في ملهى ليالي الشام ببغداد؟! بالتأكيد كان وجودها بجواره ليلاً ليس من أجل هدايتها أو محاولة اقناعها للتبرّع للحزب.

بعدها بأسبوع، اتّصل خالد بي ليبلغني أنّني على لائحة الاتّهام. هناك ما يبرّر إيراد اسم خليل إبراهيم كمشتبه به في مقتل أبو إدريس، ولكنّها أمور غير مؤكّدة. لقد اتّصل الحزب بخالد وسألوه عنّي، فأخبرهم خالد أنّني مسافر إلى أذربيجان. كانت سرعة بديهة منه. وحين ذكروا له تفاصيل عن رؤيتي بالقرب من المنطقة في وقت مقتل أبو أدريس، وبعض التفاصيل المتعلّقة بملبس الشخصية وهيأتها الخارجية، وكذلك عن حدوث القتل في البيت القديم للعائلة، صار لدى خالد شكّ كبير بأنّ أخاه المجنون ربّما كان فعلاً قد نفّذ تهديده وقتل أبو إدريس.

ـ أخبرني يا خليل.. أنا أخوك.. وليحترق أبو أدريس في الجحيم.. هذا الكلب.. ولكن أخبرني.. هل أنت من قتله؟

ـ لا خالد.. شنو القصّة؟ هل أستطيع قتل دجاجة أنا؟ أنت تعرفني.

ـ أنا قلت في نفسي هذا الشيء أيضاً.. على أيّة حال.. لا أعرف كيف أتصرّف مع هؤلاء.

ـ لا تتصرّف بشيء. واطمئن.. أنا لن أعود لبغداد.

من تلك اللحظة صارت الرؤية واضحة لديّ. كلّ الاضطراب والتشويش الذي عايشته في بغداد انتهى الآن. وأخبرت صديقي سامي برغبتي أن أغادر إلى أوربا. أنا أحتاج أن أحطّ الرحال في أيّ مكان من أوربا وبعدها أتصرّف من هناك.

ظلّ سامي يبحث عن حلٍّ مناسب، حتى جاءني ذات نهار بفكرة أن أشارك كمندوب عن الشركة السورية للأحذية التي يديرها سامي في بيروت، لحضور معرض كبير في إيطاليا. عليّ أن أقطع داخل المعرض لطلبيات أحذية بماركات يحدّدها سامي لي سلفاً، وأنا خبير بالأحذية أصلاً وأستطيع تمييز الجيّد منها والأسعار المناسبة.

عليّ أن أنجز العمل المطلوب منّي لصالح الشركة التي يديرها سامي في بيروت، ثم بعدها أكون حرّاً. ونصيحة سامي هي أن آخذ تذكرة لقطارٍ يقودني من روما إلى تورينو، ثم من هناك أركب في القطار المتّجه إلى ميونخ في ألمانيا. وإن رغبت بخيارات مغايرة تؤدّي إلى دول أخرى فالأمر عائد لي، لكنّي اعجبت بخطّة سامي.

أمضيت نهار اليوم الأخير في بيروت معكِ يا أوروك للتسوّق وشراء

بعض الحاجيات التي أحتاجها لسفرتي الجديدة، ثمّ بعد منتصف الظهر تركتك مع اتّفاق أن نتواصل بالهاتف للّقاء ليلاً. ثمّ قضيت بقية ما بعد الظهر حتى العشاء مع صديقي سامي.

ـ ربما لن نلتقي ثانية.

ـ ربما.

ردّ سامي، ثمّ أخذ ذراع النارجيلة، مشاركاً أيّاي التدخين باسترخاء في الباحة الخارجية لمطعم السلطان ابراهيم، ننظر إلى صخب الناس من حولنا، وكأنّنا نراقب في الوقت نفسه ركام كلّ الأشياء التي خضناها معاً. وكأنّ لحظتنا هذه مناسبة لنهاية كلّ القصص، قصص الأوهام التي تتساقط والأوطان التي تركناها في الخلف. لقد هدأت الأمواج المرتفعة والمنخفضة وصار سطح البحر لحياتينا مسطّحاً ساكناً، كما هو منظر ساحل المتوسّط حينما شاهدته لأوّل مرّة هنا.

قريباً من ستاربكس الحمرا التقيت بك يا أوروك ليلاً، كنت ترتدين فستاناً قصيراً وتفردين شعرك. ذهبنا للتسكّع، ثم شربنا عدّة كؤوس من البيرة وثرثرنا كثيراً. شعرت وقتها بأنّ أوهامي عن استقرار سطح حياتي صارت قويّة. وكأن وصولي الآمن إلى إيطاليا ظهر الغد ومن بعدها إلى ألمانيا صار يقيناً مؤكداً.

كانت شهيتي للحياة تترطّب من جديد، لذلك بقيت أقبّل شفتيك يا أوروك كلّما وجدت لذلك فرصة، حتى مع تنبيهاتك أنّك لا ترين الأمر مناسباً مع وجود أعين فضولية. لم أكن مهتمّاً، كنت أحبّك يا أوروك، وأعرف أنّني أخصّك بمشاعر نادرة بقيت أبحث عن فرصة لاختبارها وقتاً طويلاً حتى يئست من العثور عليها.

حين سحبتك معي للتسكّع على أرصفة بيروت مع إقتراب منتصف الليل، كنت تعرفين أن هذه الليلة ستنتهي على خلاف الليالي السابقة التي قضيناها معاً. ستدخلين معي إلى محلّ سكني، ونمارس الجنس للمرّة الأولى. كنت تريدين ذلك، وتعرفين أنّه لا توجد فرصة في الغد أو ما بعده لأمر مماثل.

ها أنت على السرير عارية، تستسلمين لقبلاتي الهادئة الناعمة، التي وصلت بمسيرها البطيء إلى شفتيك المرسومتين بعناية على شكل حرف إم ممدود، كما هي شفتاي أنا. انتهيت من تقبيلك وجهاً لوجه بانطباق الشفتين على بعضهما، ثم ها أنذا أدوّر شفتيّ، منحنياً برأسي إلى اليمين قليلاً. صارت القبلة أكثر عمقاً والتحاماً.

12 ـ عينان

من كلّ التفاصيل التي خاضتها مع خليل ابراهيم في الليلة السابقة تتذكر أوروك جميل وهي تجلس في كافتريا «لانكر» القبلات الناعمة على العينين. مارسا الجنس، بعد انتهاء مسيرة القبلات الطقسية، على مدى نصف ساعة. لم يكن أمراً مميّزاً ونادراً إلّا نسبة لما جرى حوله، قبله وبعده. القبلات على العينين بالذات انغرزت في روحها إلى عمق لم تتوقعه.

كانت تضطر لإغماض كلتا عينيها حتى وهو ينفرد بتقبيل واحدة، ضغطات خفيفة من شفتيه، وسكون تام في باقي أرجاء جسده. وكأنّ القبلات تتنزّل من مكان ما لوحدها على عينيها. لم يضايقها الأمر بل على العكس كانت ترى فيه لمسة مؤثرة ومريحة، أشعرتها بشيء لم تختبره منذ

وقت طويل، بنوعٍ خاصّ من الاهتمام، وكأن هذا الرجل يختصّها بشيء لوحدها من دون النساء. كانت في تلك اللحظات قادرة على الاستسلام لمصادر ضعفها الطبيعية التي تتيح لها أن تصدّق بلمسات الحنان وإشارات الحب. لم يكن تقبيل العينين بهذه الطريقة، بالنسبة لها، إلّا لمسة حب.

غادر خليل منذ ساعات الفجر الأولى، متّجهاً إلى إيطاليا. ليبدأ من هناك رحلة قد تنتهي بالتقديم على اللجوء الإنساني مثلاً، أو أيّة طريقة ووسيلة للحصول على الإقامة والعمل. وحين يستقرّ به المقام ويطمئنّ سيبعث إلى أوروك. يحرص على جلبها بجواره. هكذا أكّد لها في آخر كلام بينهما، قبل أن يطبع قبلة على خدّها ثمّ تراه يغادر بسيارة التكسي من أمام مبنى العمارة.

لن يفكّر بعائلته؛ أمّه وأخيه الأكبر، زوجته وولدها. سيكونون بخير ولن يكونوا بوضع أفضل فيما لو كان بجوارهم الآن. سيفتح صفحة جديدة في حياته مع أوروك ربّما.

لم تكن تصدّق تماماً بما يقول رغم إيمانها بنواياه الصادقة. ولكنه هناك سيجابه الكثير من التفاصيل التي لم يضعها في حسابه. كما أن عيش الوقائع يختلف عن الافتراضات والتصوّرات المسبّقة عنها. ربما يكره المكان الذي سينتهي للإقامة فيه، أو يواجه باباً مغلقاً بإحكام يدفعه لليأس. بكاء أمّه على الهاتف مثلاً، إلحاح أخيه، الزوجة والابن، الحنين إلى تفاصيل الحياة التافهة التي تتأجّج فجأة في الذاكرة. إنها أشياء تعرفها أوروك جيّداً، لأنها تمرّ بأشياء مشابهة بين حين وآخر.

رغم ذلك فإن هذا الوعد، على ذرى الأيام العشر الأخيرة التي عاشتها

مع خليل، يخلق في داخلها مزاجاً خاصاً من الصعب مقاومته. هي مستسلمة له الآن تماماً، وتعرف أن قوّة تأثيره ستخفت مع مرور الأيام والانشغال بشؤون أخرى.

ولكن، ماذا لو أنّ الأيام والأسابيع والأشهر ظلّت تمضي من دون أن يتغيّر هذا المزاج الجديد الذي يجتاح جوانب روحها بهدوء وثبات؟!

فكّرت وهي تجلس هنا، ثمّ من دون انتباه منها، وجدت أنّها تتحسّس ظاهر عينيها بإصبعها. هناك ألم خفيف، ربّما بسبب السهر أو الدموع الكثيرة التي ذرفتها بعد مغادرة خليل. لا شهود على حالة الضعف التي مرّت بها، وهي تعرف أن الاستسلام لهذا الضعف لوقت محدّد هو أفضل وسيلة للتخلّص منه. كانت عيناها تؤلمانها بسبب البكاء، أو بسبب القبلات الناعمة الرقيقة التي طبعها خليل في الليلة الماضية.

جاء سامي وجلس أمامها. وحالما التقت عيناهما، شاهدته يريح يده اليمنى على مظروف ورقي منتفخ. زمّ سامي شفتيه ثم دفع المظروف بيده حتّى انتهى إلى حافّة كوعها المتكئ على قماش الطاولة.

ـ كان عليك أن تفتحي الهاتف على الأقل. مللت من الاتصالات. ما بك؟!

ـ ألم تر فادي؟ خلّص شغلك معه.

ـ أنهيت كل شيء مع فادي. هذا المبلغ منّي لك.. كما اتفقنا.

حضر نادل وسجّل طلب سامي، ورفضت اوروك طلب شيء جديد، غير القهوة التي شربتها منذ ساعة تقريباً. ظل سامي ينظر إلى المظروف السمين، وكيف أن أوروك تجاهلت وجوده تماماً. شعر أن هذا الموقف

متوقّع، لأنه لمح مقدّمات له، من دون حاجة إلى ذكاء خاص. لقد شاهد انفراجة وجه هذه البنت مع خليل، وهما يضحكان على مائدة الغداء قبل عدّة أيام، وعرف أن البنت تورّطت مع الرجل العجوز، ولكنّه لم يعرف حدود هذا التورّط، ومن هي مثلها لا تسمح لنفسها أن تمزج بين العمل والمشاعر الحميمة.

ـ أنا كنت أريد رؤيتك. ألسنا أصدقاء؟... أردت أن أتأكّد من النتائج.. هل كلّ شيء تمام؟

ـ نعم، كلّ شيء تمام. سافر خليل فجراً وهو في قمّة الراحة والسعادة، ولكن ما الذي سيحصل له هناك؟

ـ لم يعد الأمر من شأنك.

ردّ سامي، فنهضت أوروك، ومثل من يفزّ لمنظر مظروف النقود، دفعته بيدها نحو سامي.

ـ لا أريد أيّ نقود منك.

ـ إلى أين انت ذاهبة؟ أجلسي.. أريد الكلام معك.

ـ أنا متعبة. سأذهب إلى بيت أمّي لارتاح.

ـ أوريّا.. أرجوكِ.. لا تقولي إنّك أحببت خليل؟! سأشعر بالذنب حينها. إنّه مجرّد عمل. بعد إسبوع سينساك تماماً، إنّه زير نساء.. خذي النقود أرجوكِ.

ـ إن أخذتها سأشعر أنا بالذنب.

تركته وغادرت، وظل سامي يراقبها وهي تبتعد، ثم إنشغل مع قهوته

التي جلبها النادل. ظل يشرب بهدوء ويسترجع كلّ الأحداث التي حصلت منذ مجيء خليل إلى بيروت. لقد أدّى دينه إلى صديق العمر أخيراً.

تحسّس سامي نسختي عقد زواج مؤقت في جيب سترته الداخلي، واستغرق مع نفسه في تذكر الأحداث. كان قد زوّر توقيع صديقه خليل على هذا العقد المؤقت بينه وأوروك، من دون أن يُعلم صديقه بذلك. حتى يعيش التجربة التي كان يحلم بها خليل، ويكون ذلك هو ردّ الدين على إنقاذه لسامي أيّام ما كان مختطفاً في بغداد.

هذا العقد الذي استردّه سامي الآن بعد انتهاء المهمّة هو الوسيلة القانونية لأوروك ووكيل اعمالها فادي ضدّ أيّ طرف يحاول استغلالها أو ينكل بالاتفاقات. كان الجزء الأساسي المعتاد من عملها هو المصاحبة لرجال أعمال وربما شخصياتٍ سياسية، وأحياناً رجال دين بشكل سرّي مقابل مبالغ كبيرة. ولم تكن أوروك توافق على أي عرض يقدّم لها، وحين تشعر بأن «الزبون» يضايقها تنسحب سريعاً. كانت تدير عملها باحترام، وتطلب من المقابل أن لا يتعامل معها مثل عاهرة تقف على الرصيف.

كانت تعرف سامي، فهي تلتقي به أحياناً في سهرات أصدقاء، ورغم أنّه لم يكن زبوناً من زبائنها، وإنّما من محيط الأصدقاء العاديين، إلّا أنّ سامي عرف لاحقاً، في وقت صفاء وسكر، نوع العمل الذي تمتهنه أوروك التي يختصر الأصدقاء إسمها بإسم «أوريّا»، واحترم سريّة ما تقوم به وحياتها الشخصية، وظلّوا أصدقاء على هذا الأساس. لذلك حين جاءها بطلبه الغريب، أن تقنع زبوناً بعيش قصّة حب، كانت قادرة على الرفض، ولكنّها اقتنعت بالحكاية التي رواها لها سامي، وحرّضها الفضول لخوض هذه التجربة.

هي الآن متفاجئة من نفسها، ومن كم التفاصيل التي عايشتها مع حكاية خليل إبراهيم، وأكثرها صدمة اعترافه لها، في «الليلة السينمائية» أثناء ما كانا مستلقيين على الساحل الرملي، بقتله لشخص ما، هو ما تسبّب في فراره من العراق.

كانت تستشعر بأن خليل سرّها بأشياء لم يكشفها لسامي، صديق عمره، وهذا ما جعلها تدخل في رابط سرّي وغريب مع خليل، حتى وان لم يكن عنوانه الحبّ، فمشاعرها الآن ليست واضحة.

ها هي الآن لا تفهم لماذا دخلت برجليها إلى هذا الشرك، ولماذا هناك جزءٌ منها لا يرغب أن يغادر الشرك أصلاً.

أنهى سامي قهوته، ثمّ قام من الطاولة وتقدّم حتى السياج الحجري للحاجز البحري، وظلّ يراقب تكسّر الأمواج الصغيرة على السطح الأزرق الداكن. أخرج نسختي العقد من جيبه ثم مزقّهما ونثر قصاصات الورق الصغيرة في الهواء، فحلّقت قليلاً ملتفّة على نفسها ثمّ سقطت في الماء الذي صار يهدهدها ويفرّقها. أغمض سامي عينيه قليلاً ثمّ فتحهما وشعر بأنّه صار أكثر خفّة، فغادر بعدها المكان وهو يدندن بأغنية عراقية قديمة.

القرار الذي يتّخذه اللّه

كان يوسف ابن وفيّة، كما يلقّبه أصدقاؤه في المنطقة، يعتمد في الكثير من قراراته على الشيخ الراضي، ابن منطقته السكنية والذي لا يبعد سوى بضعة بيوت عن باب بيته، ويستطيع زيارته في أيّ وقت. يثرثر معه قليلاً، ويسأله عن قضايا دينية مختلفة، وما هو أهمّ؛ يطلب منه «الخيرة»، بعد أن تكون الحيل قد أعيته في التّوصل إلى قرار حاسم بشأن قضية من القضايا.

يسحب الشيخ الراضي مصحفه الكبير الموضوع على مسند قراءة واطئ، يفتحه ثمّ يضع سبّابته على كلمة ما داخل القرآن، ويقرّر بسرعة ما الواجب فعله في هذه القضية.

في كلّ مرّة يسرح يوسف قليلاً لاستيعاب وطأة القرار السريع والحاسم، ويستشعر دفق الدم وهو يتسارع في صدره من الإثارة، فالأمر يشبه استلام كلام مباشر من اللّه شخصياً. وبعد أن يستوعب هذه اللّحظة المثيرة جيداً ينهض يوسف ويمدّ يده لمصافحة الشيخ ويشكره ليغادر بعدها، وهو يقلّب في رأسه احتمالات ما سيجري حين ينفّذ القرار الذي انبثق له من بين الكلمات المقدّسة للمصحف.

بهذه الطريقة كان يوسف قد اختار زوجته «لميعة». كانت الأخت الصغرى من بين أختين، طلب أهله أن يختار إحداهما. بدت كلتاهما

بالمواصفات نفسها؛ ربّة بيت جيّدة في منتصف العشرينيات، الفرق بين لميعة وختام سنة واحدة فقط. هناك فروق بسيطة في الشكل، ولكن إن عمش عينيه وجعّد رموشه ليبدو المنظر أمامه مضبّباً فإنّه لن يستطيع التفريق بينهما. كان القرار صعباً، فهو لا يعرف من هي المناسبة له تماماً من بين الأختين.

ذهب إلى الشيخ الراضي ففتح الأخير المصحف سريعاً، ووضع إصبعه على جملة «والنجم إذا هوى». قرأها أمام يوسف بصوتٍ عالٍ ثمّ شرح له؛ النجم لامع.. إذن هي لميعة وليست ختام.. على بركة اللّه.

بعد سنوات، حين كان يتشاجر مع لميعة لأيّ سببٍ كان، لم يكن يمنع نفسه أحياناً من إعادة التفكير بالقرار العشوائي الذي اتّخذه باختيار الزوجة المناسبة. هل كانت ختام مناسبة له أكثر؟! ولكنّ اللّه وليس هو من اختار زوجته. يتعوّذ لاحقاً من الشيطان الرجيم ويذهب ليتوضّأ، فالشيخ الراضي قال له أكثر من مرّة إنّ الوضوء بحدّ ذاته يذهب تأثيرات الشيطان المزعجة.

تكرّرت الحاجة للشيخ الراضي وكتابه المقدّس في مناسبات كثيرة وبشكل منتظم، وكان الشيخ يقدّم خدماته عن طيب خاطر. لم ينزعج أو يبدي تأفّفاً أو تبرماً من مبالغات يوسف باللجوء إليه. أبرز هذه المرّات كانت مع وقوف يوسف حائراً بين أن يدخل بشراكة مع أخيه في افتتاح محلّ بالمنطقة لبيع السجائر بالجملة، أم يشتري أرضاً صغيرة كما كانت تلحّ عليه زوجته لميعة. ظلّ يعاني من صراع نفسي عدّة أيام مع إلحاح أخيه بحسم رأيه وإلحاح زوجته بقبول فكرتها.

فتح الشيخ الراضي مصحفه وقرأ: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ.

ـ الدخان يأتي من السجائر وليس من قطعة أرض صغيرة مفروزة للبناء... أليس كذلك؟!

قال الشيخ الراضي، وفهم يوسف القرار الذي أشارت إليه العناية الإلهية.

لاحقاً، ومع انتشار الهواتف المحمولة، صار يتّصل به على رقمه، وربّما لسهولة التواصل مع الشيخ بهذه الطريقة لم ينتبه يوسف أنّه انحدر في استخاراته إلى مستويات سخيفة. تنتهي الاستخارة سريعاً في أقلّ من دقيقة، خصوصاً وأنّ الشيخ الراضي لم يعد يتواجد في بيته. ثم اكتشف يوسف بعد مدّة، أن شيخه المفضّل قد انتقل من هذا الحيّ السكني الشعبي إلى حيّ آخر بعيد نسبياً، أكثر هدوءاً وأنظف.

في انتخابات 2005 لاختيار أعضاء البرلمان العراقي تفاجأ يوسف حين وجد صورة الشيخ الراضي ضمن المرشحين للانتخابات. شعر يوسف وهو يتملّى وجه شيخه الأنيق بلحيته المحدّدة السوداء وابتسامته التي تشبه ابتسامات مقدّمي البرامج في التلفزيون، بأنّ الشيخ صار أبعد ممّا كان عليه سابقاً، وفعلاً، حين كان أمام قرار مصيري جديد، ضرب على هاتف الشيخ الراضي ولكنّ أحداً لم يردّ. كان الرقم مقفلاً أو مُلغى.

ظلّ يوسف يعاني لعدّة أيام، وشعر بأن العناية الإلهية قد تخلّت عنه. سيتخذ قراراً عشوائياً، دون أن يعلم هل يوافق اللّه على قراره أم لا. ويعرّض نفسه بعدها لشعورٍ دائمٍ بعدم الارتياح، وربّما يكتشف لاحقاً خطأ القرار الذي اتّخذه، ولات ساعة مندم.

كان يريد فضّ الشراكة مع أخيه. ويشتري بالنقود التي يسترجعها،

باصاً صغيراً من نوع كيّا. سيعمل عليه. لأنّ المحلّ لم يعد يدرّ ربحاً مقنعاً، كما أنّ أحد أصدقائه شجّعه على فكرة باص الكيّا، وأنّ واردها «خير من اللّه» كما قال.

تشاور مع زوجته في الليل، بعد أن شعر بالإرهاق من التفكير، ولم يسعفه بعض أصدقائه المتديّنين، الذين أخذوا الخيرة له. لم يكونوا مقنعين تماماً كما هو حال الشيخ الراضي، الذي نجح في الصعود إلى البرلمان.

«لا بدّ أنّه أخذ خيرة بشأن ترشيحه للبرلمان، وإلّا ما فاز وما وصل إلى ما وصل إليه». قال يوسف مع نفسه، من دون مقاومة لمشاعر الحسد. «لا بدّ أنّ اللّه يسانده ويسدّد خطاه... ولكن ما هو رأي اللّه فيما أريد القيام به يا ترى؟!»

قرّر في نهاية المطاف، مغمض العينين، أن ينسحب من الشراكة مع أخيه في محلّ السجائر، ثم اشترى باص الكيا، وصار يعمل عليها في الشوارع الداخلية للمدينة. وكان وارد العمل جيداً، ثم أدخل أحد أقاربه من الشباب كسائقٍ بديل على الباص، وصار يخرج بالباص فترة ما بعد الفجر حتى الثانية عشر ظهراً، ويتسلّم الشابّ من الأقارب الباص حتى الساعات الأولى من الليل.

بعد مدّة، وبسبب كثرة السيارات المشابهة العاملة على الشوارع الداخلية للمدينة، اقترح الشابّ من الأقارب أن يذهب بالسيارة إلى طرق خارجية، فالسيارة متينة، وتتحمّل رحلتين إلى البصرة أو العمارة أو الناصرية، ذهاباً وإياباً.

لم يكد الشابّ من الأقارب ينفّذ فكرته، ويعمل مدّة إسبوع واحد على

الطرق الخارجية، حتى حصل حادثٌ أدخل هذا الشابّ إلى المستشفى في حالة حرجة، ودمّر باص الكيا بشكل لا يتيح إصلاحها بعد ذلك.

شعر يوسف بصدمة هائلة، لقد ذهب رأسماله وعرّض حياة قريبه إلى الخطر. كانت الصدمة كافية لجلوس يوسف في البيت عدّة أيّام صامتاً واجماً لا يفعل شيئاً، ثم ذات ليلة شاهد على التلفزيون شيخه المفضل، في برنامج سياسي. كان الشيخ الراضي منفعلاً ويردّ على اتّهامات ضيف آخر، والموضوع يتعلّق بقوانين تجري مناقشتها في البرلمان. تذكّر يوسف كيف أنّه كان يعتمد على هذا الشيخ كثيراً في اتّخاذ قراراته المصيريّة، وكيف أنّه لم يستشره ولم يستشر اللّه أصلاً في قرار شراء باص الكيا. شعر بأنّه يتعرّض لعقوبة لأنّه وثق بنفسه ولم يثق باللّه. ولكن، ما الذي كان عليه أن يفعله وقد تخلّى الشيخ عنه وصار بعيداً، خلف أسوار المنطقة الخضراء، ولا يستطيع رؤيته إلّا بالبوسترات السياسية الضخمة في الشوارع، أو هكذا، كما هو الحال الآن، من خلف شاشة التلفزيون.

في تلك الفترة الضبابية المليئة بالقنوط وضياع البوصلة، كانت أمّ يوسف قد عادت من الحج، وحين ذهب لزيارتها والاطمئنان عليها وتهنئتها بتمام الحجّ وعودتها سالمة، وضعت أمّه بين يديه كيساً قماشياً أبيض ملفوفاً بإحكام.

كانت الأمّ قد عقدت هذه الأكياس كهدايا لمن يزورها. لم يفتح يوسف الكيس القماشيّ كي يعرف ما فيه حتّى عودته إلى البيت. كانت هناك مسبحة وقنّينة عطر زيتية، وقطعة مسك أبيض صغيرة، ومصحفٌ صغير من ذلك الذي يمكن أن يحتويه الكف، ويدخل في صندوق كارتوني صلب، وعليك، إن رغبت أن تتصفّحه، أن تستلّه كما تفعل مع علبة الكبريت.

كان لديه مبلغ بسيط من بيعه لسكراب باص الكيا، وكذلك بعض المدّخرات، وأخرجت زوجته لميعة ذهبها الذي اشتراه يوسف لها يوم زواجهما. جمع كلّ ذلك فصار مبلغاً يمكن أن يشتري به سيارة أجرة مناسبة. ولكن، هل عليه أن يتّخذ هذا القرار أم يدع اللّه يقرّر بدلاً عنه؟!

قالت له زوجته؛ إنّ النية الصافية كافية لاتّخاذ القرار. توضّأ وافتح هذا المصحف الصغير الذي أهدته لك أمّك الحاجّة، وسيهديك اللّه إلى القرار المناسب.

اقتنع يوسف بكلامِ زوجته، وفعل ما طلبت منه. توضّأ ثم دنا من علبة المصحف الكارتونية. استلّه برفق ثمّ فتح صفحاته مع قلب وجِل. ووضع إصبع سبابته كيفما اتّفق على صفحات القرآن، وكم كانت النتيجة مذهلة بالنسبة له. لم تكن هناك كلمات غامضة يمكن التخمين منها، وإنّما كلمات مباشرة وصريحة: يَلْتَقِطْهُ بَعْض السَّيَّارَة.

الحديث هنا عن يوسف، في سورة يوسف، والرغبة بأن يلتقطه بعض السيّارة، أيّ الناس السائرون، ولكنّ معناها كما فهمها يوسف، في الرسالة المبطّنة الموجّهة له من اللّه في تلك الليلة: أن شراءك للسيارة سيلتقطك يا يوسف بن وفيّة من غيابة جبّ العوز والفاقة والحسرة على ما مضى.

اشترى السيارة فعلاً، ووضع المصحف الصندوقي الصغير على «دشبول» السيارة، أمام عينيه. نسي الشيخ الراضي تماماً، بل إنّه صار يسمع كلاماً سيئاً عنه، وارتبط بقوّة أكثر مع هذا المصحف الصغير، الذي يرافقه أينما ذهب وحلّ. حتى أنّه حين يرصف السيارة المتواضعة بجوار حائط بيته، لا ينزل إلّا والمصحف الصغير في جيبه. وحين ينام يكون بجوار وسادته.

كان يمكن أن تمضي الأمور بشكل هادئ ومتوقّع بالنسبة ليوسف إلّا أنّ الأحداث العامّة بالبلد كانت تتعقّد، وصارت التفجيرات الإرهابية تتزايد، وانتشرت جماعات مسلّحة كثيرة لا يعرف أحدٌ ما هي قائمة أعدائها على وجه الدقّة. صار من الممكن استهداف أيّ شخص لأيّ سبب كان. وصار الخروج إلى الشارع خطراً، ولكن البقاء في البيت يعني الجوع.

كان الحلّ يسيراً بالنسبة ليوسف. يفطر مع عائلته ويشرب الشاي، وبعدها يتوضّأ، ثم يفتح المصحف، وينظر ما الذي سيخبره اللّه به عن هذا اليوم الجديد. هل يخرج إلى العمل أم يرجع لينام. في الأيّام التي صادف فيها الآيات التالية، كان يتشجّع ليودّع عائلته ويخرج إلى الشارع:

ـ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ.

ـ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ.

ـ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ.

وفي الأيّام التي صادف فيها الآيات التالية، يظلّ جالساً في البيت، ولا يخرج حتّى لشراء شيء من الدكّان القريب داخل الزقاق:

ـ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً.

ـ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ.

ـ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا.

تجادلت معه زوجته حول الآية الأخيرة، وقالت بأنّها غامضة بما يتعلّق بنيّته الخروج إلى العمل. فهي تبدو متفائلة، ولكنّه أصرّ على فهمه الخاص، بإنّها إشارة إلى أنّ خروجه سيؤدّي به إلى الانتقال إلى الدار الآخرة.

وفي فترة شهدت تلاحق التفجيرات الإرهابية المروّعةبشكل يومي، قضى يوسف أسبوعاً كاملاً يلَعب البلي ستيشن مع ولديه الصغيرين. حتّى نفد ما عندهم من نقود، وسط تبرّم زوجته، لأنّ الآيات التي كان يصادفها يوسف صباحاً كانت مشؤومة الدلالات.

ماذا لو أنّه ظلّ يصادف الآيات المنذرة والمخيفة صباح كلّ يوم، هكذا حتّى سنة كاملة. كيف سيعيشون؟ لم تكن زوجته تصدّق أنّ للأمر علاقة بأوامر ورغبات اللّه. وتجرّأت ذات مرّة وقالت له رأيها بصراحة. ثمّ حين زارتهم الحاجّة وفيّة، أمّ يوسف، شكت الزوجة أمامها من الأفعال الغريبة لزوجها. حتّى أنّها ادّعت إنه صار لا يذهب إلى الحمّام أو يردّ على سؤال بسيط، مثل تفضيله لوجبة الغداء، هل تكون مرقة الباميا مع الرزّ أم السمك المشوي، إلّا إذا فتح المصحف الصغير في جيبه. ظلّت الحاجّة وفيّة تسمع شكوى كنّتها ولكن من دون أيّ تعليق شافٍ.

كانت لميعة خائفة أن تتصرّف أو تقول شيئاً يغضب اللّه. إنّها هنا تجعل نفسها في مواجهة، من دون قصد، مع المصحف الصغير في الجيب العلوي من قميص أو سترة زوجها يوسف.

ذات مرّة، حين تصّرف يوسف بشكل غير معقول باللّجوء إلى مصحفه الصغير لتقرير ما إن كانوا سينامون على السطح بسبب انقطاع التيّار الكهربائي لوقت طويل خلال ليالي الصيف الساخنة، أم يفرشون في باحة الحوش الصغيرة، وجدت لميعة نفسها في موقف صعب. كانت تنظر إلى زوجها النائم بوداعة، ومرّ خاطرٌ شيطاني بأخذ المصحف الصغير بجوار الوسادة ورميه ما وراء سياج البيت.

طردت هذا الخاطر السيّء سريعاً وصارت تستغفر اللّه. إلّا أنّ الأيّام اللاحقة لم تحمل شيئاً جديداً، فعبثاً كانت تحاول التفاهم مع زوجها، ولكنّه بدا وكأنّه ينسحب عميقاً، إلى الداخل، إلى هلوسات شخصية، من المؤكّد أنّها ستدخله في مواقف محرجة مع الناس الأسوياء.

كان الخوف من الموت والحوادث المفاجئة البشعة التي يصادفها السائر في شوارع بغداد، تعزّز من ضبابية المشهد أمام يوسف وضياع البوصلة، ثم تيقّن أنّ الجميع تقريباً يعاني من هذا الموقف المشوّش. كان الكلّ يدخل، مرغماً في مغامرة كبيرة، لمجرّد التصرّف بشكل طبيعي، كالذهاب إلى فرن الصمّون أو العمل أو السوق أو أيّ شيء آخر.

هذه المغامرة التي تبدو وكأنّها لعبة قمار كبيرة مع القدر، كانت أكبر من طاقة يوسف، وكان المصحف الصغير هو وسيلته الوحيدة لمواجهتها، حتّى يشعر بالتوازن، ويشعر بإنّه يتحرّك تحت مظلّة ما توفّرها الكلمات المقدّسة، ليست تلك التي يمكن أن يردّدها الإنسان ويتعوّذ بها من حوادث الطريق، وإنّما التي تضع له بوصلة وتحدّد له معنى ما سيجري خلال ساعات النهار.

لم تكن لميعة مع زوجها في الشوارع والطرقات، حين يخرج في المرّات النادرة للعمل، ولم تكن قادرة على التخمين ما إذا كان يلجأ إلى مصحفه الصغير لتحديد الشوارع التي سيدخل إليها، وهل يتوقّف هنا أم في الجهة المقابلة من الشارع. هل يدع هذا الراكب الذي يُشير له بيده فرصة أن يركب بجواره، أم سيكون خاطفاً محتملاً، أو انتحارياً بحزامٍ ناسف تحت سترته الصوفية السميكة. ولكنّها، أي لميعة، كانت متأكّدة أنّ زوجها لا يتورّع عن القيام بشيءٍ مشابه.

في النتيجة، كان يوسف يعود سالماً، بينما يموت الآخرون بالعشرات، وكان يحمل أكياس الخضار والفواكه واللحم والسمك في صندوق سيارته. ومبلغاً من المال يضعه في يد زوجته. كانت الخطّة، رغم غرابتها وشذوذها، كما ترى الزوجة، ناجحة وتعمل بكفاءة. من المهم أن يعمل الزوج ويعود سالماً في مدينة ساقطة تحت عاصفة من الفوضى والدماء.

هكذا انتهى الأمر بلميعة أن تعتاد ما تراه، وهكذا غادرت شيئاً فشيئاً مواقفها المتشنّجة السابقة، وصارت لا تكترث كثيراً للجنون الخاصّ عند زوجها، قياساً بالجنون الأكثر شذوذاً والذي صار يسيطر على أدمغة الكثير من الناس في هذه المدينة.

كان يوسف يتجرّأ أحياناً، بوحي من مصحفه الصغير، على التجوال في شوارع المدينة بضعة ساعات ما بعد مغيب الشمس، رغم أنّه لا يخرج من حيّه السكني إلى الأحياء الأخرى خلال الليل أبداً.

ربّما الأقدار أو بوصلة المصحف هي من قادته ذات مساء، إلى أحد الشوارع الرئيسة شبه الفارغة من السيارات. هناك في العمق شاهد رجلاً بعمامة يقف وحيداً على الرصيف. ومع الأضواء الشحيحة القادمة من مصابيح المحالّ في الجهة المقابلة للشارع، شاهد يوسف كيف أنّ الرجل رفع يده لإيقاف سيارة يوسف. لم يكن هناك وقت لإخراج المصحف وإضاءة المصباح الداخلي للسيّارة كي يرى في آيات القرآن هل يتوقّف لهذا الرجل أم لا. وها هو يتوقف بمحاذاة الرجل المعمّم، وكم كانت مفاجأة يوسف كبيرة. إنّه الشيخ الراضي نفسه، بلحمه وشحمه.

ابتهج يوسف لمرأى الشيخ وطلب منه الصعود بسرعة وألحّ عليه

بذلك، وأنّه سينقله إلى أيّ مكان يطلبه. صعد الشيخ وصافحه بحرارة وارتباك، وظلّ مع شروع السيّارة بالحركة المتمهّلة على الشارع يتجاوب مع الأسئلة التي صار يوسف يمطرها عليه فيسأله عن أحواله وأموره. لم يرغب الشيخ بأن يأخذه الكلام العامّ بعيداً، وقاطع يوسف قائلاً بأنّه ربّما لن يستطيع أخذه إلى الوجهة التي يقصدها، لكنّ يوسف أصرّ على أنّه سيفعل ذلك أيّاً كانت هذه الوجهة.

ـ ولكنّني أريد الذهاب إلى صوب الكرخ. هل لديك الجرأة لذلك؟ لا أريدك أن تجازف.

تفاجأ يوسف قليلاً، فهو لا يقطع نصف بغداد في هذه الساعة في ظلّ الظروف الحالية، لم يجرّب ذلك أبداً. ولكنّه الشيخ الراضي، شيخه المفضل سابقاً، وهذه المصادفة السعيدة ربّما لن تتكرّر بسهولة. هناك كلام كثير يدور في صدر يوسف، وها هنا، ما دام الشيخ الراضي في سيارته وفي هذه الساعة من الليل، سيكون مضطرّاً للاستسلام له، ولن تنفعه أسوار المنطقة الخضراء ولا غلق هاتفه ولا أيّ شيء. إنّه بحوزته الآن وتحت تصرّفه، وبالتأكيد لن تكون رغبة الشيخ الراضي قوية بترك يوسف والنزول إلى الشارع المعتم، ربما كان أصلاً قد أنفق وقتاً طويلاً على الرصيف قبل أن يتوقّف يوسف بسيارته أمامه.

ـ لا منطقة خضراء ولا هم يحزنون.. لقد انسحبت من البرلمان.

ـ انسحبت؟ لماذا؟

ـ إنّها قصّة طويلة. المهمّ أنا عدت إلى حياتي الطبيعية، ولدي جامع أقيم الصلاة فيه وألقي الخطب يوم الجمعة وبعض الدروس، وهذا كلّ شيء.

ـ أقول يا شيخ.. كيف تقف في الشارع وفي هذا الوقت هكذا؟ أين الحماية ولماذا ليس لديك سيارة شخصيّة؟ ما الذي حصل؟

ـ قلت لك؛ لقد تركت كلّ شيء. أرجعت لهم كلّ شيء.. وأنا أخرج إلى الشارع بهذه الطريقة وهذا الوقت كي استشهد.. أعتقد أنّ الذين يريدون قتلي كثيرون.

قال ذلك مع ابتسامة غامضة بانت على شفتيه.

ـ شنو هالحكي شيخنا.. لا تكول هيج.. ليش تريد تنقتل؟ّ!

ـ حتى أتطهّر.. أروح إلى ربي نظيف اليد والروح والبدن.

ـ أكيد أنت عملت خيرة من أجل قرار ضخم من هذا النوع؟

ـ خيرة؟ لماذا؟

ـ يعني.. تعرف رأي اللّه بما تريد القيام به.

صمت الشيخ الراضي وظلّ ينظر من وراء زجاج نظّارته الطبّية إلى الأمام وكأنّه يراقب شيئاً بعيداً. كان يوسف حينها قد عبر فعلاً حدود حيّه السكنيّ وغطس في الشوارع التي يكرهها في هذا الوقت لأحياء قلب العاصمة.

ـ أنت تصدّق بهذا الشيء فعلاً؟!

علّق الشيخ الراضي أخيراً.

ـ أيّ شيء؟

ردّ يوسف مستفهماً.

ـ أنّنا فعلاً نعرف رأي اللّه بما يجري لنا، أو ما نقوم به؟

ـ شنو القصّة شيخنا.. لعد والخيرة؟

ـ الخيرة عمل تقوم به أنت. ليس عملاً من اللّه. قد تشجّعك الآية على اتّخاذ قرار بين أمرين متساويين في القيمة. إنّه نوع من الحيلة للخروج من الحيرة. ولكن، إن كان القرار بين أن ترمي نفسك بالبحر أو ترجع إلى بيتك، من الحمق أن تقوم بأخذ الخيرة من القرآن حول هذا الموضوع.

ـ آه فعلاً.

رد يوسف، ولم يكن متأكداً أنّه فهم قصد الشيخ جيداً.

كانت هيئة الشيخ لا تشبه صورته التي ظهر بها في البرنامج التلفزيوني قبل أشهر طويلة، ولا صورته على بوسترات الدعاية الانتخابية، التي تآكلت، وبعضها تمّ تمزيقها، وتذكّر يوسف أنّه شاهد ذات مرّة بوستراً من الفليكس ضخماً للشيخ الراضي، وقد ثقب وجهه بحفرة دائرية، وعلقت فردة نعال بلاستيكية مكانها. وشعر يوسف بالخجل من هذه الصورة التي استحضرها في ذهنه، وكأنّ الشيخ الراضي بجواره قادر على معرفة ما يدور في رأسه، ورؤية ما يراه على صفحة ذهنه.

بدا الشيخ أنحف وبهيئة متعبة، حتّى كلامه الذي تشجّع المسافات الطويلة والعزلة مع يوسف في هذه السيارة على الاسترسال به، بدا كلاماً غير مألوف بالنسبة ليوسف. وكأنّ الشيخ يتحدّث مع نفسه.

ـ لا أعتقد أنّ أيّ شيء مما قمنا به له علاقة باللّه، وإرادة ورغبة اللّه أو قراراته.

انبثق صوت الشيخ الراضي قاطعاً استغراق يوسف مع تداعيات ذاكرته.

ـ أنا أتّخذ كلّ قراراتي بناءً على ما يقوله اللّه في كتابه، فقط المرة الوحيدة التي لم أفعلها هي حين أخذتك من الشارع قبل قليل.

ـ هل قرأت القرآن؟

ـ أنا أقرأ ما يقوله لي في الخيرة.

ـ هم رجعنا إلى سالفة الخيرة..!

ردّ الشيخ الراضي بشيء من التهكّم، وكان من الممكن أن يظنّ يوسف أنّ الشيخ غضب من كلامه، لولا أنّه لمح ابتسامة طفيفة على شفتيه المؤطّرتين بشعر لحيته وشاربه الذي وخطه الشيب.

مسح الشيخ على لحيته برفق ثمّ أكمل وكأنّه يتحدّث كضيفٍ في برنامج تلفزيوني كما كان يظهر ليوسف في مناسبات متفرّقة خلال السنة الماضية:

ـ إنّ اللّه أرسل القرآن كرسالة جامعة إلى البشرية كلّها، ولكنّه لم يتوقّف عن الاتّصال بالإنسان بعدها. هو يتّصل به كلّ يوم وكلّ لحظة، يرسل له الإشارات من خلال القلب. ما تراه أحياناً بقلبك وفطرتك السليمة هو لمسة يد الإله في داخلك. هو رسالته اليوميّة لك. هل تفهم كلامي.

ـ نعم شيخنا.

أطلق الشيخ حسرة مديدة وأكمل:

ـ لكنّنا نتجاهل هذه اللّمسة الإلهية عادة، ونلجأ إلى منطقة مريحة أكثر، إلى النصوص الدينية التي تقبل ألف تأويل وتأويل. لذلك ربّما أنت أنقى منّي أنا وأكثر صدقاً. أنت تعرف اللّه اكثر منّي يا يوسف.

ـ مستحيل!.. كيف هذا يا شيخنا؟!.. لا تقل هذا الكلام أرجوك.

ـ ماذا تحفظ من القرآن؟

ـ كلّ يوم أفتح القرآن وأتبرّك به، وأرى الخيرة في نيّتي للخروج للعمل، لهذا السبب، أنا مقتنع أنّ اللّه حفظني من الموت كلّ هذه الفترة.

ـ إن كنت تظنّ ذلك فهذا ليس أمراً سيّئاً. ولكن عليك أن تكون حذراً في كلّ الأحوال.

ـ ما دام اللّه معي فهو الحافظ والمعين.

ـ ونعم باللّه.

دخل يوسف بسيّارته إلى شارع شبه معتم. قال الشيخ الراضي إن المسلحين ضربوا بالإطلاقات النارية كلّ المصابيح الكبيرة في الشارع حتى لا يستطيع الأميركان رؤيتهم، كما يظنّون، متناسين أنّ الأميركان يستخدمون نواظير ليلية.

ـ عتّموا الشارع كي يمنعوا الناس من الخروج في هذا الوقت.

هكذا استنتج الشيخ الراضي، ولم تمض بعدها سوى دقيقة حتّى طلب من يوسف أن يوقف سيارته كي ينزل. إرتبك يوسف قليلاً وتوقّف بسيارته، ولكنّه لم يرغب أن يغادر شيخه المفضّل هكذا. كيف يتمكّن من رؤيته مرّة أخرى؟ ما اسم الجامع الذي يصلي فيه؟ هل يستطيع أخذ رقم هاتفه؟

ـ لا أعرف يا يوسف، ربّما لا أبقى كثيراً في البلد. ربّما أسافر.

ـ إلى أين؟

ـ لا تكثر من الأسئلة يا يوسف. أنا أشكرك كثيراً على هذا المشوار الليلي، أعرف إنّها مجازفة بالنسبة لك، واللّه يحفظك ويعيدك إلى بيتك سالماً.

مدّ الشيخ الراضي يده بمبلغ من المال، ولكنّ يوسف رفض بشدّة تسلّمه منه، ثمّ رنّت دعوة الشيخ في ذهنه بشأن العودة سالماً، فخطف

المصحف الصندوقيّ الصغير من وراء مقود سيارته ومدّ يده إلى الشيخ طالباً منه أن يأخذ له خيرة بشأن الطريق.

صفن الشيخ قليلاً، وابتسم ولم يردّ بشيء. نزل وصفق الباب خلفه، ثمّ انحنى من شباك باب السيارة وقال ليوسف:

ـ لا تحتاج إلى خيرة.. توكّل على اللّه وهو الحافظ.

غادر الشيخ وابتلعته العتمة، واستدار يوسف بسيارته عائداً إلى الشارع العام. وبعد مضيّ وقت وجيز، شعر برهبة الشوارع شبه الفارغة. هي الشوارع نفسها التي جاء بها، ولكن ربّما كان وجود الشيخ بجواره يخفّف من وحشتها. ظلّ يقلّب الكلام الذي تجاذبه مع الشيخ الراضي في ذهنه، وشعر بأنّه لم يفهم نصفه. كان الشيخ غامضاً. كيف ترك البرلمان، لماذا يريد أن يسافر، لماذا لم يعد يؤمن بالخيرة؟ كيف أنّ كلّ شيء ممّا جرى لم يكن بإرادة اللّه ولا رغبته؟

وصل يوسف إلى تقاطع أربعة شوارع، توقّف عند الإشارة التي كانت عاطلة. وشعر بأنّه لا يعرف إلى أيّ طريق يمكن أن يذهب. ما هو الطريق الأكثر أماناً، فهي كلّها تبدو له من هنا معتمة، ومتساوية في بثّ الرهبة والخوف في نفسه.

تحسّس المصحف على دشبول السيارة ولم يجده. أشعل الإضاءة الداخلية، وظلّ يبحث عن المصحف. لم يكن موجوداً. هل أخذه الشيخ معه؟ هل من المعقول أنّ الشيخ سرق مصحفه؟ ربما ظلّ بيده دون أن ينتبه. هل يعود ليبحث عن الشيخ ويسأله عن المصحف؟ ربّما سقط منه قبل إغلاق باب السيارة.

تصاعد الرعب عند يوسف، إلى درجة أنّه صار يشعر بارتجاف شفته السفلى وسخونة رأسه. ظلّ يدعو ويردّد بعض الآيات التي يحفظها. فكّر بالاتّصال بزوجته والطلب منها أن تقرأ أيّ شيء يقع أمام عينيها في المصحف الذي عندها. هل عندها مصحف يا ترى؟ إنّها لا تصلي أصلاً.

إنّه الآن من دون مظلّة. لقد فقد المصحف الصندوقيّ الصغير الذي ساعده على المضيّ بحياته بايقاع منتظم طوال الأشهر الماضية. ما الذي سيفعله الآن؟

ها هو فجأة أمام فضاء موحش مليء بالقتلة والمجرمين مجهولي الهوية والمقاصد والنوايا الذين جاؤوا ليس من أحياء بغداد الأخرى فحسب وإنّما من كلّ مكان في العالم. ها هم يختبئون خلف الصبّات الكونكريتية، وفي زوايا الأزقة والشوارع، وخلف ظلال أعمدة الكهرباء، ينظرون إلى يوسف نظرات ترقّب وعداء، ولا يراهم مهما دقّق في الكتل المعتمة التي تواجهه بفمها المفتوح على الغموض من كلّ مكان. وكأنّه يرى الآن، أو يستشعر جدّيته بقوّة لم يعهدها من قبل. أغلق اللّه بابه بشكل حاسم، ولم يعد يوسف يسمع منه أيّة كلمة أو تلميح نحو الجهة التي يجب أن يقصدها في اللّحظة التالية.

فتح راديو السيارة، وظلّ يقلّب القنوات بحثاً عن قناة تبثّ القرآن المرتّل. سمع تسجيلات متعدّدة لعبد الباسط والسديسي وأبو العينين شعيشع والحافظ ابراهيم وغيرهم، ولكنّه لم يفهم شيئاً. فالأمر ليس مثلما يفتح المصحف الصامت، وينطق هذا المصحف أمامه فجأة بكلمة أو عبارة موجزة. إنّه سيل متّصل من الكلام القرآني، ولا يعرف ما الذي يختار منه.

إنّ الأمر هنا لا يتعلّق باختيار وجبة الغداء، وهل يخرج من البيت أم لا يخرج، وغيرها من القرارات السخيفة التي اتّخذها بالاستعانة بالمصحف، إنّها طرق متشابهة، قد تؤدّي إحداها إلى منزله وتؤدّي الأخرى إلى نقطة تفتيش وهمية تقيمها جهة مسلّحة تقتاده إلى الموت.

ترك مؤشر اختيار القنوات على خيار التقليب التلقائي، وظلّ الراديو يتابع القنوات ويتوقّف عند كلّ واحدة منها بضعة ثوانٍ. كان دماغه يدور مثل عاصفة، ولم ينتبه إلى خلوّ الشارع، وعدم مرور أيّة سيارة بجواره منذ وقت بدا طويلاً.

توقّف مؤشر القنوات فجأة عند أغنية لفيروز. كان أمراً مثيراً، فهو يسمعها في الصباح، والإذاعات تعوّدت على بثّ أغانيها في الصباح. كان برنامجاً عن فيروز وحفلها العلنيّ الأوّل بعد غياب سنوات.

كان عليه أن يتّخذ قراراً على أيّة حال، وبقاؤه واقفاً هنا لوقت طويل ليس في صالحه. كانت فيروز تقول في الاغنية:

ـ عندي ثقة فيك.. عندي أمل فيك..

كانت إشارة كافية بالنسبة له، من دون أن يلحّ بالبحث عن تفسير لما حصل معه، للضغط على دوّاسة البنزين. لم تكن نفسه قد هدأت أو شعر بالارتياح لقراره، ولكنّه اختار الطريق الذي التمعت في عمقه أضواء سيارات أكثر. اندفع بالسيارة متجاوزاً تقاطع الشوارع، وظلّ خلال ذلك يحرّك شفتيه مع أغنية فيروز:

ـ عندي ثقة فيك.. عندي أمل فيك.. بيكفّي.. شو بدك يعني أكثر بعد أموت فيك..

شاميرام وفضيل

- 1 -

يتذكّر فضيل دنخا يوم خطوبته الرسمية لشاميرام كينيل لأنّه ارتبط في ذاكرته بحدث مثير لا يمكن نسيانه، ففي ذلك اليوم، قبل ثلاثين سنة، في خريف عام 2040، أعلنت وكالة ناسا الفضائية خبراً بدا أشبه بالقنبلة، حيث قدّمت خلاصة تقارير تمّ انجازها بالتعاون مع مراكز أبحاث عالمية ومراصد فلكيّة أوربية وصينية، تؤكّد فيها بما لا يقبل الشكّ أنّ هناك حزاماً من النيازك والأجرام السماوية مختلفة الأحجام يتّجه إلى الأرض بسرعة هائلة. قدّر العلماء زمن وصول هذا الجيش من الأجرام الخطرة بحوالي خمسين سنة، ثمّ دخلوا بعدها على مدى سنوات في نقاشات حامية حول سبل مكافحة هذا الغزو الفضائي الطبيعي. وحتّى سنوات قريبة كان الجواب العلمي أنّ ربع هذا العدد من الاجرام، وبعضها يوازي حجم ثلث القمر، إن وصل إلى هدفه في كوكب الأرض فسيقضي على الحياة بشكل حاسم.

ولكن، ما هو تأثير هذه الأخبار المخيفة على سكان الأرض؟ كما هو معتاد تمّ تكذيب هذه المعلومات من قبل قطاعات واسعة من الناس، وأنّها مجرّد أخبار غير مؤكّدة، والبعض اعتبرها مؤامرة، أو خطّة يتمّ الإعداد لها من قبل الدول الكبرى تستهدف مصالح معينة وفوائد على حساب

الشعوب الفقيرة. أمّا المؤمنون الذين اطّلعوا بشكل وافٍ على المعلومات واستشعروا جدّيّتها ظلّوا يجادلون على شاشات الفضائيات بأنّ الإنسان لم يكتشف حتّى الآن، رغم كلّ الجهود العلمية الجبّارة، أيّة حياة على أيّ جرم سماوي، ما يجعل الحياة البشرية والطبيعية على كوكب الأرض فريدة من نوعها حتّى الآن على الاقل، وأنّ اللّه الذي رعا هذه الحياة من المستحيل أن يتخلّى عنها بضربة عبثية مثل هذه. سيحمي اللّه الأرض ويحرف هذه الحزمة من النيازك الشريرة في الوقت المناسب، وما علينا سوى أن نصلّي ونقترب أكثر من قواعد الإيمان الخاصّة بأدياننا، حتّى نغدو بشراً صالحين وعلى وفق معايير الإله، وهذا ما سيعزّز من حظوظنا كبشر في استجلاب رأفة الإله ورحمته.

كان من الممكن أن يرى فضيل دنخا مناسبة هذا الحدث الصادم مع خطبته دلالة شؤم، ولكنّه كان يرى شاميرام مميزة، ولا بدّ أن ترتبط امرأةٌ كشاميرام مع أحداث مميّزة مثلها.

ـ بعد خمسين سنة، سنجلس أنا وأنت على شرفة منزلنا، عجوزين نشرب العصير وننظر إلى هجوم النيازك والأجرام على الأرض. نحتفل بهذه اللّحظة ونذهب كلّنا سويّة إلى العالم الآخر.

قال فضيل وقتها لخطيبته مع ابتسامة ساخرة، ثم رفع كوب العصير لتحيتها، وهما يجلسان عند طاولة كافتريا صيفية مطلّة على نهر دجلة.

ـ 2 ـ

بعد ثلاثين سنة، في خريف 2070 خرج فضيل دنخا من عيادة الطبيب الذي أشار له بأن يتوخّى الحذر بسبب اضطراب ضغط الدم عنده وضعف

بدنه في هذه السن، وعاد سائراً بخطوات بطيئة إلى سكن اللاجئين المؤقت في اوبسالا بالسويد. وما ارتفاع الضغط المفاجئ الذي حصل له إلّا بسبب تلقيه رسالة على بريده الالكتروني من زوجته شاميرام كينيل، وكانت الجملة الأخيرة من نشيد الأناشيد: أهرب يا حبيبي وكن كالظبي أو الوعل الصغير على جبال الأطياب.

كانت رسالة مفهومة بالنسبة لفضيل من دون الحاجة لإجهاد ذهنه، فشاميرام تصرّ، تحت كلّ الظروف، على التلميحات والإشارات التي تتيح لها استعراض ذكائها، وهي أيضاً لا تتخلّى عن التهكّم وإثارة إنتباه فضيل إلى سيطرتها المطلقة، مهما اتّسعت بينهما المسافات. لقد كانت الخطّة التي اتّفقا عليها وهو في بغداد أن يرافق فريق المياه الجوفية السويدي، بعد أن ينتهي من أعماله في جنوب العراق، وبعد وصوله إلى السويد يقدّم من هناك على اللجوء الإنساني، ثم حين يستحصل الموافقات اللازمة، يجلب شاميرام من بغداد إلى جواره.

لكنّ المخفيّ أنّ فضيل ذا الخمسين عاماً أخذ كفايته من شاميرام على مدى ثلاثين سنة، وهو لا يريد أن يرى وجهها مرّة أخرى. لذلك لم يكن متلهّفاً لاستبدال شريحة هاتفه، أو محاولة الاتّصال بزوجته التي تقبع في بيتها ببغداد، من خلال مكالمة دولية، أو عن طريق برامج الاتّصال على النت أو أيّ شيء. كان قد مسح شاميرام من ذهنه ما إن أحسّ بأنّ السلطات السويدية ستقبل ملفّ لجوئه.

مضت عليه هنا عدّة أسابيع، قبل أن يجلس أمام حاسوب في مكتب الخدمات الإعلامية داخل الكامب ليفتح بريده الالكتروني، وشاهد الرسالة التوراتيّة من زوجته. من المؤكّد أنّ الجملة ذاتها قد كرّرتها على

كلّ برامج الاتّصال على النت. وحين يفتحها سيجدها تتقافز أمام وجهه من كلّ مكان. لم يفعل شيئاً، لم يردّ على إيميل زوجته، وانتبه أنّه لم يتأثّر بشيء. لقد صار بعيداً عنها، ولا تمثّل له الآن أيّ مصدر توتّر أو رعب. صار حرّاً أخيراً. ولكن، لماذا بعد ساعة من هذا الحدث شعر بالدوار وكاد أن ينهار لولا مسارعة بعض زملائه بالسكن لإسناده ثمّ أخذه على عجل إلى الطبيب القريب؟!

هذا الشعور أفضى به بعد مدّة إلى صديقه القديم «جبر شولكي»، الذي يعمل مهندساً للكهرباء في برنامج الفضاء السويدي منذ سبع سنوات. زاره في سكن اللاجئين الذي يقيم فيه، وكان سعيداً أن يرى صديق طفولته يقوم بهذه الخطوة الكبيرة أخيراً. سأله عن زوجته فأخبره بأنّه لن يستدعيها، وصار يتحدّث عنها وكأنّها من الماضي، وكأنّها ماتت. تفهّم جبر موقف صديقه فهو يعرف شاميرام هذه جيداً، أيّام ما كان يقيم قريباً منهم، على مبعدة عدة مربعات سكنية في حي الجامعة ببغداد.

- 3 -

كان فضيل مهندساً للري وشاميرام مهندسة مدنية، بينهما صلات عائلية ما جعلها أمام عينيه منذ الطفولة، حتّى بلغا وتزوّجها. كان يحبّها كثيراً، ويرى في عينيّها أنّها تحبّه وتقدّره وتعتني به. كانت تطبخ له على وفق جدول أسبوعي مكتوب على قصاصات ورق ملصقة على الثلاجة بالمطبخ. فتتناوب على مائدة الطعام أربع عشرة أكلة عراقية موزعة على وجبتي الغداء والعشاء، وتحرص على أن يخرج من البيت بملابس نظيفة ومكوية. تصبغ أحذيته بفرش خاصّة وأصباغ تحتفظ بها في خزانة بجوار

السرير. كان فضيل يشعر أنّه مدلّل وخلال سنة زواجهما الأولى، غطس أكثر من مرّة بمشاعر حبور فائض أنّه محظوظ بشاميرام هذه.

الخدش الأوّل في علاقتهما كان حين اكتشف بعد مرور سنوات أنّه عقيم. جلست شاميرام ليلتها أمامه وأخبرته، ببلاغة محامٍ يقرأ مرافعة في محكمة، أنّها سعيدة به، هو طفلها وحبيبها وكلّ حياتها. ولن ترغب بشيء أكثر من حياتها الحالية معه.

صدّق بها، وتكيّف مع شعوره بالخذلان أمام مهمّة أن يكون أباً ويمنح زوجته شعور الأمومة. لم ير في عينيها أيّ بريق لشعور بخسارة هذه الفرصة، وكان يقول مع نفسه؛ إنّها إمّا كانت صادقة فعلاً، أو كانت تمثّل عليه بشكل جيّد، وفي كلا الحالتين هي في موقف حسن ومثير للإعجاب.

كانت مستشارته الأولى في أيّة قضية حساسة تخصّ عمله أو حياته العامة، وفي السنوات الأخيرة صارت تقريباً مستشارته الوحيدة، مع تفرّق الأصدقاء والأقارب ما بين ميّت أو مهاجر.

لا يتذكّر متى بدأت الأشياء بالتحوّل عنده. ربّما في أعقاب الحرب الفاشلة التي شنّها العراق على تركيا من أجل جفاف نهري دجلة والفرات، والتي راح فيها العشرات من الجنود، وانفلقت بسببها العديد من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية على السطح دفعة واحدة. الشيء الذي كان يخصّ فضيل من هذه القضية كلّها، هو اشراكه في لجنة دوليّة خاصّة بالتنقيب عن المياه الجوفية. تغيّر جدول عمل فضيل فجأة، وصار يسافر إلى المحافظات، ويغيب لعدّة أيام.

استغرق فضيل مع نفسه ذات يوم ليستذكر آخر مرّة كانت الأمور بينه

وشاميرام تجري بصفاء وهدوء. كان قد مضى وقت طويل على ذلك. كانت متوتّرة دائماً، ولديها تعليقات حادّة وجاهزة، وكأنّها كانت تؤلّفها على مهل وتحفظها لحين استخدامها في الأوقات المناسبة. لم يكن فضيل يملك هذه البلاغة، ولا يستطيع القيام بردّة فعل سريعة ومؤثّرة. هو يستغرق مع نفسه قليلاً في محاولة العثور على مفردات مناسبة لبناء ردّه على زوجته، وغالباً ما يعثر على الردّ المناسب وهو في الحمّام، أي بوقت متأخّر عن المساجلة التي تكون قد انتهت قبلها بحسمٍ سريع ومثير للإعجاب لصالح شاميرام ووجهة نظرها.

كانت صاحبة منطق صلب، وتبدو أكثر حكمة ودراية من فضيل. ولذلك فقد تعوّد على الاعتذار أمامها. للاعتذار قوّة وفاعلية حين تغيب الحجّة. يكثر فضيل من الاعتذارات وبهذا يستقر سطح الأجواء في بيته مع شاميرام، ويحتضنان بعضهما خلال النوم حتّى الصباح.

كان يشعر بالإرهاق من هذه المساجلات، ويرى في عينيّ زوجته أنّ شهيتها مفتوحة على الكلام والمجادلة على مدار الساعة، حتّى لو كانا منطرحين على الفراش في ظلام الغرفة استعداداً للنوم، فبامكانها إن استفزّها فضيل أن تستغرق لساعة في تعليق يستهدف إفحام فضيل وإرغامه على الإقرار بخطئِهِ وصواب وجهة نظرها.

هل كانت تنتقم منه بهذه الطريقة لأنّها اعتنت به وانفقت حياتها معه من دون الحصول على أولاد وعائلة فعلية؟ يفكّر فضيل بهذا الاحتمال أحياناً، ثمّ يعزو تحوّلات مزاجها إلى التقدّم بالسن، وفقدانها لرونق الشباب ونضارته، ولكنّه في السنوات الأخيرة صار يطمئنّ إلى تفسير آخر؛ لقد سمح لها فضيل بذلك. سمح لها أن تتسلّط على حياته وكأنّه بلاد النهرين

وهي تلك الملكة الآشورية القديمة التي إسمها على إسم زوجته، تحكم بالصولجان والقبضة الحديدية مملكتها مترامية الأطراف.

هو يعرف أنّ هناك كيمياء معيّنة بين أيّ زوجين تبدأ بالتفاعل في الأيام الأولى للزواج ثم تستقرّ على بضعة معادلات أوّلية، وبعدها، مع مضي الوقت، تتعزّز هذه المعادلات أو تضاف لها تفاصيل أكثر حتّى تتحول إلى كتالوغ للعلاقة بين الزوجين، فيعرف أحدهما دقائق وتفاصيل الآخر، وخلال مرور الزمن يتمّ فرز مساحات السلطة، وكم يقبل الزوج من زوجته أو العكس، ومن الذي يقدم تنازلات من أجل الاستقرار في العلاقة ومن الذي لديه روح المجازفة بهذه العلاقة.

لقد ترك فضيل لزوجته أن تسلّفه الكثير من الهبات والعطايا، وحين تأتي بضربة واحدة سريعة لتستردّ ديناً صغيراً منه فهو يسكت، وهكذا صارت العناية المفرطة نوعاً من علاقة سلطة. كما أنّ فضيل يميل إلى الاستغراق مع نفسه بينما شاميرام تميل إلى الصراع مع العالم الخارجي. إنّها خطيبة بينما هو راهب بوذي. وفي لحظة ما انتبه أنّ عمله بحفر الآبار له علاقة بميله إلى الاستغراق مع النفس بينما تهتمّ شاميرام بالبناء على الأرض، بإعلان قدراتها أمام الملأ.

في النهاية حتّى الجنس، الذي كان في سنوات سحيقة وموغلة في الماضي، نوعاً من الاحتفال ومجالاً لاستعراض شاميرام لقدراتها الداعرة، صار نوعاً من تلبية توقّعات الزوجة. كان مجبراً على إبراز امتنانه لهذه الشهوات المتفجّرة. كان يمثّل، ولا يعرف هل تشعر هي بابتهاج كبير حقاً أم هي تمثّل عليه أيضاً. هي أذكى منه ومن الصعب عليه أن يلمس دواخلها بدقّة.

كان يشتهي أحياناً ممارسة الجنس مع نساء أخريات، ولكنّه يعرف تماماً أنّه مهما كان حذراً في هذا الموضوع فإنّ شاميرام ستعرف. وكان الحلّ الوسط ما بين شعوره بالضيق من الممارسة الأسبوعية الرتيبة مع زوجته، وإحساسه بأنّ رغباته صارت تخبو مع تقدّمه بالسنّ وحاجته لشيء من الدهشة مع جسدٍ جديد، هو أن يلجأ إلى العادة السريّة.

هو الآن، داخل سكن اللّجوء باوبسالا، يمارس مع نفسه كلّ ليلة بانتظام تحت الدوش المسائيّ قبل النوم، ولا يشعر بأنّ هناك اختلافاً قد حصل عنده، هذه هي حياته الجنسية الأساسية، مع يده، وما جسد شاميرام الذي شاهد فتوّته وتوتّره ثمّ ذبوله التدريجي، إلّا فاصل على هامش حياته الجنسيّة الفعلية.

- 4 -

أخبره جبر شولكي بالمستجدّات العالمية التي يعرفها أكثر من غيره لقربه من عالم الأرصاد الفلكيّة. كان فضيل يعرف أنّ الضوضاء الخاصّة بالشعور بالخطر الداهم قد خبت، وصارت أخبار تقدّم حزام الأجرام السماوية روتينية، تنبثق في نشرات الأخبار بين حين وآخر. صارت هناك نظريات دينيّة متماسكة تحظى بشعبية واسعة، تؤكّد أنّ يد اللّه ستدفع هذا الخطر جانباً.

أمّا خلف هذه الصورة الشعبية فإنّ جبر يقول إنّ الدوائر الفلكية والحكومات والشركات الكبرى حول العالم رأت أنّه من الأفضل أن يتمّ العمل بنوع من السريّة، ولا يتمّ الكشف عن تطورات المواجهة المحتملة مع الخطر القادم إلّا بشكل محدود.

ـ لدينا الآن عشرون سنة حتّى موعد الاصطدام المحتوم. ولا يبدو أنّ هناك شيئاً سيمنع هذا القدر.

قال جبر بنبرة درامية، فتذكّر فضيل سريعاً مشهد شرب العصير على أبي نؤاس بقرب دجلة مع شاميرام أيّام ما كانا خطيبين قبل ثلاثين سنة. ربّما سينتهي به المطاف هنا يراقب من نافذته هجوم الأجرام على الارض، غير قادرٍ على منع نفسه من تخيّل موقف شاميرام في اللحظة نفسها.

أخبره جبر عن انتشار أمراض نفسية جديدة بسبب توقع الكارثة القادمة، وانشغال بعض المراكز الطبّية بتوفير علاجات لأولئك المرهقين بسبب غياب المنطق في حدوث الكارثة.

ـ هناك مشروع جديد في كوريا على مستحضر طبّي يتم استخلاصه من جسم الانسان نفسه.. يعني.. يربطون المريض على جهاز.. ويبدأ الجهاز بأخذ صورة ذهنية في عقل المريض ثم يبدأ بتكوين مضادّ حيوي لها من جسم المريض نفسه.

لم يفهم فضيل كلّ هذا الكلام، ولم يكن مهتمّاً بتتبّع هذه الأخبار. كان يشعر بنفسه منطفئاً، وكأنّه فقد «معنى الحياة» أو سبب العيش. وهذا أمرٌ مفهوم بالنسبة لرجل كوّن معنىً ما لحياته بشكل مشترك مع شخصٍ آخر على مدى ثلاثين عاماً. إنّ المعنى هنا يديمه شخصان اثنان، ولا يستطيع أحدهما بنفسه أن يستمرّ في إدامة هذا المعنى.

بعد بضعة أشهر شعر فضيل بأنّه ينهار تماماً، وصار يشتاق إلى شاميرام، رغم إعلانه عن قرفه الشديد منها أكثر من مرّة، لكنّه، لسببٍ معقد يصعب توضيحه بات يحتاج وجودها. أخبره جبر بأنّ هذا تصرّف مازوشي. عليه

أن يندمج بحياته هنا ويختار شريكة أخرى لحياته، يعيش تجربة جديدة. لماذا هو مصرٌّ على الاستمرار بتجربة مرهقة واحدة، لماذا لا يستثمر الإمكانيات الجديدة التي فتحت أمامه؟

لم يكن أيّ شيء مفهوماً بالنسبة لجبر، وشاهد صديقه كيف يتحرّك لإمضاء معاملة لمّ الشمل، وصار قدوم شاميرام إلى السويد مسألة وقتٍ لا أكثر.

ـ 5 ـ

في لقائهما الأخير قال جبر إنّه سيغادر في أيّ يوم من الأسابيع القادمة باتّجاه المحطّة الدولية الوسطية في القمر. سيكون هناك جزءاً من الطاقم العالمي الذي يشرف على إدارة مستعمرات المرّيخ.

في الواقع؛ هناك مشروع على أربع مستويات كان يجري العمل عليه منذ أكثر من عقدين، وسيكتمل بشكل نهائي في السنة القادمة. المستوى الأوّل هو مشروع أوتونبشتم لخزن النطف والأجنّة لكلّ الأعراق البشرية بالإضافة إلى الحيوانات والكائنات الحيّة وبذور النباتات في ثلّاجات ضخمة في المحطّة الوسطية في القمر. هي نوع من الأرشيف الضخم للأرض. والمستوى الثاني تحت اسم «حلم عابر»، ويتكون من مراكز إيواء تتّسع لمليوني شخص. ولكنّها ليست مراكز عيش، وإنّما نوم عميق. فيرقد المتطوّع فيها على سرير، ويتمّ ربطه بأجهزة إمداد حيوي، ويستغرق في نوم ربّما يدوم لسنوات، وفي هذا نوع من الاقتصاد والتوفير في الطاقة وموارد الغذاء والأوكسجين. وهؤلاء سيشيخون على أسرّتهم المتطوّرة في انتظار لحظة زوال الخطر عن الأرض أو تكيّف الكوكب مع الكارثة التي حلّت

به، ثمّ تتمّ إعادتهم إلى الأرض من جديد، وقد خسروا سنوات كثيرة، ولكنّها بالنسبة لهم لم تكن سوى حلمٍ عابر، وهذا أفضل من الاحتراق والفناء تحت نيران الكارثة الأرضية. وإذا لم ينجُ كوكب الأرض فسيموت هؤلاء النائمون بسبب الهرم والشيخوخة وهم سعداء بحلمٍ أن ينهضوا من رقادهم في يومٍ ما.

أمّا المستوى الثالث من المشروع فهو المستعمرات المريخيّة. وقد عملت الدول الصناعية الكبرى على هذا المشروع منذ الأسابيع الاولى لتأكّد حدوث الفناء الأرضي. هناك الآن قبب زجاجية ضخمة موسومة بأسماء غالبية دول العالم، تتلقّى الإمدادات الحيوية من محطّة رئيسة واحدة، تعمل على صناعة الأوكسجين والماء والمنتجات الغذائية المتنوّعة.

لم تكشف الدول الكبرى عن هذا الجزء من عملها، وسيتمّ الإعلان عنه بشكل رسمي خلال السنة القادمة، لتبدأ عملية تسجيل أسماء المتطوعين، وإجراء الاختبارات الصحيّة والجينية عليهم، وهل يدخلون ضمن الخريطة الجينية الكبرى لحماية النوع البشري أم لا، ومؤهلاتهم العلمية ومدى الأهمية الوظيفية لوجودهم في المحطات المريخيّة. ستكون إجراءات قاسية ولا أخلاقية في نظر الكثيرين ولكنّها ضرورية جداً لاختيار ما يقارب عُشر سكّان الأرض، فعمليّة إنقاذهم جميعاً هي مهمّة مستحيلة.

المستوى الرابع والأخير هو العمل في المنطقة ب 25 الموازية لموقع الأرض وعلى خطّ الصدّ مع حزام الأجرام السماوية الشريرة، ويجري هناك تفخيخ الفضاء بالقنابل النووية والخزانات المعدنية الضخمة المملوءة بغازات الهليوم والهليون، وقد نجح التحالف الدوليّ في سحب بعض النفايات والأجرام الفضائية الصغيرة إلى هذه المنطقة، وجعلها مثل

مكبّ هائل ربّما يشكّل مصدّاً فعّالاً أمام حزام الأجرام السماوية، ويدمّر بعضها ويحرف اتّجاه بعضها الآخر.

هناك مشروع سويدي طموح ضمن ميزانية المستوى الرابع يعرف جبر شولكي عنه معلومات دقيقة، رغم أنّه ما زال لا يبشّر بخير، يتعلّق بفتح كوى وثغرات تشبه الثقوب السوداء، من خلال معادلات كهرومغناطيسية معقّدة، ولو كانت هذه الكوى بالحجم الكافي فربما ستدخل فيها الأجرام السماوية الخطرة وتختفي في بعد آخر أو باتّجاه العدم. لكنّ المتحقّق حتّى الآن هو شيء يشبه رأس الدبّوس، ويساعد على إفناء ذرّات غبار صغيرة لا أكثر.

- 6 -

كانت الممارسة الجنسيّة الأولى حامية، وشعر فضيل بأنّه يعود بقوّة إلى أفضل الأوقات التي عاشها مع شاميرام. إنّه شعور مثير أن يكون الحدث نفسه الذي تقوم به في هذه اللّحظة مبهجاً وممتعاً، ويذكّر بشكل مضاعف ومثل سطوع مبهر في الذهن، باللحظات الشبيهة في سنوات غابرة، ويكبسها كلّها في إحساس كثيف.

هل كان عليه أن يتمرّد بهذه الطريقة كي ينمّي هذا الإحساس الفريد الذي يشعر به الآن مع شاميرام؟

لم تكن شاميرام تنظر إلى الأمر على أنّه تمرّد، وإنّما فرصة لمعرفة مستوى علاقتهما وكيف أنّهما مرتبطان بقدر محتوم مع بعضهما، حتّى لو فرّقت بينهما الجغرافيا والمسافات، حتى لو صارا منهكين، ويقتربان من الشيخوخة التي تجعل كثيراً من الأشياء شاحبة أمام العينين وأقلّ أهمّية ممّا كانت عليه سابقاً.

أوحت لزوجها أثناء كلامها وكأنّ كلّ ما جرى هو خطّة من خططها، وأنّها كانت تعرف هذه النتيجة التي انتهيا إليها. لم يردّ عليها فضيل بشيء واضح. لم يكن يرغب بالمساجلة والدفاع عن تمرّده. ولم يخبرها بكلّ الأشياء السلبية التي كانت تتجمّع في صدره ضدّها. كان مسترخياً ويبدو في جانب ما من نفسه مستمتعاً بالثرثرة العقيمة المعتادة لزوجته، ويشعر بالحنين والافتقاد الشديد للمرارة في الحلق بعد مساجلات مضنية غير مجدية، تشبه مرارة القهوة الجيّدة. ولو كان جبر شولكي بجواره ويسمع منه هذه الأفكار التي تدور في رأسه لأكّد له تصوّره السابق عنه بأنّه مازوشي ويحبّ تعذيب نفسه بهذه المرأة الحيزبون.

تكيّفت شاميرام سريعاً مع الإمكانات الجديدة التي انفتحت لها في البلد الجديد. انتقلا للعيش في شقّة فسيحة في استوكهولم، وانهمكت، دون أن تضيّع دقيقة واحدة، في دمج نفسها مع الحياة هنا. كان إيقاعها أسرع من ايقاع فضيل. ترجمت شهادتها الجامعية، وتقدّمت بملف كبير يحوي كتب الشكر وتقارير تقييم عملها ومصوّرات للمنشآت والبنايات التي أشرفت على إنجازها في العراق، وحصلت على وظيفة باختصاصها، وصارت بعد أقلّ من سنة تقبض أجراً محترماً، بينما انتظر فضيل مساعدة صديقه جبر شولكي، الذي وجد له بعد سنة تقريباً وظيفة باختصاص الرّي في مشاريع زراعية ترتبط جزئياً ببرنامج الفضاء السويدي.

كان يقضي وقتاً طويلاً في عمله، ويعود متأخّراً إلى البيت، ووجد أنّ هذا الأمر مناسب له، فهو يعني قضاء وقت أقلّ مع شاميرام، التي عادت سريعاً إلى كونها شاميرام كينيل نفسها التي تركها في بغداد، وعادت علاقتهما إلى الإيقاع ذاته، فهي صاحبة الحقّ دائماً وهي التي تنتصر وتفرض رأيها، وهو

الذي تغيب الحجّة عنه، ويتصاعد غضبه حتّى ليكاد ينفجر بوجه زوجته ولكنّه يكبح نفسه في اللّحظات الأخيرة. هو يقول لنفسه دائماً إنّه لو كان رياضياً أولمبيّاً فسيفوز بالميدالية الذهبية بسهولة في مسابقة كبح جماح النفس ولجم الغضب.

ولكنّ هذه الميزة لا تمثّل شيئاً إيجابياً في سياق علاقته مع شاميرام. وهو لا يفهم لماذا بعد هذا العمر كلّه لا يستطيع إجلاسها أمامه وربطها بالحبال وغلق فمها بشريط لاصق أو كمّامة قماشية، ثم يطلق العنان لنفسه كي تسترسل على مهل من دون انشغال بالوقت، في عرض وجهة نظره بشاميرام، وربّما يتلكّأ قليلاً أو يستغرق مع نفسه في بحث لجوج عن كلمات مناسبة للتعبير عن مشاعره، ولن تكون هذه مشكلة جديّة، ما دام يملك الوقت كلّه لاستثماره في التعبير عن نفسه بشكل دقيق، وقتٌ طويل تكتفي فيه شاميرام بالصمت والبحلقة بعينين متّسعتين من دون أيّ شيء أكثر.

صارت شاميرام تذهب إلى صالة الألعاب الرياضية، وتجرّأت لقصّ شعرها وصبغه باللون البيرغندي مع ذؤابات متدرّجة بلون فاتح، مثلما تفعل المراهقات. أنزلت وزنها، وتركت التدخين، ثمّ فرضت على فضيل أن يقطع التدخين أيضاً. كان يتصايح معها حول هذا الموضوع، ويقول لها إنّه شأنُها، ولا يجب أن تفرض عليه اختياراتها الخاصة.

صار يدخّن خارج الشقّة، وأحياناً حين يتأكّد من نومها يخرج إلى الشرفة الباردة ليدخّن سيجارة أو اثنتين ثمّ يفرّش أسنانه قبل العودة إلى غرفة النوم.

حين كان يتّصل به جبر من المحطّة القمرية ويتحدّثان على الهاتف، يخبره بوضوح، في معرض الدفاع عن نفسه، أنّه يتعب بسرعة من العراك.

ـ لست خائفاً ولا جباناً، أستطيع العراك إلى ما لا نهاية، ولكن كيف ستكون هذه الحياة التي بدل أن نستمتع بها ننفقها بمعارك تافهة لا تنتهي.

ـ أنت اخترت الحياة مع شخص يحبّ المعارك التافهة، فإمّا أن تخرج من هذه الحياة أو تتقبّل الدفاع عن نفسك وخوض هذه المعارك التافهة.

ـ لم يعد بالعمر متّسع يا جبر. لا للعراك ولا للبحث عن حياة بديلة.

هكذا ينهي فضيل حواره مع صديقه حول هذا الموضوع، ويحاول قدر الإمكان أن لا تستغرق المكالمة كلّها في حديث عن شؤونه العائلية.

خلال تلك الفترة تسلّم فضيل على إيميله رسائل من صديقه جبر تحوي صوراً أولى لمحطّة الإسكان السويدية على المرّيخ. كانت غير معلنة ويشاهدها فضيل لأوّل مرّة. قبب كبيرة وأخرى صغيرة زجاجية من عدّة طبقات، تتحمّل صدمات النيازك والظروف المرّيخية وتقوم بفلترة حرارة الشمس إلى المستويات الأرضية.

هذه كلّها مرتبطة بشبكة عنكبوتية من الممرّات المدفونة تحت سطح المرّيخ، ويرتبط الكانتون الإسكاني السويدي، مثل غيره من الكانتونات بالمحطّة العالمية الكبرى، التي تجهّز بالأوكسجين والغذاء، وفيها مقرّ الطوارئ الدوليّ في حال حدوث أيّ تلف أو عوارض تهدّد الحياة في المستعمرات الطرفية المسجّلة بأسماء الدول.

بعد مرور عامين على إقامة فضيل وزوجته في السويد سمعا من وسائل الإعلام العالمية كلّها آخر التطوّرات، فقد بدأ التسجيل على الهجرة إلى المحطّات المرّيخية. وشاهد فضيل في الأشهر اللّاحقة كيف استسلم أكثريّة الشعب السويدي للإجراءات الحكومية، من فحص الحمض

النووي واستبانات الكفاءة والقدرة على السفر بدنياً وصحيّاً، بالنسبة للراغبين بالأمر كلّه.

كانت الرحلات المكّوكيّة حتّى المريّخ ثمّ العودة إلى الأرض حتّى اكمال نقل كامل المتطوّعين الراغبين إلى مستعمرة السويد على المرّيخ ستأخذ سنوات، ولكن حسب خطّة الحكومة فإنّ كلّ مشروعهم سينتهي قبل حدوث الكارثة الأرضية بوقتٍ كافٍ.

ذهب فضيل وشاميرام كما البقيّة إلى المراكز الصحية وأنجزا كلّ الإجراءات المطلوبة منهما، وحين عادا ظلّ فضيل يفكّر؛ إنّها فرصة جيدة أن يسافر إلى المرّيخ، ليس لأنّه مهتمّ حقّاً بالنجاة من كارثة محقّقة وإنّما للفرار من شاميرام. ولكن، كيف سيفعل ذلك إن كانت رجلها على رجله في كلّ خطوة؟ هل سيتعلّق بالباص الذاهب إلى المرّيخ مثلاً. يحجز تذكرة أونلاين على الحاسوب، يأخذ تكسي شخصية إلى المرّيخ؟!

كانت شاميرام وحدها تشعر بأنّ الحياة تمضي وفق منطق مفهوم، وتتبرّع من نفسها للتعبير عن وجهة نظر فضيل بهذه الحياة، عندما يسألها أحدٌ ما، حين تتلقّى اتصالات هاتفية من جيران في بغداد أو أهلٍ وأقارب متوزّعين على أرجاء الأرض.

كانا سعيدين مثل زوجين أنموذجيين. هكذا كانت شاميرام تصوّر الأمر بالنسبة للآخرين. ويرى فضيل حدوث هذا الأمر أمامه ولا يعترض. فهو يخجل أن يطّلع الآخرون على مشاكلهما التافهة، وربّما يسخرون ويضحكون من العجوزين اللذين ساءت علاقتهما أخيراً. ولكنّ الآخرين لا يعرفون أنّ العلاقة هي هكذا منذ البداية ولم تتخرّب الآن. إنّه دوار من

الأفكار يضغط على رأس فضيل ويحتاج أن يسرّبه إلى الخارج من أجل الاستقرار النفسي المطلوب، غير أنّ فضيل يمتنع عن ذلك.

في النهاية أبلغت السلطات السويدية الزوجين العجوزين عبر رسالة وجداها أسفل فتحة البريد لباب الشقّة بأنّهما مستبعدان من برنامج الإسكان المرّيخي. كانت العبارات لطيفة وأنيقة، وغير مطابقة للحقيقة. وكأنّه اعتذار من شركة عن طلبهما للحصول على شقّة في منتجع سياحي. تخيّل فضيل عبارة أخرى أكثر صدقاً: أنتما لا تستحقّان النجاة.. نرجو لكما الاستمتاع بالحريق النجمي البطيء والمؤلم وربما إن تحصّنتما بشكل جيد ستكونان محظوظين لتشمّم رائحة شواء جسديكما على مهل قبل أن تفيض روحاكما بشكل تامّ وتتحوّلان إلى رماد.

علّقت شاميرام على الخبر المؤسف بطريقة شاعرية، وذكّرته بجلستهما على المقاعد الخشبية في الكافتريا الصيفية بشارع أبي نؤاس أمام نهر دجلة قبل أكثر من ثلاثين سنة.

ـ قدرنا أن نعيش هذه اللحظة الدرامية.. لن أنسى بالتأكيد تجهيز قدحين من العصير للجلوس على الشرفة.

قالت شاميرام ذلك بنبرة توحي أنّ حريق الأجرام السماوية سيحدث غداً صباحاً، ولكنّ فضيل أراد لحظتها أن يقفز باتّجاهها ويعضّ رقبتها المترهلة، فيجهز على حياتها هنا ويحرمها من لحظتها الرومانسية الغريبة، ليجلس في اللحظة الموعودة لوحده على الشرفة ويشرب العصير أو ربما يجلب قنينة ويسكي كاملة ويسكر تماماً فلا يشعر بألسنة اللهب التي ستشويه حيّاً.

- 7 -

كانت الأحداث تتسارع، رغم أنّ اللحظة الموعودة للقيامة الأرضية ما زالت على مبعدة سنوات. صار هناك شبه يقين شعبي بحدوث الكارثة. تراجعت إلى الخلف أحاديث المؤامرات والقصص المفبركة في الدوائر الغربية. حتّى المؤمنون انتقلت نقاشاتهم إلى مناطق أخرى أعقد، وصار بعضهم يتساءل عن جديّة القناعة بأنّ اللّه سيحمي الحياة على الأرض. ربّما علينا العودة إلى النصوص المقدّسة وإعادة تأويل النبوءات من جديد كي تتناسب مع لحظة القيامة هذه. لقد قام اللّه في مناسبات سابقة بانزال العقاب الشديد على الأرض، لقضايا تتعلّق بنكران الإيمان. ولكن، ما ذنب المؤمنين باللّه اليوم، إن كان هناك بشرٌ متمرّدون؟ عليه أن يختصّهم بالعقوبة ولا يعاقب معهم المؤمنين على إيمانهم. في النتيجة زاد تصوّف البعض واستغرقوا أكثر في العبادات، بينما في الجانب الآخر ازداد عدد الخارجين على الدين تحت وطأة الشعور الهائل بالعدمية.

قلّة محدودة من المؤمنين نظرت إلى المحاولات البشرية المثيرة للإعجاب لإنقاذ الحياة الأرضية واقتراح الحلول، على أنّها «تسديد إلهي»، وأنّها وسيلة اللّه الخفيّة لإنقاذ الجنس البشري، رغم أنّ المشغولين بعملية الإنقاذ الكبرى لم يكونوا معنيين كثيراً بربط جهودهم بأيّة خطّة إلهية أو غيبية غامضة.

من هؤلاء تاجران عراقيان وظّفا كلّ أموالهما من أجل شراء رقعة صغيرة في الدائرة الاستعماريّة التي تمّ استصلاحها على سطح المرّيخ. وأسمَيا هذه الرقعة الصغيرة المحدودة بـ«مستعمرة العراق»، وهذه البقعة ستكون

هي الوحيدة المرتبطة بإسم العراق وتحوي عراقيين على سطح المرّيخ، لأنّ الحكومة العراقية لم تكن مهتمّة بهذا الموضوع بجدّية واضحة. فمنذ أن غدا حدث القيامة النجمية القادم أمراً غير قابل للجدل وحقيقة واقعة، تخلّى الكثير من الساسة العراقيين عن طموح الترشيح للانتخابات، وعاد أصحاب الجنسيات الأجنبية إلى بلدانهم التي جاؤوا منها. ووصل شباب إلى البرلمان الجديد، وشكّلوا الحكومة، غير أنّ التيارات المشكّلة لهذه الحكومة كانوا في تنازع شديد ما بين فكرة أنّ اللّه سيحمي العراق، فهو سرّة العالم وأصل البشرية، وآدم وحوّاء وسفينة نوح وجنّة عدن وأرض الأنبياء والأولياء ما إلى ذلك، وفكرة أنّنا جزء من العالم الحديث ويجب علينا أن نلحق به بأيّة صورةٍ كانت وعلينا أن نكون جزءاً من خطّة إنقاذ البشرية. ومع التنازع الشديد واختلاف وجهات النظر كانت المحصّلة هي عدم القيام بشيء.

كان التاجران العراقيان قد قرّرا في البداية أن تكون المستعمرة ملجأً لعوائلهم، ثمّ أضافا أسماءً أخرى تضمّ موظفيهم الذين سيديمون استثماراتهم الزراعية والصناعية على كوكب المرّيخ.

تابع فضيل كلّ هذه الأخبار ببرود، وكأنّه يشاهد فلماً للخيال العلمي على التلفزيون، على خلاف زوجته التي ظلّت تلحّ بطلبها أن يراسل هذين التاجرين العراقيين من أجل تقديم سيرتهما الذاتية، فلربّما يحصلان على مقعد في رحلة الإنقاذ العراقية. كان لشاميرام أمل هائل عجيب لا يستطيع فضيل فهمه. ما الذي بقي لديهما من عمر كي يحاولا إنقاذه؟ لماذا السنوات العشر القادمة مثلاً أهم بكثير من السنوات الخمسين التي مضت؟

كانت شاميرام تردّ عليه باقتباسات من الكتاب المقدّس، رغم أنّ فضيل يعرف جيداً أنّها ليست متديّنة، ولكن، ربّما هو لم ينتبه لتأثيرات دائرة التحوّلات الإيمانية العالمية. كانت تقول إنّ الأمر لا يتعلّق بخمس أو عشر سنوات، وإنّما بـ «ولادة جديدة».

ـ مولودين ثانيةً، لا من زرعٍ يفنى، بل ممّا لا يفنى، بكلمة اللّه الحيّة الباقية إلى الأبد.

تتلوشاميرام على مسامع زوجها غير المتحمس هذا الاقتباس من أعمال الرسل، لتوضّح أنّها مؤمنة بأنّ جهود البشر الحالية، مؤمنين وغير مؤمنين، تندرج ضمن الخطّة الإلهية لخلود الحياة.

وكالعادة فإنّ الدور المطلوب من فضيل هو أن يهزّ رأسه مُقرّاً بصحة كلام زوجته ولا يستمرّ في مجادلتها.

ـ 8 ـ

ما صار يجذب انتباه فضيل أكثر من أي تطورات درامية لرصد تقدّم السرب الجرمي الشرير من كوكب الأرض، هو انتشار عقّار الـSD وهو اختصار لجملة « Self – delusion» الوهم الذاتي. وهي تسمية شعبية للعقار الذي كانت الشركة الكورية قد طوّرته قبل سنوات لعلاج آثار الانهيار النفسي بسبب ترقّب القيامة القادمة، وكان نجاح العلاج مبهراً بما لا يقاس مع كفاءة أيّة علاجات نفسية سابقة.

لقد دخل تجّار المخدّرات ليستثمروا هذا العقّار على نطاق واسع، وسمع فضيل، وهو يعد قهوته في مطبخه داخل الشقّة، تقريراً تلفزيونياً

يتحدث عن انتشار العقّار بين الشباب السويديين، وصعوبة الحد منه والسيطرة على تعاطيه، رغم أنه لا يخلّف أي تأثيرات مشابهة لتعاطي المخدّرات المعروفة. وهناك جدل إعلامي وسياسي حول شرعية تعاطيه أو ضرورة إقرار قوانين لمنعه وملاحقه مروّجيه.

الحقيقة التي صارت واضحة بالنسبة لفضيل وآخرين من المتابعين، أن الحكومة السويدية تعرف أن غالبية شعبها سيشترك في المحرقة النجمية القادمة، وقلة قليلة هي من ستنجو، وهذا ربما ما جعلها متهاونة في التعامل الجدي مع عقّار الأس دي.

كانت حبّة الأس دي صغيرة مثل حبّة المنوّم، وكان يجري استخلاصها في البدايات الأولى من خلال جهاز كبير الحجم. يجلس الشخص «المريض» على كرسي ويتمّ ربط أسلاك وأنابيب في ذراعيه، ويطلب الطبيب من المريض أن يستحضر في ذهنه الفكرة التي يريد الإيمان بها، ويجب أن تظلّ هذه الفكرة حاضرة في ذهنه طوال عمليّة استخلاص عناصر حبّة الأس دي من دمه.

في النهاية ينهض المريض ويُمنح حبّه دوائه التي حوت الحمض النوويّ المرتبط بالفكرة التي يريد الإيمان بها، وحالما يبتلع الحبّة، ويمنحها فرصة أن تذوب في معدته ويتمّ امتصاصها من جديد لتصل إلى خلايا دماغه. وبعد مرور وقتٍ كافٍ سيشعر المريض بتأثيرات الفكرة التي كانت تعجبه ولكنّه يفشل بالإيمان بها. سيتشبّع بالإيمان الجديد ويغدو يقيناً راسخاً لديه، على الأقلّ على مدى ستّ ساعات، وهي المدّة التي يستغرقها تأثير حبّة الأس دي.

هذا المسار كلّه لا يشبه أيّ شيء يتعلّق بأجواء تعاطي المخدّرات، كما

أنّه لا يحوي موادّ قابلة للتهريب مثلاً، وإنّما الأمر كلّه أشبه بمن يقضم أظافره، أو يلحس الدم من إصبعه المجروح.

لم يمض وقت طويل حتّى صار الجهاز المعقّد والكرسي والأسلاك الكثيرة مجرد علبة صغيرة تحوي كامل «العدّة». ورغم أنّ بيع هذه العدّة لم يكن شرعياً، ولكن هناك من يستطيع توفيرها مقابل مبلغ مناسب. ومع بعض الملاحظات حول التعليمات الدقيقة الخاصّة بنجاح عملية استخراج الحبّة السحرية يستطيع الإنسان أن «يؤمن» لستّ ساعات بأيّة فكرة يريدها مهما بلغت من الجنون واللا معقولية.

كان فضيل مهتمّاً بهذه الحبّة لهدف معقول ومنطقي جداً؛ أنّ عذاب احتراقه تحت ألسنة اللهب التي يخلّفها اصطدام الحزام النيزكيّ بالأرض، لا يساوي شيئاً أمام هذا العذاب البطيء مثل إبرة يوميّة بالعضلة، الذي يشعر به بإنفاق أيّامه مع شاميرام حتّى اللحظة القيامية الموعودة. كم سيكون جميلاً بالنسبة له لو أنّ وكالات الفضاء العالمية أعلنت أنّ الحدث المتوقّع تقدّم سريعاً بالزمن وسيحدث الإسبوع القادم.

سيجلب جهاز الأس دي مهما كلّف من ثمن، من دون أن يخبر شاميرام، لا لشيء إلّا لإقناع نفسه بالسعادة التي يعيشها مع هذه المرأة، حتى لو أضطرّ إلى استخلاص دمه أربع مرّات خلال اليوم. سيكون شيئاً جيداً أن يشعر بالاسترخاء أخيراً ويغادر هذا الشدّ والتوتر، ويتصالح مع نفسه ومع حياته مع شاميرام، ويتوقّف عن إجراء المحاكمات لأخطائه وتقديراته غير المناسبة. يتمسك بصورة منطقية عن نفسه وحياته حتّى لو كانت صورةً مختلقة ومصنوعة. لا شيء يهمّ في نهاية المطاف ما دام غير ملزم لتبرير ما يقوم به للآخرين، حتّى لشاميرام نفسها.

اشترى الجهاز أخيراً، وخامرته مشاعر غريبة وهو يعود بالكيس الكبير إلى منزله. كان مرتاحاً، وكأنّ مجرّد إمساكه لهذا الحلّ السحري هو حلّ بحدّ ذاته. دخل بحذر وأخفى الكيس بعيداً عن عينيّ زوجته، واستمرّ شعوره بالراحة، حتّى أنّه استطاع إطلاق بعض كلمات الإطراء لشعر زوجته وتسريحتها الجديدة ذات الالتفافات المجعّدة على الجانبين، رغم أنّها تظهرها بهيئة أفريقية مزيّفة.

امتنع في حمّام ما قبل النوم عن ممارسة العادة السريّة، واستطاع تلك الليلة مضاجعة زوجته بكفاءة. حتّى أنّه أجبرها، رغم كرشها البارز، على تطبيق وضعية شاهدها في بعض أفلام البورنو، بممارسة أمامية وقوفاً وجهاً لوجه.

استسلم لحظتها لمشاعر قويّة بأنّ قصّة نهاية العالم وكأنّها قد وصلت إلى نهايتها، وأنّه لم يعد مهتمّاً، وأنّ حياته أكثر خفّة ممّا كان يتصوّر، وأنّ هذه اليوميات البسيطة، مثل نشر الجبنة اللينة بهدوء ابتداءً من حافّة قطعة الخبز لتغطّي كامل مربّع القطعة، كما كانت تفعل زوجته باصرار وانتظام كلّ صباح، هي أهمّ من الأحداث الكونية والعالمية الكبيرة.

ظلّت هذه المشاعر قويّة لديه، بسبب وجود جهاز حبّة الأس دي بحوزته، حتّى من دون أن يستعمله. ظلّ الجهاز مخفياً، وصار من الممكن الادّعاء بأنّه ينسى في بعض الأحيان وجوده أصلاً.

- 9 -

مثل أيّ مواطن سويدي آخر كان جبر شولكي قد خضع للفحوصات الطبّية المطلوبة منه، وبسبب اختصاصه الدقيق والمهمّ فإنّ حظوظه كانت

عالية، وفي الإعلان الأخير السرّي عن الناجين، والذي تمّ نشره من خلال البريد العادي، وصلت رسالة إلى جبر، وهو في المحطّة القمرية، تبلغه بإنه سيكون واحداً من أعضاء «الفرقة الناجية».

مع هذه الأخبار السعيدة كان جبر يشعر بأنّه واحدٌ من قلّة قليلة من البشر ممّن يملكون هذا الحظّ الفريد، فهو خارج كوكب الأرض أصلاً في المحطّة القمرية، وستكون لديه بالإضافة إلى ذلك وحدة سكنية في مستعمرة السويد على كوكب المرّيخ. ولم يعرف ساعتها لماذا هجمت على ذهنه وهو يقرأ رسالة إعلان النجاة صورة صديقه القديم صاحب الملامح الكئيبة فضيل دنخا.

حين اتّصل بفضيل تلفونياً، كان الأخير يعيش وضعاً ضبابياً، صار غير مهتمّ تماماً وكأنّه ميّتٌ مَرجَاً. يقضي أغلب وقته في النوم والأكل، ويأخذ إجازات مرضية كثيرة من عمله، ولا يردّ على نصف أسئلة زوجته، وتركها تعمل من دون تكرار اعتراضاته على مشروعها الخاصّ بحجز مقعد في سفينة النجاة العراقية.

قال له جبر إنّه يملك بطاقة يانصيب لا يحتاجها. هو مقيم على المحطّة القمرية ومرتاح هنا، وهذه البطاقة ستكون لصديقه المقرّب.

ـ أنا لا عائلة لدي، وأنت صديقي الأحبّ وتستحق طوق النجاة هذا. اترك شاميرام تشوى على كوكب الأرض لوحدها وانجُ بنفسك.

ـ كيف أتركها! ماذا سيقول الآخرون عنّي؟

ـ تسعين بالمئة من «الآخرين» سيتحولون إلى كباب، دعهم يُشوَون مع وجهات نظرهم عنك.

أيقظَ كلام جبر شولكي فايروس الهروب من جديد في رأس فضيل فصار هذا الفايروس ينمو وينشطر ويتكاثر، ما جعله يعود لمتابعة أنباء الرحلات الأرضيّة إلى المرّيخ، وكم تفاجأ من حجم الاهتمام والمتابعة للبثّ المباشر لأولى الرحلات الفعلية، وهي رحلة أميركية.

كانت الرحلة حتّى المريخ تستغرق سابقاً 450 يوماً، ولكن بعد عام 2040 تقلّصت هذه المدّة بسبب اعتماد محركات تعمل بالوقود النووي فغدت 39 يوماً فقط. على أن يكون السفر في الفترة التي تشهد توازي كوكب المريّخ، الرابع في ترتيب المسافة عن الشمس، مع كوكب الأرض، الثالث في هذا الترتيب، وهذا التوازي يسمّيه علماء الفلك «نقطة المقابلة»، لأنّ الكوكبين يكونان في مدارين متجاورين.

تكاثرت الرحلات، وظلّ فضيل يتابع أخبارها باهتمام، وما حصل مع المستوطنين الأرضيين على سطح المرّيخ أول وصولهم، وكيف بدأوا يومياتهم هناك. مراكز الرياضة والمسابح، إعادة تدوير الفضلات، وما إلى ذلك، ثمّ سمع أنّ مركز أبحاث الفضاء السويدي قد طوّر مشروع الثقب الأسود ليغدو بحجم كفّ طفل، وهم غير متفائلين أنّ المشروع سيكون ناجحاً في ابتلاع الاجرام السماوية المهاجمة للأرض في الوقت المناسب. لكنّهم وظّفوا هذا المشروع في برنامج النفايات الصناعية ونفايات المنازل في مستعمرة السويد على كوكب المرّيخ.

خلال تلاحق الأحداث هذا كانت شاميرام كينيل قد رشّقت نفسها، وأجرت عملية شفط للدهون من بطنها المترهلة، وعمليات حقن لوجهها. صارت تبدو للناظر من بعيد وكأنّها أصغر بالسنّ عشر سنوات أو أكثر. كانت تتواصل بشكل مستمرّ مع مشروع سفينة النجاة العراقيّة،

لتنافس المتباريات الأكثر شباباً منها من المهندسات المدنيّات، ولكن لم تتلقّ أيّ ردٍ مشجّع.

وفي مساء حاسم غيّر اتّجاه البوصلة الداخلية لفضيل، اكتشفت شاميرام الجهاز الخاصّ بحبة الأس دي. جلبته إلى الصالة أثناء ما كان فضيل يتابع الأخبار على التلفزيون. رفعت الريموت ودون استئذان من زوجها أغلقت التلفزيون، وجلست في إشارة إلى بدء محاكمة طويلة، ووضعت الكيس الذي حوى الجهاز أمامها على الطاولة. سألته عن ماهية هذا الجهاز، فشعر فضيل أنّ لسانه انعقد، لم يستطع تجهيز جواب سريع. وبدل أن تستمرّ شاميرام بتكرار سؤالها دون الحصول على جواب صوّرت بهاتفها غلاف العلبة ثم وضعته في محرّك البحث على النت في هاتفها، وظهرت لها معلومات عن الجهاز وما يفعله.

ـ لماذا تريد جهازاً من هذا النوع؟ ما المشكلة التي تعانيها؟

لم يكن فضيل مستعدّاً لإعطاء شاميرام الأجوبة التي تتوقّعها. لقد فاجأته. هل يخبرها بأنّه يشعر بالقرف منها، ومع ذلك في الوقت نفسه يحاول أن يتجاوز هذا الشعور السيء من خلال وسائل لا تؤثر على شاميرام في النهاية؟ هل تفهم وتقدّر محاولاته للتكيّف معها، بدل أن يتركها ويرحل؟

لم تكن أجوبته مقنعة بالنسبة لها، لا الفضول ولا محاولة التعرّف على تجارب جديدة هي أسباب معقولة، خصوصاً مع ثمن الجهاز الباهظ. كانت شاميرام أذكى منه وتعرف أنّه يخبئ الحقيقة، وظلّت متوتّرة ومنفعلة، وسرعان ما انتقل هذا التوتّر إلى فضيل فلاذ بالصمت أكثر، كما يفعل

أحياناً حين يصل الجدال إلى نهايات سيئة جداً، تركها ونهض مغادراً إلى الحمّام، لطالما عثر هناك على الكلام المناسب، ولكن في الوقت المتأخّر.

صاحت شاميرام أنّ عليه إرجاع هذا الجهاز إلى الجهة التي اشتراه منها واستعادة المبلغ. وأنّ هذا آخر كلام لهما في هذا الموضوع. خرّ البول ثقيلاً في مقعد الحمّام ومعه نزلت أول جملة منطقية في رأس فضيل:

ـ أنت تقصدين كلامك أنت، وليس كلامنا. أنت لا تعطيني أيّ حق في الكلام أو فرض رأيي أو ما أرغب وأشتهي.

قال ذلك، وكأنّ شاميرام أمامه، ولكنها كانت قد تركته إلى المطبخ بعد جملتها الأخيرة الحاسمة.

ـ 10 ـ

أخبره جبر شولكي بالترتيبات كلّها. عليه الذهاب إلى محطّة الاستقبال الفضائية، للتعريف بنفسه. لقد وضعه جبر في مكانه مع خطاب تزكية بإنّ فضيل مناسب للعمل في محطّة الماء الخاصّة بالمستعمرة السويدية. سيعطونه في محطّة الاستقبال رقم مقعده على الباص الفضائيّ النووي، وموعد الرحلة وساعة المغادرة بالضبط. أكمل فضيل الإجراءات الورقية، وتسلّم بطاقة هوية، فعل ذلك كلّه في الأوقات التي كانت شاميرام تظنّ فيها أنّه في مكان عمله.

أراد اخراج حقيبة سفره مع ملابسه وأغراضه، لكنّ شاميرام ستنتبه إلى المفقودات في الشقّة، لذلك اشترى حقيبة جديدة وملأها بما يحتاجه من أغراض وملابس وتركها في مكتبه في محلّ عمله. وفي الليلة الأخيرة التي

سبقت موعد الرحلة، أخذ بعض الأشياء ذات الطابع العاطفي والذكريات من عيشه في بغداد، مع ألبوم صورٍ قديمة، وتحفيّات صغيرة كان اشتراها من أماكن زارها خلال سفرياته القليلة في أيّام شبابه.

حزم كلّ هذه الأشياء في كيس كبير، وقبل المغادرة عند الفجر ألقى نظرة أخيرة على جسد زوجته النائمة على السرير، كانت تبدو لطيفة وهي ساكنة هكذا، وبدت له حسناء بملامح جميلة، خصوصاً مع التعديلات الأخيرة التي أجرتها، وهي تعديلات لن ينشغل بها إنسان يعرف أنّه سيموت عمّا قريب في حدث استثنائي يفني جنس البشر على كوكب الأرض، ولكن هذه هي شاميرام.

شعر بالحزن وهو يغادر. وصل إلى محطّة الباص الفضائيّ في الموعد، والشعور بالحزن يتضاعف في نفسه. كان يعرف هذه الأمواج من المشاعر والأحاسيس جيداً، إنّها الحبال والأربطة التي زرعتها شاميرام في داخله والتي تضمن من خلالها عودته إليها في كلّ مرّة. لكن الأمر انتهى الآن عند فضيل، وسيقاوم أيّ مشاعر تدفعه للتراجع والتخاذل. ستفنى الأرض، ويريد أن يحظى ببضعة أيام أخيرة لوحده قبل أن يموت. ربّما سيموت خلال هذه الرحلة العجيبة، أو بسبب حادث ما، فهو ذاهب إلى المجهول. في كلّ الأحوال هو يريد خوض هذه التجربة وحيداً من دون ظلّ شاميرام بجواره ولا تعليقاتها وتفسيراتها التي تغدو بحكم الإكراه والتعوّد تفسيرات لا يرى فضيل العالم إلّا من خلالها.

كانت الرحلة طويلة ومرهقة، ولكن مثلما في طائرة فخمة تعبر الأطلسي، هناك شاشات عرض لأفلام وبرامج وأغانٍ، مطعم للوجبات الثلاث، ومنامات وحمّامات. مكتبات وبار صغير فيه طاولات لألعاب

الورق وغيرها، لكنّ الشيء الأساسيّ الذي واظب عليه فضيل على مدى تسعة وثلاثين يوماً هو النوم، ربّما بسبب الحزن، فهو كلّما داهمه حزن عميق يشعر بخدر وإرهاق ورغبة بالنوم.

حين وصلوا في النهاية سالمين إلى المحطّة الدولية الرئيسة على سطح المرّيخ، كان فضيل يشعر بأنّ زمناً طويلاً قد مضى. نقلوا روّاد الباص الفضائي إلى صالات كبيرة، ثمّ من هناك إلى قطار تحت الأرض يذهب باتّجاه المستعمرة السويدية. شعر باختلال خطواته ربّما لاختلاف الجاذبية رغم التعديلات التقنية عليها، وما سوى ذلك كانت الأجواء كلّها لا تشير إلى شيء مختلف عمّا يمكن أن يراه أنسانٌ ما على كوكب الأرض. سيعود الباص الفضائي إلى الأرض خلال الساعات القادمة لاستئناف رحلة جديدة.

بعد عدّة ساعات بالقطار، وصل إلى المستعمرة السويدية، وكم تفاجأ أنّها مؤثثة ومصمّمة لتعكس أجواءً وبصمات البيئة السويدية. كانت شاشات بلازما كبيرة تعرض مناظر مسجّلة من غابات السويد والبحر والأنهر والقوارب والسفن وما إلى ذلك. لقد تمّ حفظ ذاكرة بصرية وافية عن بلد سيختفي بعد بضع سنوات وربما لن يعود أبداً.

وقف فضيل في قاعة واسعة محاطة بهذه الشاشات المترابطة مع بعض، حتّى لكأنّه في مكان ما من استوكهولم. ظلّ ساهماً شارد الذهن قبل أن ينبّهه أحد موظّفي المستعمرة إلى ضرورة التحرّك.

انتهت اجراءات التوطين، ثمّ سلّموه مفاتيح شقّته الصغيرة. لم تكن برفاهية شقّته التي تركها هناك على كوكب الأرض، كانت أشبه بعلبة،

ولكنّها شديدة الترتيب والأناقة، مع شاشات بلازما على حائطين وسقف واسع، وحين تختار منظراً ما، فإنّك يمكن حينها أن تشعر بسعة المكان الذي أنت فيه، بسبب الأفق الوهميّ الذي تعرضه الشاشات أمامك.

بعد مضي حوالي أربعين ساعة، تمّ الاتّصال به لتسلّم عمله في المستعمرة. ليس المكان هنا للاسترخاء وقضاء إجازة، كلّ شخص له وظيفة محدّدة. شيئاً فشيئاً ومع اختلاطه بالآخرين، ومشاركته إيّاهم في قاعات الطعام، أو في النادي الرياضي، ثمّ الاطمئنان إلى رصانة هذه المنشآت وصعوبة تعرّضها للخطر، شعر فضيل بالاسترخاء، وأنّه يمكن أن يمضي السنوات القادمة في هذا المكان مع إدعاء أنّه بات يلمس شيئاً من السعادة. حتّى أنّه، بعد مضي أشهر، اكتشف إنه يثرثر كثيراً مع رفيقة سويدية أربعينية ذات شعر أسود فاحم وعينين زرقاوين، تعمل معه في محطّة تقطير المياه، وفكّر أنّها ربّما لو لم تكن مرتبطة لكان من الممكن أن يغدوا عشيقين. كان اسمها آنّا دنكن. تعرف أشياء كثيرة لم يألفها فضيل سابقاً، فهي تعزف على البيانو، وتؤلّف الأغاني، ولديها وجهات نظر متفائلة عن مستقبل البشر، وما هو أهمّ؛ أنّها كانت تنصت بالفعل لكلام فضيل رغم ركاكة لغته السويدية.

- 11 -

كانت قد أنقضت أربعة عشر شهراً على إقامة فضيل دنخا في المستعمرة السويدية، وسمع من أصدقائه في مطعم المحطة المائية التي يعمل فيها أن سكّان المستعمرة قد اكتملوا وليست هناك أيّة رحلات أخرى إلى الأرض، وقد تمّ رصف الباصات الفضائية التي تعمل على الطاقة النووية في مرائب

ضخمة تحت سطح المرّيخ بجوار المستعمرة. كما أنّ خلية سياسية مصغّرة قد باشرت العمل فعلياً كحكومة إدارة، وهي على اتّصال بكلّ المستجدّات مع البلد الأمّ على كوكب الأرض.

كانت أغلب البلدان حول العالم قد بنت مستعمرات لها على الرقعة الاستيطانية المختارة على سطح المريّخ، وكلّها تعتمد على المحطّة الرئيسة لامدادها بالموارد اللازمة، فهي تغذّي الجميع بالأوكسجين والماء والغذاء. بالإضافة إلى احتواء هذه المحطّة على المكتبة الأرضية المركزية، ونسخ من كلّ الموادّ الفنّية والصوتية لتراث البشر على الأرض مخزّنة على حواسيب ضخمة.

كانت هناك امتدادات جديدة في المستوطنة الكبرى سيتمّ العمل عليها خلال السنوات القادمة، وتحديداً بعد التأكد من فناء الحياة الأرضية، أما إذا حدث عارض غير متوقّع ونجت الأرض من حزام النيازك المدمّرة، فسيتمّ الغاء خطط التوسّع المستقبلية، لصالح العودة إلى كوكب الأرض.

لم تكن المستعمرات تختلف عن بعضها بأشياء كثيرة، ما عدا جلب بعض الدول لكامل خزينها من الأعمال الفنّية والتحف الأثرية، رغم أنّها لم تعرضها أمام الجمهور العام، ولكن تحسبّاً لبناء متاحف مستقبلية.

انفردت المستعمرة السويدية ببعض التفاصيل، منها تقنية إفناء الفضلات من خلال الثقب الأسود، الذي يتمّ فتحه من خلال سوار الكتروني على المعصم، وما أن يتمّ إدخال الكود المناسب فإنّ الثقب بحجم كفّ رضيع ينفتح، ليشفط ما ترميه باتّجاهه من نفايات. ثمّ باطفاء الزرّ بالسوار يختفي الثقب الأسود بشكل تام.

كان جبر يراقب عمل الخبراء السويديين بجواره في المحطّة القمرية والذين لم ييأسوا من العمل على تطوير هذه التقنية وتوسيعها لاستيعاب الأجرام المهاجمة للأرض، رغم أنّهم يتوقّعون أنّ الأوان قد فات على انجاز أيّ نجاح في هذا المجال في الوقت المناسب.

ذات نهار افتراضي يصنعه البثّ المركزي على شاشات المساكن الداخلية فتح فضيل باب شقّته وهو يهمّ بالمغادرة إلى مكان عمله. خرج وعالج القفل ببطاقة الكترونية، ثمّ رفع بصره لينظر في عمق الممرّ الذي تتوزّع أبواب الشقق الأخرى على جانبيه. كانت هناك فتاة تتقدّم باتجاهه، شقراء بشعر طويل، نحيلة الساقين وحقيبة حمراء جلدية تتأرجح من كتفها، وما أن سطع النور السقفي في الممرّ، الذي ينفتح تلقائياً، على وجه الفتاة وهي تقف أمام فضيل حتى عرفها في الحال؛ إنّها شاميرام كينيل.

ظلّا لنصف دقيقة في وضعية ثابتة، هو يرمق هيئتها الجديدة مع تنفس يتصاعد وضربات قلب تتزايد، وهي ترمقه بابتسامة خفيفة تحمل الكثير من الكلام. في النهاية مدّت يدها إليه فرفع يده وصافحها.

ـ هاي ثاني مرّة يا ابن دنخا.. بعد وين تريد تهرب... إلى حافّة مجرّة درب التبّانة؟!

قالت شاميرام وهي تشير بيدها جانبياً وكأنّ المجرّة في نهاية الممرّ. لم يردّ فضيل بشيء، ثم افترض أنّ هناك خطأ ما، ربّما هو لم يصحُ من نومه بعد، ربّما يحلم، شتّت ذهنه دون قصد بهذه الافتراضات الواهية، الأمر الذي ساعده في العثور على ردّ مناسب على سؤال شاميرام:

ـ خلي ندخل إلى الشقّة ونحكي؟

ـ لا فضيل.. إذهب إلى عملك. أنا أعرف كلّ شيء حول وضعك. ولست بحاجة إلى شيء منك. لا أن تشرح أو تعتذر، ولا أريد أن أرحمك بالأجوبة على الاسئلة التي تتقافز في رأسك الآن. فقط أردت إبلاغك بأنّي قادرة على النجاة والعيش من دونك.

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ لا تسأل.

تركته واقفاً ثمّ غادرت من حيث ما جاءت. أراد أن يعلّق بعبارات عاطفية صادقة، كأن يقول؛ إنّه هو الذي لم يستطع الاستمرار بالعيش من دونها. هو يحتاجها أكثر ممّا هي تحتاجه. وقد كانت الأشهر الطويلة الماضية عذاباً متّصلاً يحاول تخفيفه بالاختلاط مع الآخرين، أو افتراض أنّه قادر على مشاركة إمرأة أخرى سريرها. ولربّما دفعه الشعور بالذنب وإحساسه بافتقاده لشاميرام والشوق إليها إلى البكاء في السرير الذي يتقلّب فيه وحيداً.

كان فضيل منذ أن وطئت رجله أرض المرّيخ يتواصل مع جبر شولكي في المحطة القمرية الوسطية، ويبلغه بالتطوّرات التي تحصل معه. لم يكن هناك شخصٌ أسعد من جبر بالخطوة التي خطاها فضيل. وجبر هو الذي أبلغ صديقه الخمسيني أنّ المستعمرة العراقية قد بدأت العمل بالفعل، ولكنّه لم يتوقّع أن تكون شاميرام من ضمن ركّاب سفينة النجاة العراقية.

حين راجع مواقع الرحلات الأرضية، تأكّد جبر من وجود اسم شاميرام كينيل على الرحلة العراقية الذاهبة إلى المرّيخ. لقد حازت على ما يبدو

بطاقة اليانصيب الرابحة التي كانت موضوعة للتنافس بين آلاف المهندسين المدنيين العراقيين. إنّه حظّ نادر لا يناله كلّ إنسان.

حين سمع جبر بالأنباء الجديدة ظلّ يضحك من هذه المفارقة، الأمر الذي أزعج فضيل فهو ينتظر ردّة فعل أخرى من صديقه المقرّب.

ـ ما الذي فعلته لك؟ هل هي مقيمة معك الآن؟

ـ لا.. عادت إلى سكنها في المستعمرة العراقيّة على ما يبدو.

ـ خلص.. إنسَ الموضوع. كن صلباً. لا تعتذر عن أيّ شيء. كلّ واحد شقّ طريقه بنفسه الآن، والسلام.

كان الكلام سهلاً، ولكن ماذا يفعل فضيل بنفسه التي تتداعى الآن من الداخل، حتّى أنّه في ثرثرته اليومية الجميلة مع آنّا دنكن صار شارد الذهن، ويفكّر بما تفعله شاميرام الآن. هل هي برفقة رجل آخر؟ بدت جميلة جداً، وكأنّها أصغر من عمرها الفعلي بخمسة عشر عاماً. إنّها إمرأة قوية ولديها إصرار مثير للإعجاب، لا بدّ أن يفخر بهذه المرأة أيّ رجلٍ يرتبط بها، لا أن يفرّ منها عابراً الكواكب.

ظلّ يبحث في موقع المستعمرة العراقية على النت، وشاهد بوابة عشتار الزرقاء تزيّن واجهة استعلامات المستعمرة، وصوراً هيلوغرامية ثلاثية الأبعاد للنخيل وبعض المعالم الأثرية العراقية. ثم شاهد صوراً لضريح رمزي كبير، يحوي كسراً من سيراميك الأضرحة الدينية كلّها، وفي داخله قبضات من تراب كلّ هذه الأراضي المقدّسة. كان يمرّ على هذه الصور ويتوقّع أن يرى صورة ما لشاميرام، ولكنّه لم يعثر على شيء.

- 12 -

بعد عدّة أيام كان فضيل يتحدث من شقّته مع صديقه العتيق جبر شولكي عبر برنامج مكالمة فيديوية حين سمع رنين جرس الباب. استغرب فضيل وقال في نفسه إنّ هذا أوّل حدثٍ من نوعه. أنهى الاتصال مع صديقه وتوجّه إلى الباب، وحالما فتحه شاهد الفتاة الجميلة ذات الشعر الاشقر والسيقان النحيلة، شاهد شاميرام.

اندفعت نحوه ثمّ من دون مقدمات طبعت قبلة على شفتيه وحوّطته بذراعيها، وما أن حرّكت شفتيها على شفتيه بشكل دائري وضغطت عليهما بقوّة أكبر حتّى طفرت الدموع من عينيّ فضيل. أغلق الباب، ثمّ ظلّ يتراجع بخطواته وهو يحضن شاميرام مستمرّاً بتقبيلها حتّى دخلا غرفة النوم القريبة وفي تلك اللحظة دفعته شاميرام إلى السرير. تعرّيا وانتبه إلى جسدها المشدود الذي أنفقت كلّ مدخراتها على نحته. ظلّا صامتين على مدى ساعة، ما سوى التأوّهات والانفاس المتلاحقة. مارسا الجنس كما لم يفعلا ذلك سابقاً، ثمّ انطرحا على ملاءات السرير وهما ينظران إلى الأعلى.

ـ هل لديك سيجارة؟

سألت شاميرام، وتفاجأ فضيل، فالتدخين محرّم هنا، ولا يوجد حتى من يبيع السجائر. وحين أخبرها بهذه المعلومة بيّنت أنّها طبعاً تعرف ولكنّها توقّعت أنّ مدخّناً شرهاً مثله سيهّرب علبة سجائر واحدة على الأقل.

ـ لا.. عانيت في البداية، ثمّ هدأت، والآن لا أشتهي التدخين.

ـ ستفقد شهيّتك تجاه أشياء كثيرة، سيتمّ ترويضك هنا لتكون مناسباً لمستعمرة مرّيخية.

ظلّا يثرثران وكأنّهما يقضيان يوماً أرضياً عادياً، ثمّ قامت شاميرام وذهبت إلى الحمّام وعادت لترتدي ملابسها، وكأنّها تريد المغادرة.

ـ لماذا لا تبقين؟

ـ يجب أن تعاني. يجب أن أعاقبك يا فضيل.

ـ ما الذي تريدين منّي أن أفعل. فقط سامحيني. هل نحاسب بعضنا وكأنّنا في حياة طبيعية ولا نتعرّض لقيامة مهولة؟!

ـ لا تتحجّج بهذه الأشياء. لقد حطّمتني، سنة وشهرين لا أعرف هل أنت ميّت أم حيّ أو إلى أين ذهبت.

قالت شاميرام ذلك ورمت حسرة طويلة ثمّ أكملت وهي تحدّ إلى زوجها المنطرح على السرير بنظرة يعرفها فضيل جيداً:

ـ حتّى نعود إلى لحظة صفرية ونتعادل، يجب أن تعاني أوّلاً بالمستوى الذي عانيتُ به.

ـ وما الذي فعلناه الآن؟ ألا يبدو هذا نوعاً من المصالحة؟

ـ لقد انطلق لسانك حقاً يا فضيل.. صرت تردّ عليّ. أمّا هذا الذي فعلناه فهو شيءٌ يخصّني.

قالت ذلك ثمّ رفعت حقيبتها الحمراء الصغيرة التي لا تناسب عمرها وغادرت الشقّة.

في صباح اليوم التالي شاهد فضيل على بريده الالكتروني ملفّات بعثتها

شاميرام، وحين فتحها رأى أنّها صور لشاميرام وهي في بار مع أشخاص آخرين. في واحدة من الصور كانت تحتضن رجلاً سويدياً أشقر في الأربعينيات من خصره بينما يعلّق هو ذراعه حول رقبتها.

كانت رسالتها المرفقة قصيرة: لقد جرّبت علاقات مع رجال غيرك.. كنت مساء البارحة أريد التأكّد من ذكرياتي. نعم، لم يكن الجنس معك مدهشاً، ما زلت سيئاً حتى في هذا القضية.

نزلت عليه الرسالة والصورة المرفقة معها مثل الصاعقة. أراد أن يردّ عليها، أن يشتمها مثلاً، ينعتها بالقحبة الخائنة، لكنّ أصابعه تجمّدت. قضى النهار كلّه يأكل بنفسه، وصوتٌ ما في داخله يخبره أنّها مجرّد لعبة وكذبة. أنّها تريد معاقبته كما أخبرته ليلة البارحة.

بعدها بيومين ظهرت من جديد أمام باب شقّته مساءً. لم تكن الرحلة من المستعمرة العراقية حتى هنا بالهيّنة. إنّها تنفق عدّة ساعات ما بين محطّة المستعمرة العراقية حتّى مركز المستوطنة الأرضية، ومن هناك تبدّل القطار باتّجاه المستعمرة السويدية. هل تجد في هذه الرحلات والألاعيب التي تصنعها مع زوجها نوعاً من التسلية؟ يفكّر فضيل بذلك في الوقت الذي يفترض أن يشغله بالتفكير بردّ مناسب على حدث الخيانة المروّع الذي قامت به شاميرام. أراد أن يصرخ بوجهها، يخنقها، يصفعها، ولكنّه ظلّ بارداً وصامتاً وهو يعود من الباب إلى الأريكة الجلدية في الصالة ويجلس عليها. جلست شاميرام على كرسي أمامه، وما أن استرخت في جلستها حتى سألته:

ـ هل صدّقت برسالتي؟

ـ التي تحصل على بطاقة يانصيب نادرة برحلة من الأرض إلى المرّيخ، بإمكانها أن تفعل أيّ شيء آخر.

ـ يعني أنت تصدّق أنّني أخونك؟

ـ ماذا تريدين يا شاميرام؟

ـ أريد أن أعرف ماذا أمثّل بالنسبة لك.

ـ لقد تركتكِ وهربتُ مرّتين، أنتِ فسّري الأمر.

تدفّقت طاقة غامضة في صدر فضيل وشعر بأنّه يردّ الآن بالكلام المناسب الذي فشل طوال عمّره باستحضاره، ربّما هذا تأثير الحياة هنا، ربّما هو يغادر خوفه وحرصه السابق على عدم إزعاج شاميرام. كان يفترض مع نفسه خلال رحلته الطويلة من السويد إلى هنا أنّ شاميرام ستكون في حال أفضل حين تبحث عن زوجها المفقود ولا تجده ولا تعرف أين رحل، ثمّ يداهمها الهجوم الجرمي الحارق لتموت مع هذا الاحساس، فهذا أفضل من معرفتها أنّه تركها وهرب إلى المرّيخ، سيكون ذلك مثل عقوبة، وهو لم يرغب بمعاقبتها بهذه الطريقة، أمّا الآن فتمنّى لو أنّه يملك سوطاً نارياً ليجلدها.

استمرّا يتجادلان، وشعر فضيل أنّ القدرة الفائقة لشاميرام على الاستمرار بالجدال حتّى إفحامه وإسكاته لن تكون نافعة هنا، فهو يصرّ الآن على إسكاتها وأن لا يتركها تغلبه، بسبب التعب أو غياب الحجّة.

دخل إلى غرفة نومه فلحقت به وهي تستمرّ في الكلام عن الأيّام المضنية التي قضتها في بغداد بانتظار أن يبعث لها برسالة ليبلغها بلمّ

الشمل، ثمّ تكرّر الأمر ثانيةً مع هروبه الغامض فجر ذلك اليوم باتّجاه المحطّة الفضائية السويدية. إنّها تريد أن تفهم، لا أكثر ولا أقلّ، وكان فضيل يردّ عليها، ولا تبدو أجوبته مقنعة، الأمر الذي يثير نوبة أسئلة أخرى. كان الأمر أشبه بمبارزة ولا يبدو أنّ شاميرام مستعدّة للهزيمة، لم تتعوّد على ذلك طوال حياتها مع فضيل. كان هو من يستسلم ويدخل مثل جرم في مدار حياتها، وليس العكس، وحتّى لو اختار العيش بمفرده هنا، فعليها أن تذكّره بأنّها قادرة على تنغيص حياته، كنوع من الضريبة التي يدفعها فضيل لتركها وحدها.

شعر فضيل بالدّوار، وعدم القدرة على الكلام. فتح الكود في سوار النفايات على يده، فانفتحت هوّة سوداء بحجم نافذة. تقدم فضيل باتجاه شاميرام ونظر في عينيها، بدا وكأنّه سيندفع لتقبيلها، لينتهي هذا الدوار من الانفعالات السلبية المتصاعدة نحو مزاج آخر وربّما يمارسان الجنس، ولكنّه دفعها برفق فترنّحت على كعبها إلى الخلف لتسقط في الهوّة السوداء التي شفطتها بسرعة. ضغط فضيل على زرّ الإقفال فانغلقت الهوّة السوداء بلمح البصر.

كانت التوسعة الجديدة في هوّة النفايات هي الحدّ الجديد الذي وصل إليه فريق الباحثين في المحطّة القمرية، وقد أرسل جبر شولكي منذ أيام كود التوسعة إلى صديقه على سبيل اللّهو، ولم يجرّبه فضيل سابقاً. حدثت الأشياء كلّها بسرعة فائقة إلى درجة أنّ فضيل لم يستطع فهم شيء، لا مسار الكلام المتشعّب المرهق الذي اندفع فيه مع شاميرام، ولا تلك الطاقة العجيبة التي استولت عليه ليدفعها إلى الهوّة السوداء، ثم هو لا يفهم لماذا يشعر بالراحة الآن إلى درجة أنّه يشتهي التدخين، ويشتهي أشياء كثيرة،

ربّما لبس بدلة روّاد فضاء والانطلاق سائراً على تراب المريّخ خارج حدود المستعمرة السويدية. ومع تزاحم الاشتهاءات التي هجمت عليه، انتبه إلى الحقيبة الجلدية الحمراء الصغيرة لزوجته، ثمّ شالها الحريري الذي رمته على مسند الأريكة الجلدية، قطعة نشّاف مجعّدة في منفضة زجاجية كبيرة توسّطت الطاولة في الصالة. كرّر بسرعة إدخال كود التوسعة فانفتحت الهوّة السوداء من جديد. توقّع لوهلة أن تطلّ زوجته عليه بوجهها عائدة إليه. رما متعلّقات شاميرام في الهوة، ثمّ أغلقها وانطرح على سريره. ظلّ ساكناً على هيئته هذه عدّة دقائق ثمّ غطّ بعدها في نوم عميق.

- 13 -

خلال الأسبوع اللاحق جاءت وحدة من الشرطة الدولية لتحقّق معه بشأن اختفاء المهندسة المدنية شاميرام كينيل. أنكر فضيل معرفته بمصيرها، وشعر بالرعب من احتمال وصول التحقيقات إلى الكشف عن كود التوسعة الذي سرّبه له جبر شولكي في لحظة سكر. سيقتل نفسه ولا يؤذي صديق عمره الذي ساعده وتفضّل عليه وما كان له أن يصل إلى هنا إلّا بسببه.

لم يتّصل بجبر خلال ذلك أبداً. ما الذي سيقوله لصديقه المخلص؟ لقد قتل زوجته بمساعدة من صديقه؟ كيف يضع جبر في هذه المشكلة؟ وكيف سينظر إليه هذا الصديق بعدها؟ هل يغفر له، هل يقول له مثلاً: عاشت أيدك فضيل. لقد قمت بعمل جيد.

عادت وحدة الشرطة الدولية لتحقّق معه، وحملت شرطية سمراء حاسوبا لوحياً في يدها وفتحت عدة اشرطة فيديو لكاميرات مراقبة، كانت

توضح تتابع حركة شاميرام في الليلة المشؤومة. لقد انتهت إلى باب شقّة فضيل، وهذا أمر لا يبدو صعباً وكان على فضيل أن يتوقّع وجوده. ولكنّه لم يكن في كامل وعيه. لقد ضغطت عليه شاميرام إلى أبعد حدّ ولم تترك له مهرباً آمناً من الإذلال الذي تريد أن ترى زوجها فيه.

لقد صنعت شاميرام بنفسها هذا المصير. وتمنّى لو يخبر الشرطيّة السمراء بهذا الكلام، ولكنّه ظلّ ينكر معرفته بأيّ شيء عن مكان شاميرام الآن. هو فعلاً لا يعرف مكانها، وعلى الأغلب هي في العدم المطلق الآن، ولكن، يحتاج إلى زيارة إلى هذا العدم المطلق ليتأكّد من وجود شاميرام فيه.

كان يهذي مع نفسه بمنولوجات صامتة، وتركته وحدة الشرطة الدولية مع تأكيدات بأنّ التحقيق سيستمرّ. كان فضيل متشبّثاً بفكرة أنّ غياب الجثّة التام وغياب أي دليل على وجود جثّة لن يؤكد ارتباطه بأيّة تهمة قتل. نعم، سيظلّ متّهماً مشكوكاً بأمره ولكن لن يتمكّن أحدٌ من إدانته أبداً.

ولكن، ماذا يفعل مع شعوره بالذنب. إنّه ليس هروباً ثالثاً من شاميرام، وإنّما افتراقٌ أبديٌّ. لقد نجحت شاميرام هذه المرّة أيضاً في جعله جرماً يتحرّك في مدارها هي. لقد انتصرت عليه مرّة أخرى، وها هي أيّام حياته القادمة ستكون مسمّمة بعدم القدرة على الحياة أصلاً. ما الذي فعله لهذه المرأة؟ لقد جاء هو هنا بمصادفات حسنة ليس إلّا، بينما هي خاضت كفاحاً صلباً للحصول على فرصة نجاة.

ظلّ شعوره بالذنب يتعاظم في داخله، إلى الحدّ الذي دفعه إلى عدم مغادرة السرير أصلاً، ولم يردّ على الاتّصالات الكثيرة من محطّة المياه

التي يعمل فيها، حتّى أنّ اثنين من زملائه مع آنّا دنكن زاروه في الشقّة للاطمئنان على صحّته.

كان يتخرّب تماماً ويقضي وقتاً طويلاً في البكاء على شاميرام. لقد اكتشف أنّ خليط المشاعر التي كان يعايشها تجاه شاميرام تبقى مجرّد مظلّة ثقيلة تغطّي شعوراً واحداً أكثر قوّة وصلابة، ألا وهو الحبّ، فما الذي يدفع شخصين إلى الاستمرار بعلاقة على مدى عقود طويلة إن لم يكن الحبّ هو الصمغ الأساسي فيها؟ يتساءل فضيل مع نفسه ويردّ عليها، متجاهلاً قوّة وأصالة المشاعر الأخرى التي دفعته إلى محاولات هروب متكرّرة.

لو أنّ جبر شولكي قاد مركبة فضائية من القمر باتّجاه المرّيخ وجاء إليه الآن لربّما استطاع استيعاب المشاعر السلبية التي صارت تسيطر عليه، لربّما ساعده في العثور على حلّ بعيد عن مدار شاميرام وما تريده شاميرام منه، رغم اختفائها من هذه الحياة.

لم يجد في نفسه طاقة مناسبة للاتّصال بجبر، حتّى ولو من أجل كلمات أخيرة. أخرج علبة جهاز الأس دي. ربطه على ذراعه، وباتّباع التعليمات استرخى على سريره ريثما تتشكّل الحبّة السحريّة. كان يفكّر أثناء ذلك، كما هو مطلوب في التعليمات، بالفكرة الحلم التي يريد الإيمان بها ولا يجد عقله ذو الحسابات المنطقية القدرة على ذلك.

كان يفكّر بأنّ زوجته سبقته إلى عالم أفضل، وما الثقب الأسود إلّا بوّابة تختصر المسافات ما بين مستعمرة السويد على سطح المرّيخ وعوالم أخرى بعيدة في الزمان أو المكان. لا شكّ أنّ الحياة هناك بلا تهديد من أجرام سماوية شريرة ولا حاجات ملحّة لمغادرة الأوطان الأصليّة باتّجاه

بلدان منفى، أو باتّجاه مستعمرات مرّيخية كابية حزينة، كلّ شيءٍ فيها هو تقليد غير مقنع للحياة الفعلية.

سيحصل هناك، في ذلك المكان المجهول بالنسبة له حتى الآن، على لحظة تعادل مع شاميرام في مباريات العقاب المتبادل بينهما، ويستطيعان بعدها العيش بسلام.

رفع الحبّة من الكبسولة البلاستيكية الشفّافة، ثمّ ابتلعها على الفور. نزع الجهاز من ذراعه ثمّ اتجه إلى المطبخ ليشرب كأس ماء.

بعد نصف ساعة شعر بالتأثيرات المطلوبة وهي تغزو كامل عقله. صارت الفكرة الخيالية منطقية ومقبولة. ثمّ سريعاً فتح الهوّة السوداء لسوار النفايات. نظر لعدّة ثوانٍ إلى مربّع النافذة للهوّة، ورغمَ أنّه لم يرَ شيئاً هناك غير السواد إلّا أنّه كان مؤمناً وهو يقفز باتّجاهه أنّه سينزل بقدميه في عالم جميل لم يفكّر أحدٌ من البشر بارتياده بعد، ولا يحوّي بين سكّانه سوى شخصين أثنين؛ شاميرام وفضيل.

إشارات:

- أسماء الأحياء التالية مختلقة ولا وجود لها على أرض الواقع: حي الراغبية، حي الواديّة، حي الربيعية.
- كذلك الأمر مع أسماء الأحزاب التالية: حزب الأمة الإسلامية، حزب الأمة الوطنية، الحزب الإسلامي الاصلاحي.
- مفردات باللهجة الشعبية العراقية:

- القصّخون؛ هو الحكواتي، راوي الحكايات الشعبية.
- الصكّاك: مفردة انتشرت بعد عام 2003 ويقابلها بالفصحى؛ القاتل المحترف.
- خوشيّة: مفردها خوشي، مفردة باللّهجة العراقية تعني الفتّوة أو القبضاي.
- سالوفة أو سالفة: تعني حكاية.
- العرقشين، أو القرجين بالجيم المثلثة، مفردة باللهجة العراقية تركية الأصل، وهي غطاء الرأس القطني المزخرف، الذي يلبس عادة تحت الغترة العربية.
- الجنابر: مفردها جَنبَر، بالجيم المثلّثة، تسمية شعبية للبسطة في السوق الشعبية لبيع المواد المختلفة، وتسمية لعربة بيع الشاي الشعبية.

أحمد سعداوي:

- روائي وشاعر عراقي.
- مواليد بغداد 1973.

صدر له:

- **عيد الأغنيات السيئة**، شعر، مدريد 2001.
- **البلد الجميل**، رواية، بغداد 2004. حازت الجائزة الاولى للرواية العربية في دبي 2005.
- **إنه يحلم أو يلعب أو يموت**، رواية، دمشق 2008. حازت جائزة هاي فاستيفال 2010، بيروت 39.
- **فرانكشتاين في بغداد**، رواية، حازت جائزة البوكر العربي 2014، وجائزة الترجمة الايطالية 2016. وجائزة الخيال الابداعي الكبرى في فرنسا 2017. والقائمة القصيرة مان بوكر البريطانية 2018.
- **باب الطباشير**، رواية، بغداد 2017.

الوَجهُ العَاري
داخلَ الحُلم

عشر قصص طويلة تجاور بعضها حدود النوفيلات والروايات القصيرة، يتجلّى فيها أسلوب السعداوي الساخر والتأملي. إنه يذهب الى قلب المفارقة في الواقع العراقي، ويضعنا أمام حكايات جديدة وملفتة.

* الناشر

مراجعات سابقة

سعداوي يمزج الخارق، المرعب والدنيوي ليصبح مزيجاً ذا تأثير ممتاز... لديه نضارة في كلٍ من صوته ورؤيته.

" دويت گارنر، نيويورك تايمز

سعداوي يكتب تركيبة تتكون من السخاء، القسوة، والفكاهة السوداء. لديه عين الصحفي لرؤية التفاصيل و احساس الرسام الكاريكتيري في السخرية.

" روي سكارنتن، نيويورك تايمز

ابتهاج مظلم ... صورة حيوية لبغداد مكتظة، عالمية ... الحس الفكاهي أحياناً يسبب نوبات من الضحك.

" نيو ستيتمان

فوتوغراف: علاء إسماعيل

ISBN 978-9-9226069-4-1
9 789922 606941

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain_L
dar.alrafidain
dar alrafidain دار الرافدين